
كتب
غيرت
العالم
روبرت داونز
ترجمة : أمين سلامة

كتب غيرت العالم

تأليف : روبرت ب. داونز

ترجمة : أمين سلامة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٧

القوة الهائلة
للكلمة المطبوعة

كتب غيرت العالم

يصف هذا المجلد ستة عشر كتابا عظيما غيرت مجرى التاريخ . هؤلاء الكتاب الخالدون فى الذاكرة ابتداء من كوبرنيكوس Copernicus وهاريت وبيتشرستو Harriet Beecher Stowe الى داروين Darwin وفرويد Freud واينشتين Einstein أثاروا الناس ضد الظلم وبدأوا الحروب وقلبوا آراء الانسان عن الدنيا وعن نفسه .

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

الفهرس

دنيـا العـلوم

الكتب أسلحة

ابدت الكتب قوة هائلة من اجل الخير ومن اجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى . هناك مناقشة فاحصة لستة عشر كتابا من أهم مؤلفات جميع العصور ، كان لها تاثير على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمى ، من عصر النهضة الى يومنا هذا .

أنها كتب بالغة القوة ، مثل : « نضالى Mein Kampf » لهتلر Hitler ، ذلك الكتاب الذى تنبأ بالموت والدمار اللذين احدثتهما الحرب العالمية الثانية ، وكتاب هارفى Harvey الشهير عن الدورة الدموية ، الذى غير النظرية الطبية والعلاج ، ونظرية أينشتين Einstein عن النسبية التى بدأت العصر الذرى . وصفت هذه الكتب وصفا دقيقا واضحا فى هذا الكتاب المثير السهل القراءة . ومؤلفه هو الدكتور دوانز Dr. Downs الرئيس السابق للمكتبة الامريكية ورئيس مكتبة جامعة الينويز Illinois ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب وكتب أخرى ، منها عرض نيوتن Newton لاكتشاف قوانين الجاذبية التى صارت حجر الزاوية فى النظرية العلمية اليوم . وكتاب داروين Darwin « أصل الأجناس » ، الذى ظن الكثيرون من رجال الكنيسة انه يتعارض مع تعاليم التوراة ومؤلف هاريت بيتشرستو بعنوان ((كابينة العم توم)) الذى يعتبر احد الاسباب الرئيسية فى الحرب الاهلية الامريكية . وتفسير فرويد

للاحلام ، ذلك المؤلف العظيم لرجل احدث انقلابا فى افكار الرجل العصرى عن نفسه •

وهانحن ذا نقدم هنا عرضا مثيرا لكتب من عدة عصور تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة واثرها على التقدم البشرى •

المقدمــة

يقــول وهم شائع على نطاق واســع أن الكتب جمادات هادئة خاملة ليس لها تأثير ، انهــا خاصــة بالاماكن الحبيسة والهدوء النظرى للاديرة والجامعات وغيرها من أماكن الهروب من العالم المادى الشرير . وتبعا لهــذه الفــكرة الغريبة الخطأ ، تزخر الــكتب بالنظريات غير العملية ، وأهميتها تافهة لرجل الاعمال ذى الرأس الصلب .

حظى متوحش الغابة بفهم أكثر واقعية وهــو ينحنى أمام الصفحة المطبوعة ، لقوتهــا الخارقة على نقل الرسائل . وتتراكم الأدلة فوق الأدلة ، طــوال التاريخ ، على أن الكتب بريئة وعديمة الضرر وغــير تافهة . فهى غالبا ماتكون عظيمة الحــركة وافــرة الحيوية قادرة على تغيير مجرى الاحداث تغييراً كليا ــ للخير أحيانا وللشر أحيانا أخرى .

لدى دكتاتورى كل عصر نظرة داخلية حكيمــة الى القوة الهائلة للكتب .. فكلما وأينما أرادت حكومات

الطغاة وذوى السلطان ايقـاف المعارضات وقتل الآراء اتجه تفكيرها ، دون استثناء تقريبا ، الى اتلاف كتب الأراء المضادة ، وفى أغلب الاحيـان ، الى اهـلاك مؤلفيها . غير انه ، على نقيض ذلك ، التفت هـؤلاء الطغاة الى صالحهم ، ففرضوا سيطرتهم على أولئك الناس ، وعلى كتب بعينها ، مثل كتاب هتلر «نضالى» وكتـاب « رأس المـال Das Capital» لكارل ماركس Karl Marx والكتابات الضـخمة التى كتبهـا لينين Lenin وستالين Stalin . وما من أحد يدرك ، خيرا من الطاغية نفسه ، ضخامة القوة الناسفة الكامنة فى الكتب .

وفى بعض المناسبات ، تطبق هذه الفكرة فى الامم الديموقراطية ، مثال ذلك ، الاحساس المنتشر واسعا بالصدمة وعدم التصديق بين أفراد الشعب الامريكى واصدقائهم فى الخارج منذ بضع سـنوات خلت بأن ادارة حـكومة الولايات المتحـدة شـغلت فى مكتبات الاستعلامات بالخارج ، فى برنامج ضـخم للرقابة على الكتب ، وفى عدة أماكن أخرى باحراق فعلى للكتب . فكان رد الفعل عنيفا لدرجـة ان الرئيس ايزنهـاور Eisenhower نفسـه تدخل فى الأمر محاولا تبرئـة سمعة الحكومة الامريكية ، فألقى خطـابه المشـهور «لاتنضم الى حارقى الكتب » . راى الناس بغريزتهم؛ فى كل مكان ، أن الكتب ضرورية وأساسـية للثقـافة والحضارة الحديثتين ، كما كانت فى القرون الماضية.

الغرض من هذا المؤلف هو توضيح القوة العاتية للكتب ، عن طريق مناقشة أمثلة معينة . فأولا ، يجب

التركيز على أنه ليس فى نيتنا تقديم قائمة «بأحسن الكتب» أو «أعظم الكتب» ، فان عمل مثل هذه القوائم هواية محبوبة لتمضية الوقت لنقاد الادب والمؤلفين والناشرين ورجال التعليم وأمناء المكتبات ، الذين تنحصر توصياتهم فى العلوم الادبية . أما الهدف منه فهو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم أثر عميق على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمى منذ عصر النهضة ، تقريبا ، الى منتصف القرن العشرين .

المشكلة فى مثل هذا الامر ، هى بالطبع فى الاختيار تأتى الى الذاكرة تلقائيا حفنة من العناوين ، فيتنوع الاختيار منها تنوعا كبيرا ، ويحذف معظمها عند استعمال العدد الواقع فى الصف الاول ، اذ لابد أن يكون هذا الكتاب ذا وقع عظيم مستمر على الفكر والعمل البشريين ، ليس لأمة واحدة فحسب ، وانما لاعظم جزء من العالم . وعندما يتعرض المرء لهذا الاختبار القاسى ، يأخذ فى حذف عنوان بعد آخر .

لاسباب عملية تقرر عرفيا حصر النقاش فى كتب العلوم والمواد الاجتماعية ، وحذف تلك المجالات الواسعة كالدين والفلسفة والادب . وقد يحدث أن يكون تأثير الروائع الدينية والادبية أقوى بكثير من تأثير بقية الانواع مجتمعة . ولكن ، كيف يتسنى للمرء ان يعرف تأثير كتاب مثل ترجمة الملك جيمس James للتوراة ؟ أن استخدام أى هدف على مستوى غير موضوعى لايتفق ومثل هذا المؤلف العجيب ، أو أدب شكسبير Shakespeare وملتون

Milton الذى يخلق عقبـــات كأداء ، فوقعهـــا على المجتمع شامل تماما : على اللغة والادب والفلسفة وطرق التفكير والاخلاق، وكل وجه من وجوه الحياة ، لتكون بالغة الاتساع .

رغـم هـــذا ، هب اننا نضمن كتابنا : الدين والفلسفة قديمهما وحديثهما ، اذن لصار لدينا عدد ضخم من الكتب : التـوراة (ترجمـة الملك جيمس ودواى Douay) والتلمود والقرآن والبـوذية المقدســة والكتـابات الهنـدوكية ، وكونفشـيوس Cofucius والفلاســفة الاغريق والقديس أوغسطين St. Augustine والقـــديس ثـوماس أكوينـــوس St. Thomas Aquinus ومارتين لوثر Martin Luther وعمانوئيـــل كانت Immanuel Kant وكثير جـــدا غير هذه الكتب . واذا نظـرنا الى الكتب من ناحيـة تأثيرها وجدنا هناك مؤلفين امريكيين هما : «العـلم والصحة» تأليف مارى بيكر ادى Mary Baker Eddy وكتاب «المورمون « Mormno » لجوزيف سميث Joseph Smith (١) .

وربما كان الاصعب من هـــذا هو اختيار اعظم مافى التراث الادبى : الخيال والدراما والشعر والنثر، الذى حرك مشاعر العالم وايحاءه . تخطر على البال مباشرة مثل هذه الاسماء لكتاب الاغـــريق والرومان الكلاســيكيين ، ودانتى Dante وتشـــوسر

---

(١) المورمون مذهب نشأ فى ولاية أوتاه بالولايات المتحدة الامريكية ، ينادى بتعدد الزوجات

Chaucer ورابليه Rabelais وسيرفانت
Cervantes ومولير Molière وشكسبير
Shakespeare وميلتون Milton وجوتيه
Goethe وهين Heine ودستوفسكي
Dostoevsky ، وعشرات غير هؤلاء ممن ربما كانوا
اقل مرتبة .

ومن الكتب ذات التأثير البالغ ، كتب الرحلات، التى وسعت أفق الانسان منذ عصر ماركو بولو Marko Polo وعملت على رحابة عالمه . فتح رحالة العصور الوسطى المنقطع النظير ، ماركو بولو ، فى القرن الثالث عشر بلاد الشرق التى لم تكن أوروبا تعرف عنها شيئا ، وترك سجلا مثيرا من مغامراته واكتشافاته . كذلك خطاب كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus لسنة ١٤٩٣ الذى يصف فيه أولى رحلاته الى أمريكا والذى ترجم فى الحال الى عدة لغات مختلفة ، وطبع فى شتى دول أوروبا . وبطبيعة الحال خلق اثارة ومتعة بالغتين . وتلا هذين بفترة قصيرة خطابات أمريجو فيسبيوتشى Amerigo Vespucci التى أوجبت تساؤلا أكثر، وطبعت فى سنة ١٥٠٧ بمعرفة مارتين والسيمونر Martin Waldseemüller فى مؤلفه Cosmographiae Introductis (مقدمة أنظمة الكون) . فأدى هذا المؤلف الى تسمية الدنيا الجديدة باسم « أمريكا » . وكان القرن الذى تلا ذلك اشهر حقبة للرحلات والاكتشافات فى التاريخ المسجل ، رأت فيضا من أدب الرحلات المطبوع جمع

معظمه ريتشارد هاكلويت Richard Hakluyt فى أواخر القرن السادس عشر فى مؤلفه الشهير Principal Navigations, Traffics and Discoveries of the English Nation ،

كما جمع بعضه صموئيل بوركاس Samuel Purchas فى مؤلفه Pilgrims

وفى مجال الترحال ، يجب الا نغفل الكتب الخيالية البحتة ، مثل كتاب «حول العالم فى ثمانين يوما» تأليف جول فيرن Jules Verne (١٨٧٢) ، ذلك الكتاب الذى أثار المخيلة بما لم يثرها مثله اى كتاب غير خيالى . وحديثا جدا (١٩٤٣) الف وندل ويلكى Wendell Willkie كتاب « عالم واحد » فأسهم كثيرا فى منح مواطنيه نظرة خارجية دولية ، ولعب دورا فى فكرة تنظيم «الامم المتحدة» .

من الممتع أن نلاحظ ونقارن بين المحاولات السابقة احصر اسماء الكتب التى لها أعظم تأثير . وقد أعد ادوارد ويكس Edward Weeks وجوهين ديوى Johen Dewey وتشارلز ا . بيرد Charles A. Beard فى عام ١٩٣٥ لمجلة الناشرين Publisher's Weekly • فاختار كل من هؤلاء ٢٥ كتابا صدرت منذ عام ١٨٨٥ كان لها فى رايه أعظم تأثير . تضم القائمة الاخيرة المختارة من هذه خمسين عنوانا ، كان أربعة منها فقط («رأس المال» لماركس ، و « نظرة الى الوراء » تأليف بيلانى Bellany ، و « الغصن الذهبى » تأليف فريزر Frazer ، و « تدهور الغرب » تأليف سبنجلر Spengel)

اختيرت بالاجماع ، بينما نال ۲۹ عنوانا صوتا واحدا فحسب . ومن بين الكتب التي نناقشها في هذا المؤلف للمدة التي اختاروها ، ماكنـدر Mackinder ، لم يذكره كل من ويكس وديوى وبيرد ، بينما لم يختر كتاب هتلر سوى بيرد ، وكتاب ماركس وحده هوالذى اختاره الجميع . ولاشك في أنه في فترة عشرين سنة، تقوم هيئة ممتازة من الحكام باحداث تغييرات كبيرة ، اذا استطاعت ، اليوم ، أن تراجع ، ماسبق أن اختارته .

بعد ذلك ببضع سنين (١٩٣٩) قام مالكولم كاولى Malcolm Cowley وبرنارد سميث Bernard Smith بمحاولة تشبه هذه ، لاختيار الكتب التي غيرت عقولنا ، وبمعاونة فئة مختارة من رجال التعليم والمؤرخين والنقاد والمحاضرين ورجال الاعلان الامريكيين ، جاء ۱۲ عنوانا في راس القائمة على انها ، في حكم هذه الفئة ، اهمها في تشكيل العقل الامريكي المعاصر ، ولكنهم اوصوا ب ١٣٤ كتابا أخرى ، فكان الاختيار النهائي :

فرويد : «تفسير الاحلام »

آدمز : «تعليم هنرى آدمز » .

تيرنر : « الطليعة في التاريخ الامريكي »

سمنر Sumner « طرق الشعب Folkways »

فبلين Veblen : « مشروع العمل » .

ديوى Dewey : « دراسة في النظرية المنطقية » .

بواس Boas : «عقل الرجل البدائى» .

بيرد : « التفسير الاقتصادى للدستور » .

ريتشارز : « مبادىء النقد الادبى » .

بارنجتون Parrington : « التيارات الرئيسية فى الفكر الامريكى » .

لينين Lenin : «الدولة والثورة» .

سبنجلر : «تدهور الغرب» .

ومن هذه الاثنى عشر كتابا راى ويكس وديوى وبيرد اختيار مؤلفات فرويد وآدم وتيرنر وسبنجلر .

وقام الكاتب الانجليزى هوراس شيب Horace Shipp بمحاولة اخرى لاختيار أعظم الكتب تأثيرا ليستعملها فى كتابه « كتب حركت العالم » (١٩٤٥) دون تحديد للزمان أو المكان او الموضوعات . فاستقر رأى شيب على اختيار عشرة كتب هى :

التوراة

افلاطون Plato : «الجمهورية»

القديس أوجستين : «مدينة الله» .

« القرآن » .

دانتى : «الكوميديا الالهية » .

« مسرحيات شكسبير » .

بنيان Bunyan : « تقدم الحج » .

ميلتون : « عضوية محكمة جنايات أثينا » .

داروين : « أصل الأجناس » .

ماركس : « راس المال » .

وبالنسبة للتحديد المفروض فى دراستنا هـذه تحذف كل هذه الكتب ماعدا الثلاثة الاخيرة من هذه العشرة ، وفعـلا ، لم يضـم مؤلفنـا غـير الكتابين الاخيرين .

يتضح مما سبق انه من الصعب جدا الاجماع على كتاب بعينه . والاختيار أمر شخصى الى درجـة كبيرة وموضوعى جدا . والاتفـاق التـام على معظم الكتب المختارة غير محتمل ، ومع ذلك نأمل فى أن نكون قد وفينا كل كتاب حقـه من الدراسـة والتمحيص الدقيقين . وكذلك فعلنا فى مؤلفيها . ويجدر بنا أن نذكر بعض المؤلفات التى درست بعناية ودقة ، ثـم حذفت لسبب ما أو غيره .

فمثلا ، يوجد بين الكتب الكلاسـيكية للعلوم كتاب « مصنع جسم الانسان De Corporis Humani Fabrica (١٥٤٣) للمؤلف أندرياس فيـاليوس Andreas Vesalius ، جـــدير بمـكان فى تـاريخ الطب ، على قـدم المســاواة مع مـؤلف هارفى « De Motu Cordis » وتقف مؤلفات ليبنز Leibniz فى الرياضيات والطبيعة فى صف واحـد مع « مبادىء الرياضيات Principia Mathematica » لاسحق نيوتن . وفى العلوم الاجتماعية : كتاب « الطليعة فى التـاريخ الامريكى » تأليف فردريك جاكسون تيرنر

Frederick Jackson Turner وهــو مـؤلف لامع مســتحدث يحظى ، فى العــالم ، بأهميــة اقل ، و مجاله ، من «المحور الجغرافى للتاريخ» تأليف ماكندر Mackinder وكان كتــاب « الشــيوعى البين » تأليف مــاركس وانجلــز Marx and Engels قوة محركة للتغير الاجتماعى لمدة تزيد على القرن ، ولكنه أقل نضجا وأقل عناية فى مستنداته ، وربما كان أقل نفوذا فى تلك المدة الطويلة من كتاب « رأس المال » لماركس . ويفضل بعض النقاد كتاب « جماعة الوالدين Walden (۱) » تأليف ثورو Thoreau على كتــاب « العصــيان المــدنى » ومــع ذلك ، فالاول أقل قــوة فى تأثيره . ومن الــكتب المؤثرة الاخرى : « حياة واشنطون » (۱۸۰۰) تأليف بارســون ماســون لوك ويمس Parson Mason Locke Weems الذى ظل مدة ســتة اجيــال يساعد فى توجيه الفكر والتراث الامريكيين (ولا سيما فى حــالة ابــراهام لنــكولن (Abraham Lincoln وكتاب « ســنتان أمام الصــارى » (۱۸٤۰) تأليف ريتشارد هنرى دانا ، وهو منظوم شعرا فعل الكثير فى تحســين أحوال البحــارة الامريكيين فى البحر ، وكتاب « الادغال » (۱۹۰٦) تأليف أبتون سنكلير Upton Sinclair الذى كشــف امورا مؤســفة فى بورصــة العقــود بمدينــة شــيكاغو Chicago وأدى الى احداث اصلاح جذرى . بيــد أن هــذه

(۱) جماعة مسيحية شديدة التمسك بتعاليم الانجيل .

الكتب الثـــلاثة الأخيرة حكم عليها بأن نطاق تأثيرها محدود فلا يصح أن تشملها دراستنا .

أشار علينا البعض ، وربما كان ذلك عن سوء قصد رغم أن الكتب ذات أهمية تستحق الدرس ، اشاروا علينا بأن نضمن مؤلفنا « كتاب الطهو لمدرسة الطهـو بمدينـــة بوســـطون Boston » تأليف فاني فارمر Fanni Farmer وكتـــاب « الاثيكيت » تأليف اميلى بوست Emily Post ، وكتـــاب « الســـلوك الجنسى لـــكل من الذكر والانثى من البشر » تأليف الدكتور ألفريد كنسى Alfred Kinsey

من بين الستة عشر كتابا التى تضمها القائمة النهائية ستة مؤلفات تدخل فى باب العلوم ابان المدة من١٥٤٣ الى ١٩١٥ ، وعشرة كتب فىالمواد الاجتماعية فى المدة من ١٥٢٣ــ١٩٢٧ . ولا شك فى أن هـذا التصنيف عن غير قصـد اذ كان الوقع الاجتمـاعى للمؤلفات العلمية تاما وعميقا كالمؤلفـات المذكورة فى كتب المواد الاجتماعية نفسها . وكتاب « كابينة العم توم » لمسز ستو ، رغم صورته الخيالية ، جدير فى كل ناحية بأن يكون حجة اجتماعية .

عندما يستعرض المرء هذه الستة عشر كتابا ، المحملة بالحركة ، يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل عملت العصور الكتـاب أم أن العكس صحيح ؟ اى هل كان كتاب معين ذا نفوذ بسبب ان الزمن كان مستعدا له ؟ هل يمكن أن تكون لهذا الكتاب نفس الاهمية فى عضر آخر ، أو هل يمكن أن يكتب فى أى تاريخ آخر ؟ وانه ليتعذر الهروب من استنتاج أن

الازمنة أنتجت الكتاب ، فى كل ناحية تقريبا الا انه ما كان بالامكان أن يؤلف هذا الكتاب فى أى عصر تاريخى آخر او انه اذا ظهر فما كان ليحظى بمثل هذا الاهتمام .

بين ايدينا كثير من الامثلة : فقد وضع ماكيافيلى Machiavelli كتاب « الامير » لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الاجنبى . كانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها التجارى والصناعى الى أقصى حدود تستطيعها ، عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب «ثروات الامم» . كما أن كتاب « الادراك العام » لمؤلفه توماس بين ، قد أشعل نار الثورة الامريكية التى كانت ناضجة للانفجار فى أى وقت . كذلك فعل كتاب « كابينة العم توم » تأليف هاريت بيتشرستو ، للحرب الاهلية . ولولا الاحوال القاسية السائدة فى الصناعة الاوروبية ولاسيما نظام المصانع الانجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر ، لنقصت ذخيرة كارل ماركس لتأليف كتابه « راس المال » .

أوحى كتاب « أثر القوة البحرية على التاريخ » تأليف ــ أمير البحر ماهان Mahan بتكوين تجانس بحرى بين القوى العالمية بعد عام ١٨٩٠ . غير أن ضغط مغامرة التوسع والاستعمار ، كان موجودا من قبل . ولولا الفوضى التى سادت المانيا فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لبقى هتلر مبيض بيوت نمساوى غير معروف .

ومن ناحيــة أخــرى ، وكمــا هى الحــال فى الكبسولات البطيئة المفعول ، هناك كتب لم تحــدث تأثيرها الكامل الا بعد سنوات من نشرها . فمثلا كان آدم سميث وكارل ماركس فى عداد الاموات عنــدما ادرك العالم أهمية كتابيهما . ومضى نصف قرن على موت ثورو عندما طبق المهاتما غاندى فى الهند وجنوب أفريقيا ، مذهبه الداعى الى العصيان المدنى . ولولا قيام المدرسة الالمانية لسياسة التوســع الجغرافى ، ما لقيت نظريات ماكنــدر التى صــاغها قبــل ذلك بعشرات السنين ، ما لقيت الاهتمام الذى تستحقه . وهــذه أســماء بعض رواد المفــكرين الذين عــرفوا الفشل فى أوائل مؤلفــاتهم ، وقيــام تلك المؤلفــات باستجداء القراء .

يتردد فى القطاع الخلفى من الذهن سؤال عندما يتأمل المرء قائمة الكتب المختــارة ، الا وهو : كيف يمكن قياس التــأثير ؟ وكما ســبق أن قلنــا ، كان الهــدف هو اختيــار الكتب التى يمــكن الحكم على آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة أو الافعال . اى انها يجب أن تكون قد مارست علاقة مباشرة بتيارات أحداث معينة . وكثيراً ما حاول كتاب ما ايجاد حل لبعض المشاكل فى مجال محدد فى فترة معينة . ولمــا كانت أمثــال هــذه الكتب تتنــاول أموراً زمنيــة وموضوعية ، فانها تميل الى أن يجرى عليها القــدم بسرعة أكثر مما يجرىء على الكتب الدينية أو كتب الفلسفة أو الأدب .

والمقياس القريب الصحيح لمدى التاثير هو قوة

العاطفة المعاصرة الميالة الى تلك الكتب أو المعارضة لها . فاذا أثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا مماثلا من التأييد لوجهة نظره ، فالاحتمالات أنه قد أثر تأثيرا عميقا على تفكير الناس . كما أن الرقابة الرسمية والجهود الأخرى المناوئة ، ايجابية في مفهولها . والنظرة الداخلية الى مثل هذه الانفعالات تمدنا بها بعض المصادر مثل الصحف المعاصرة ونشرات الأدب الجدلي ومذكرات المؤرخين والدراسات البيوجرافية .

والاختبار القاسي هو ما اذا كانت النظريات او البرامج او الأفكار والمدافعون عنها ، تحظى بالقبول نهائيا أو لا تحظى به ، وهل تعبر الحدود الدولية وتترجم الى اللغات الأخرى وتعمل على خلق التلاميذ والأنصار والحاكين والمنافسين ، وتندمج تدريجيا في حياة الناس والأمم وفى أفكارهم .

من مظاهر الشهرة الغريبة تكوين صفات ومصادر صناعية من الأعلام لوصف فكرة معينة أو نموذج معين أو رأى بعينه وهكذا تضاف هذه الكلمات والمصطلحات الى مجموعة الألفاظ اليومية ، مثل : الماكيافيلية Machiavillian والكوبرنيكية Copernician والمالثوزية Malthusian والينوتونية Newtonian والفرويدية Freudian والداروينية Darwinian والماركسية Marxism والهتلرية Hitlerism ليدل كل منهما على مجموعة معينة من الافكار ويقرر شهرة بعض الفضائح فى نموذجه الاصلى ، وهذا يتوقف على وجهة النظر .

وبالنظر الى الصعوبة القصوى فى امكان قراءة

معظم عناوين قائمة الاختيار يمكن السؤال عن هــذا الأمر بطريقــة معقولة منطقية : كيف يمــكن لهــذه المؤلفــات أن تحــدث تأثيرا على اى فرد عدا عــددا محدودا من الاخصــائيين ؟ وبالطبع ، يستطيع نفر قليل من العوام أن يفهم ويتــابع بســهولة أصول النصوص اللاتينيــة لمؤلف كوبرنيــكوس أو هارفى أو نيوتن ، أو نظريات أينشتين بأية لغة . بينما لا احد غير العالم الاجتماعى المدرب ، يستطيع ان يستوعب تماما البراهين الملتوية ، فى اغلب الأحوال ، لمؤلفات آدم سميث أو مالثوس أو ماركس . أما علم الاحياء فيقــوى فهم مؤلف لهافى او داروين أو فــرويد . ونجيب على ذلك السؤال بقولنــا ان ســواد الناس يحصلون على افكار ســبق هضمها بواســطة عمليــة تمحيص عن طريق وسيلة ما مثل الثقافة الشعبية فى صورة كتب او مجلات أو صحف أو دروس مدرسية أو محــاضرات عامة ، وحديثــا عن طريق الراديو والتليفزيون والسينما . ولولا الادراك العام ما لقى اى كتاب من الستةعشر كتابا المختارة اقبالا فى عصره أكثر من « كابينة العم توم » و « نضالى » . وبنــاء على ذلك نتج تأثيرها من تفسير الخبراء . وكثيرا مايحدث التطبيق العملى فى الحياة اليومية دون معرفة واعية من الناس عموما ، مثال ذلك ، اكتشــافات نيــوتن الميكانيكيــة ، أو نظريات اينشــتين ، فيما يختص بتفتيت الذرة والطاقة الذرية .

عندما يستعرض المرء الستة عشر كتابا بحسب ترتيبها التاريخى ، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف ـ حلقة الاتصال التى تربطها معا . حقيقة ، لقد عبر

من هـــذا هتشـــنز Hutchins بقوله : يوجد هنا تقدم « المحادثة العظمى » . وقد اخذ كوبرنيكوس الايحاء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيوتن بدوره ، «وقف على أكتاف العمالقة» ـ كوبر نيكوس وجاليليو Galileo وكبـــــلر Kepler وغيرهم . وبدونهم ما كان لأينشتين أن يوجد اطلاقا . أما داروين فقـد اعلن فى صراحة انه مدين الى عـدد كبير من علمـاء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس هذا ، وان استخدام معمل التجارب فى العلوم ، على نقيض البرهنة الفلسـفية البحتـة ، يمـكن أن يقـال انه بدأ بكوبرنيـكوس ، ومارسه جميع عظماء من جاءوا بعده ، ومنهم هارفى ونيوتن وداروين وفرويد .

ان الولع بالحـرية ، الذى هـو طبيعة لازمت الانسان طول حياته ، ليتمثـل فى الاحتمالات المثيرة لكل من ماكيافيلى وآدم سميث وبين وثورو وستو . وسبح كارل ماركس ، بشـدة ، على منـوال علمـاء الاقتصاد الانجليز الكلاسيكيين، وخصوصا آدم سميث ومالثـــوس وريـــكاردو Ricardo وحـــاول تكوين مؤلفه على غرار مؤلف داروين . وكان مؤلف ماهان الذى عنوانه «اثر القوة البحرية على التاريخ» ، فى الأصل ، مؤلفا ثانويا اتخـذ مصـادره مما كتبه قدامى المؤرخين البحريين والحربيين والعموميين .

وعلى الرغم من أن ماكندر ، ومن بعده ساسة التوسـع الجغرافى ، لم يوافقـوا على اسـتنتاجات ماهان ، فانهم وجـدوا أفكاره مثيرة ومؤثرة . وقد

اقتبس هتلر فى كتابه « نضالى » كثيراً من ماكيافيلى وداروين وماركس وماهان وماكندر وفرويد ، سواء كان هذا الاقتباس بوعى منه أو عن غير قصد .

يمكن اضافة بعض تعليقات معينة على الكتب المختارة وعلى مؤلفيها . هل تحاشى هؤلاء الميول الطبيعية القاضية بأن يؤثر كل منهم وطنه أو لغته ، مثلا ؟ من المحتمل أن يكون الجواب بالنفى . تضم القائمة أربعة أمريكيين هم: بين وثورو وستو وماهان، وستة بريطانيين هم: هارفى ونيوتن وسميث ومالثوس وداروين وماكندر . كما أن هناك ثلاثة من الالمانيين هم : ماركس وأينشتين وهتلر ، وواحداً ايطاليا هو ماكيافيلى وآخر بولنديا هو كوبرنيكوس وثالثا نمساويا هو فرويد . ومن بين المؤلفين الستة الأوروبيين (من القارة نفسها غير البريطانيين) ثلاثة يهود . واذا كان واضع هذه القائمة أحد الصينيين أو الفرنسيين أو الروس، فلا شك فى حدوث تحيز ما فى اتجاهات أخرى .

هناك نقطة اخرى جديرة بالنقد ، وهى تعريف الكتاب : ما هو الكتاب ؟ وهل يمكن الحكم عليه بحجمه وحده ؟ هذه فكرة خيالية ، ومع ذلك فلو راعينا الدقة فى التعريف فان « الادراك العام » لبين و « العصيان المدنى » لثورو و « المحور الجغرافى للتاريخ » لماكندر والحقيقة الاصلية لنظرية اينشتين الخاصة عن النسبية ، ليست أكثر من نشرات . والواقع أن الثلاثة الكتب الأخيرة ، ظهرت أول ما ظهرت كمقالات دورية . فيا له من تناقض بين

هـذه وبين المجلدات الضخمة ، أمثـال « مبـادىء الرياضيات » و « ثروة الأمم » والطبعات الأخيرة من كتب مالثوس عن السكان ، ورأس المال ، ونضالى. وقد ذكـر أن فـولتير Voltaire قال انه ما حدث قط أن الهبت الـكتب الـكبيرة حماس أمة . « ان الكتب الصغيرة دائما ، المحشـوة بالعـواطف والتى تتأجج حماسا هى التى تـقوم بالعمـل » . وفعلا ، تنطبق هـذه العبارة على بين وثورو، ولا تنطبق على ماكندر ولا أينشتين . والواقع ان الحجم ليس بذى بال لأجل هذه القائمة الحالية .

والزمن الذى يقضيه المؤلف فى تأليف الكتـاب أمر جدير بالاعتبار . ومن الجلى أن كوبرنيكوس قد ضرب الرقم القياسى فى هذا المضمار اذ استغرق أكثر من ثلاثين عاما فى تأليف كتـابه De Revolutionibus ولو أنه لم يشـغل نفسه باستمرار فى تأليفه . ومن منا يود أن يقول ان الرسالات الكوبرنيكية مؤلفات أكثر عمقا من «مبادىء الرياضيات لنيوتن» ، التى أتمها فى مدة ١٨ شهرا ؟ وبمصادفة غريبة استغرق تأليف كل من «ثروة الامم» لآدم سميث ، واصـل الاجنـاس لداروين ، و «رأس المال » لماركس سبعة عشر عاما . ومن ناحية أخرى ، خرج كتاب «الأمير» لماكيافيلى فى ستة شهور ، و «الادراك العام» نبين فى حوالى ثلاثة او اربعة أشهر .

يمكننـا أن نعزو الاختـلاف السابق بين مدد التأليف الى عدة عوامل . فاختـلاف شـخصية كل مؤلف عن شخصية الآخر مسـئولة عن بعض هـذه

الاختلافات . وقد رفض بعض علماء الطبيعة أمثال كوبر نيكوس ونيوتن وهارفى وداروين الاسراع فى طباعة مؤلفاتهم حتى يتحققوا تماما من صحة اكتشافاتهم واختبارها اختبارا قاسيا. وحتى بعد أدق الاختبارات القاسية ترددوا فى نشرها خوفا من المجادلات والرقابة القوية لزملائهم العلماء ، ومقتهم عرضها على الجماهير، أو ما شابه ذلك من الأسباب . وقد تضمنت مقالات سميث وماركس الاقتصادية : ضياع الوقت وتجميع كميات كبيرة من المعلومات ، والمراجعة الضخمة ومن جهة أخرى ، كان لدى المؤلفين المتهورين ، أمثال ماكيافيلى ومالثوس الشاب وبين وثورو رسالات عاجلة يجب اصدارها دون تأخير .

الغالبية العظمى من الستة عشر مؤلفا المختارين معروف عنهم أن كلا منهم وضع كتابا واحدا فحسب. وباستثناء قلة قليلة ، ترتكز شهرة الباقين على عنوان واحد مع اهمال ماعداه . كتب هارفى ونيوتن وسميث مالثوس وماركس وستو وماهان واينشتين كتبا أخرى — وفى بعض الأحوال ، كان بعضهم كثير التصانيف ، ولكن من يمكنه أن يذكر أسماءها سوى قلة من الاخصائيين ؟ أما بين وثورو وداروين وفرويد فيستثنون من هذه القاعدة لأن أقلامهم الخصبة انتجت كتبا أخرى اشتهرت بطريقة ما كما اشتهرت هنا فى قائمتنا .

قد تستطيع بعض المذكرات البيوجرافية ابداء مظاهر أخرى لأخلاق المؤلفين وشخصياتهم . فهل للمركز الزواجى مثلا ، أثر هام فى خلق مؤلف رائع يبذ كل ما عداه ؟

كان كوبرنيكوس راهبا ، كما لم يتزوج كل من نيوتن وسميث وثورو وهتلر . وتزوج كل من هارفي وماهان وماكندر وبين ولكنهم لم ينجبوا أطفالا . وباء زواج بين مرتين بكارثة فى كل مـرة . وكان لمـالثوس ثلاثة أولاد ، كما كان لأينشتين طفلان . تزوج مالثوس مرة واحـدة وأينشبـستين مرتين . ولم يكن كل من ماكيافيلى وداروين وستو وماركس وفرويد أزواجا مخلصـين فحسب ، بل وأنجبـوا أسرات كبيرة . بيد أن المرء يتردد أخيرا فى استخلاص أية حقائق من هذه الأمور .

قد يظن البعض أن السن وبلوغ الرشد ضروريان لمؤلف كتاب عظيم . وما صلة هذين الأمرين ، حقا ، بالستة عشر مؤلفا المختارين ؟ عندما خرجت الطبعة الأولى لكل من هؤلاء ، من المطبعة ، كان أكبرهم سنا هو كوبرنيكوس ، اذ كان فى السـبعين ، وأصغرهم أينشتين الذى كان فى حوالى السادسة والعشرين . وكان مالثوس وثورو فى أوليات الثلاثينات . أما بين وهتلر فكانا فى أواخـر الثـلاثينات . كانت فترة السنوات العشر ما بين ٤٤ ــ ٥٤ هى أخصب فترات العمر انتاجا ، اذ كان فى هذه المرحلة كل من المؤلفين ، ماكيافيلى وفرويد ونيوتن وماركس وماهان وداروين وهارفى وسميث (فى ترتيب تصاعدى أى من الأصغر الى الأكبر) . وكان كل من ستو وماكندر فى أوائل الأربعينات .

وخلاصة هذا ، هناك خصائص معينة يشـترك فيها معظم المؤلفين ، تبدو واضحة . وباستثناء علماء

الطبيعة الذين تضمهم القائمة . والذين يكون التعليق اقل مناسبة لهم . فالكتب التى تضمها القائمة ، كتبها أشخاص غير تابعين للكنيسة ، واشخاص متطرفون ومتعصبون لدينهم ، وثوريون ومثيرون للاضطرابات . وغالبا ما تكون كتب هؤلاء رديئة التأليف تعوزها المسحة الأدبية . ونعود فنكرر قولنا بأن سر نجاحهم هو ان الزمن كان ملائما وعلى استعداد لهم . حملت كتبهم رسالات ، كانت فى اغلب الأحوال كثيرة العاطفية ، يتوسلون فيها الى ملايين البشر . وفى بعض الأحيان كان النفوذ للخير ، كما كان أحيانا اخرى للشر . ومن الجلى أن الكتب يمكن أن تكون قوى لكل من الخير والشر . وعلى اية حال ، ليس الغرض هنا قياس القيم الأخلاقية ، بل لتوضيح أن الكتب أدوات أو اسلحة حركية وقوية .

عالم الإنسان

١ ــ تشريح سياسة القوى

« نيقولو ماكيافيلى » ــ « الأمير »

طلت الماكيافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقة فى ذهن العالم على انها مرادفة لشيء شيطانى وخائن ونذل وقاس وخبيث. كان ابو هذا المصطلح ، نيقولو ماكيافيلى ، رمزا شهيرا للسياسى المتآمر والمكار والمنافق المجرد من الأخلاق والعديم المبدأ تماما والمستهتر ، الذى تنحصر كل فلسفته فى أن « النهاية تخلق الوسيلة » . وقد اعتقد العالم أجمع أن أرقى قانون لماكيافيلى هو اللاءمة السياسية . وفى انجلترا القرن السابع عشر ، كان « اولدنيك » « Old Nick » كنية متبادلة بين كل من ماكيافيلى والشيطان . اما من دفاع لهذا المتهم أم أن هناك ظروفا مخففة ؟

تعتمد شهرة ماكيافيلى السيئة ، اعتمادا كليا تقريبا ، على كتاب واحد هو « الأمير » الذى كتبه فى سنة ١٥١٣ ، ولكنه لم ينشر الا فى سنة ١٥٣٢ بعد وفاة مؤلفه بخمسة أعوام . ما من

كتاب يمكن ان ينفصل عن العصر الذى كتب فيه ، هذه حقيقة لا يمكن توضيحها توضيحا مناسبا بأكثر مما يوضحها كتاب « الأمير » . ومع ذلك ، فهو ككل كتاب عظيم ، يضم دروسا لجميع العصور .

لا نعرف سوى القليل عن حياة ماكيافيلى قبل عام ١٤٩٨ عندما كان فى التاسعة والعشرين من عمره وزيرا لجمهورية فلورنسة Florence خدم حكومة هذه المدينة لمدة ١٨ سنة ، وذهبت به المهام الدبلوماسية الى توسكانى Tuscany ثم عبر جبال أبنين Apennine الى روما ، وبعد ذلك الى ما وراء جبال الألب Apls وتعرف على الكونتيسة كاترينا سفورز Caterina Sforza وباندولفو ستروتشى Pandolfo Petrucci طاغية سينا Siena وفرديناند الأرجونى Ferdinand of Aragon ولويس Louis الثانى عشر ملك فرنسا ، والامبراطور ماكسيميليان Maximilian والبابا يوليوس Julius الثانى ، وسيزار بورجيا Cesare Borgia لم يكف التشاحن السياسى بين فلورنسة ودويلات المدن الأخرى بيزا Pisa وميلان Milan ونابولى Naples ، بل ظل قائما لا ينقطع . وكانت السياسة فى ذلك العصر فاسدة بطريقة لا تصدق . وكان ماكيافيلى ، الطالب الداهية فى دراسة الطبيعة البشرية ، فى حداثة عهده بالسياسة ، وفى عدة مناسبات أبدى مقدرة ومهارة فى انجاز المفاوضات الصعبة . وبعد ذلك بنى واقعيته وسخريته من الأمور السياسية ، دون ما شك ، على المران ، لأنه تعلم ألا يكترث لأى باعث غير الجشع والأنانية .

أصاب ماكيافيلى دورة فى عجلة الحظ على يد اسبانيا ، فقد أطاح الميديكليون Medicis بالجمهورية واستعادوا

حكمهم فى فلورنسة . ففصل ماكيافيلى وسجن وعذب ، واخيرا نفى الى ضيعته الريفية الصغيرة بالقرب من سان كاسشيانو San Casciano حيث بقى محدد الاقامة حتى موته فى سنة ١٥٢٧ ، باستثناء فترات قصار . فكان يقضى وقته خلال تلك السنين الطويلة (فى نظره) الخاملة ، فى تأليف كتب «الأمير» و « المحادثات » و « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسة » وتتناول كلها ، بصفة مبدئية ، السياسة القديمة والمعاصرة .

من الصعب اكتشاف اية عاطفة فى طبيعة ماكيافيلى فيما يختص بالشئون العامة ، ولكنه كان يحس بتأثر عميق تجاه أمر واحد . كان وطنيا أصيلا مع شوق حماسى لأن يرى ايطاليا دولة قوية متحدة . وربما كان ملاحظا باردا وموسوسا ، ورجلا ماجنا صافى العقل ، حتى ناقش الوحدة الايطالية ، ثم أوحى اليه بالحماس والفصاحة والحرارة والحيوية . وقد كانت حال ايطاليا فى أوائل القرن السادس عشر فى بؤس شديد يثير أشجان اى شخص وطنى الى درجة البكاء .

كان هناك تغير هائل ، سياسى واقتصادى ولاهوتى فى طريقه الى ايطاليا أيام ماكيافيلى . وفى كل مكان بانجلترا وفرنسا واسبانيا ، بعد نضال مرير طويل حدثت الوحدة القومية . أما فى ايطاليا ، فان فكرة التنظيم القومى أو الفيدرالى ، لم تكن معروفة . حكمت تلك الدولة خمس وحدات سياسية عظمى هى : ميلان وفلورنسة والبندقية Venice ودولة الكنيسة ونابولى . وكانت البندقية أكبرها واقواها . فكان تعدد الأقسام السياسية مصدر ضعف مستمر لايطاليا ، ومن الناحية العملية ، أدى الى الدسائس الأجنبية والتدخل الأجنبى . بدأت الغزوات بواسطة شارل الثامن ملك فرنسا فى عام ١٨٩٤ ، وبعد بضع سنوات من تقهقره ، اتفق لويس السابع وفرديناند، ملك أراجون

على اقتســام مملكة نابولى فيما بينهما . وأرســل الامبراطور ماكسيميليان قواته لغزو البندقية . كما كانت جيوش من المانيــا وسويسرا وفرنسا واسبانيا تسير فى الأراضى الايطالية وتحــارب عليها .

وفى تلك الأثناء كانت المعارك الخاصة والضغائن الشعبية والسرقات والقتل متفشية فى البلاد وحاربت جمهورية جمهورية أخرى ، كل منهما تغار من الأخرى ، وعجزت الجمهوريات تماما عن تكوين جبهة عامة فى مواجهــة الأعداء الأجانب . ولمــا كانت الكنيسة فى أسوأ فترة فى تاريخها ، وتخشى قيام منافس لقوتها الدنيوية ، فانها فضلت التفرق على الاتحاد لايطاليا .

ربما أدرك ماكيافيلى الخطر الذى يهــدد ايطاليــا ، أدركه بوضوح أكثر مما ادركه أى رجل آخر فى عصره . كان يفــكر فى مقر تقاعده الاجبارى ، وفى الشرور التى نزلت بوطنه الحبيب ، فاقتنع بأن الأمل الوحيد فى الخلاص يكمن فى وجود قائد عظيم — قائد بالغ القوة والجرأة يفرض سيطرته على الدويلات الايطالية ويدمجها فى أمة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها وطردالأجانب المقوتين من البلاد . أين يمكن العثور على مثل هذا القائد ؟ كان « الأمير » هو فكرة ماكيافيلى عن نوع القائد المطلوب ، وصــورة تفصيلية للطريق الذى يجب عليه أن يتبعه لتحقيق النجاح .

رغــم أن « الأمــير » مــكرس الى لورنزودى ميــديكى Lorenzo de Mcedici حاكم فلورنســـة الجــديد ، فان بطل الكتــاب هــو ســيزار بورجيــا Cesare Borgia ابن البــابا الكسندر السادس ، وكاردينال فى السابعة عشرة ، وقائد حربى قدير ، وهازم رومانيا ودكتاتور قاس لا يعرف الرحمة . ارسل ماكيافيلى رسولا الى بلاطه فى ســنة ١٥٠٢ ، وكمــا علق نيفنز Nevins : « رأى باعجــاب كيف تبــادل بورجيــا اســتخدام

الحذر والدهاء ، فى مهارة ، وكذلك الألفاظ المعسولة والأعمال الدموية . وكيف استخدم ببرود الغدر والنفاق . وكيف استعمل الارهاب فى وحشية لاستمرار اخضاع من دحرهم ، وكيف يقبض بطغيان على البلاد التى يحتلها » .

واذ مارس سيزار ازدواج الشخصية والقسوة وعدم الثقة ، نال النجاح الباهر ، ولكنه كان نجاحا مؤقتا . كان ماكيافيلى وطنيا غيورا يميل الى النظام الجمهورى ، ولكنه لما اختبر حال ايطاليا الثائرة والمؤسفة اقتنع بأن رجلا مثل سيزار بورجيا هو القائد المثالى لانهاء حالة الفوضى تلك .

وهكذا أوحت اليه نظرته الى أمة موحدة ، بالحماس الوطنى . واذ كان عالما باحتياجات الساعة الحرجة وواعيا للفرصة الذهبية الماثلة أمام الحاكم الجديد ، وجه كل نشاطه وحماسه الى تأليف « الأمير » فكتبه فى الشهور الستة الأخيرة من عام ١٥١٣ ، وبعد ذلك بوقت ما ، قدمه الى بلاط لورنزو مع اهداء المؤلف : « لما رأيت انه ليس فى المقدور تقديم هدية أفضل من اسداء فرصة الفهم فى أقصر وقت ، فاننى أقدم كل ما تعلمته فى تلك السنين العديدة وسط الكثير من المتاعب والأخطار » .

الهدف الأساسى من « الأمير » هو أن صالح الدولة يحقق كل شىء . وهناك عدة مستويات مختلفة من الأخلاق فى الحياة العامة والحياة الخاصة ، اذن فمن اللائق بالسياسى ، تبعا لهذا المذهب ، أن يقوم ، من أجل صالح الشعب ، بأعمال العنف والخداع التى تستحق اللوم وتوصف بالاجرام فى المعاملات الخاصة . ولذلك فصل ماكيافيلى الأخلاق عن السياسة .

« الأمير » كتاب مرشد للامراء (أو كما قال البعض ، انه كتاب ضرورى للطغاة) ليعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحتفظون بها ــ سلطة ليست لصالح الحاكم وانما هى لخير

الشعب كى يزودهم بحكومة مستقرة آمنة من الثورة والغزو . فبأية وسائل يمكن الحصول على الاستقرار والأمان ؟

وبغض النظر ، قليلا ، عن الملكيات الوراثية لافتراض أن للحاكم سداد رأى وذكاء عاديين ، فيمكنه الاحتفاظ بالسيطرة على الحكومة . ومن جهة أخرى ، فان مشكلة الملكية الجديدة مشكلة معقدة . فاذا كانت الأراضى المهزومة حديثا من نفس جنسية ولغة الدولة الغالبة كالحكم سهل نسبيا ، وخصوصا اذا اتبع مبدءان : « أحدهما استئصال دم سلسلة نسب الأمراء السابقين ، والثانى عدم احداث أى تغيير فى القوانين أو فى الضرائب » .

« أما اذا احتلت الأمم دولة تختلف لغتها وعاداتها وقوانينها عن لغة وعادات وقوانين الأمم المضمومة ، فالصعوبات تتضاعف ويقتضى التغلب عليها حظا وادارة عظيمين» . ويستطرد ماكيافيلى قائلا ان من الوسائل الممكنة للسيطرة عليها ، أن يذهب الحاكم ويسكن شخصيا فى المنطقة المحتلة ، ويرسل اليها مراكز استعمار (أقل نفقات من الاحتفاظ بجيوش الاحتلال) ، وأن يصادق الجيران الأضعف ، ويحاول اضعاف الجيران الأقوى . وعندما أهمل لويس الثانى عشر هذه القواعد الاساسية منى بالهزيمة والخسائر فى غزواته .

وفيما يختص « بكيفية حكم الأقسام الادارية » ، يقدم ماكيافيلى ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دويلة اعتادت « أن تعيش بحسب قوانينها وفى حرية : الأولى تدميرها ، والثانية الذهاب اليها والاقامة فيها شخصيا ، والثالثة قبول أن تعيش تبعا لقوانينها وارغامها على دفع الجزية ، وأن يعهد بحكومتها الى فئة قليلة من سكانها يمكنهم المحافظة على صداقة الباقين لك » . وأكثر هذه الاختبارات أمنا هى الطريقتان الأوليان .

ورغم هذا ، فاذا اعتادت مدينة أو محافظة احتلت حديثا أن تعيش تحت حكم أمير استئصلت ذريته ، فمن المستحيل على المواطنين الذين تعودوا أولا أن يطيعوا ، وثانيا جردوا من حاكمهم القديم ، أن يوافقوا على اختيار حاكم من بينهم . وبما أنهم لا يعرفون كيف يعيشون أحرارا ، يبطئون فى التسلح ، وهكذا فمن السهل على شخص أجنبى أن يطويهم تحت سلطانه ويضمهم الى صالحه .

واذا ناقش ماكيافيلى ، بعد ذلك « الامارات الجديدة » ، فانه حذر يقول : « يجب أن يوضع نصب العين أن طباع الجماهير متقلبة ، وبينما يكون من السهل اغراؤهم على قبول شىء ، فانه يصعب جعلهم يثبتون على ذلك الاغراء . لذلك يجب تنظيم الأمور هكذا : اذا لم يؤمن الناس طوعا ، وجب اجبارهم على الايمان بالقوة » .

بعد ذلك يشرع المؤلف فى تقريظ وتمجيد حياة سيزار بورجيا على أنه القائد القوى الفذ البأس ، معتذرا عن الغدر والاغتيال .

« عندما أتذكر جميع أعمال الدوق ، لا أعرف كيف ألومه ، ولكن ، بدلا من ذلك ، يبدو لى .. أنه يجب على أن أقدمه نموذجا يحاكيه جميع من يرفعهم الحظ أو تسمو بهم أهداف غيرهم الى منصب الحكم . لأنه ، اذا كان ذا روح عالية وطموح بعيد المدى ، ما كان لينظم سلوكه بطريقة أخرى .. ولذلك يجب على من يعتبر انه من الضرورى له أن يثبت نفسه فى دولته الجديدة ، أن يعمل على كسب الأصدقاء ، وأن يتغلب اما بالقوة واما بالغش ، وأن يجعل نفسه محبوبا ومرهوبا من الناس ، وأن يجعل الجنود يسيرون وراءه ويحترمونه ، ويستأصل شأفة كل من كان ذا قوة أو عقل يمكنانه من الحاق الأذى به ، وأن يغير

النظام القديم بأنظمة جديدة ، وأن يكون قاسيا وخيرا وسامي العقل وحرا ، ويحطم العسكرية غير الوفية ، ويخلق عسكرية جديدة ، ويحافظ على صداقة الملوك والأمراء بطريقة تحتم عليهم مساعدته في حماس ، والاساءة مع الحذر ، ولايمكنهم أن يجدوا مثالا أكثر حيوية من أعمال هذا الرجل » .

أما من اغتصب دويلة ، «فيجبعليه الاسراع بانزال الاضرار التي يجب عليه انزالها بضربة واحدة ، لئلا يضطر الى تجديدها يوميا ، وانما يتمكن بعدم استمرارها من طمأنة عقول الناس ، وبعد ذلك يكسبهم الى جانبه بالمنافع ... يجب منح المنافع قليلا قليلا حتى يمكن التمتع بها كاملة » .

ليس خوف العقاب الا احدى الوسائل التي يستعملها الملك الحكيم في حكم رعاياه .

من الضروري للامير أن يكون على صلة صداقة بشعبه ، والا لما وجد أي مصدر للمساعدة في وقت الشدة .. ولايذكرن لي أحد المثل القديم : «من يبن على الشعب يبن على الرمال» . لان هذا المثل ينطبق على المواطن الخاص الذي يعتمد على مصالحه مع الشعب ويعمل حسابه على أن ينصروه اذا هزمه أعداؤه أو الحكام . أما الامير الجرىء القادر على الامر ، والذي يعرف كيف يحافظ على النظام في دويلته ، فلن يندم قط على تأسيسه أمنه على محبة الشعب .

وفي تناوله للامارات الكنسية ، اي التي تحت حكم الكنيسة مباشرة ، خصها ببعض من أكثر ملاحظاته ايذاء وتهكما .

تنال هذه الامارات بالاحقية او بحسن الحظ ويحتفظ بها بدون أي واحد منهما ، ويسيطر عليها بأوامر دينية محترمة ، كلها من النوع والاثر اللذين يضمنان سلطة أمرائهما بأية طريقة

يعملون أو يعيشون بهـا . ان هؤلاء الأمراء وحدهم لهم دويلات لايدافعون عنها ورعايا لايحكمونهم .

يتهم ماكيافيلى الكنيسة هنا وفى كل موضـع مما كتبـه فى بداية القرن السادس عشر ، بأنها لم توحد ايطاليا ضد الاجنبى كان يريد فصل الكنيسة تماما عن الحكومة .

ولما كانت الحكومة القوية تحتاج الى جيش عظيم فقد اعتبر ماكيافيلى الشئون الحربيـة على أقصى مايكون من الاهمية ، وخصص مساحة واسعة لهذا الموضوع . وقـد اعتـادت معظم الدويلات الايطالية فى عصره أن تسـتخدم الجنـود المرتزقة ، ومعظمهم من الاجانب ، للدفاع عنها . فقرر ماكيافيلى ان مثـل هذه القوات « عديمة النفع وخطرة » وان الجيش القومى المكون من المواطنين أكثر فاعلية ويعتمد عليه أكثر من المرتزقة . ولما كان البقاء القومى يتوقف على قوة الجيش ، وجب على الامير الحـاكم أن يعتبر الأمور العسـكرية المـادة الأولى لسـياسته وشـغله الشاغل .

كرس ماكيافيلى عدة أبواب من مؤلفه لسلوك الامـراء ــ سلوكهم الخاص فى مختلف الظروف .

هناك اختلاف كبير بين الطريقة التى يعيش بهـا الناس والطريقة التى يجب أن يعيشوا بها . ومن الضرورى للامير الذى يريد المحافظة على مركزه أن يتعلم كيف يتصف بشىء آخر غـير الطيبة ، وأن يستعمل طيبته أو لايستعملها حسب مقتضـيات الاحوال ... يعترف كل من أعرفه بأنه يجـدر بالامـير أن يكون موهوبا جميع الصفات المعتبرة حميدة ، ولكن بما أنه من المستحيل أن يتصف بكل هـذه الصـفات جميعا ... يجب عليه أن يكون حاذقا بما فيه الكفاية بحيث يعـرف كيف يتحاشى مثـالب تلك الرذائل التى يمكن أن تجرده من الحكم .

يجب على الامير الا يهتم بأن يشيع عنه البخل وهو ينفق مايخصه ومايخص رعاياه أو مايخص الآخرين .. يجب أن تنفق بسخاء مما لايخصك أو يخص رعاياك ... لأن حرية التصرف فى ملكية الغير (التى يحصل عليها بالغزو) لاتنقص من سمعتك بل تزيدها . وان مايضرك هو أن تنفق مما يخصك . وما من صفة مدمرة مثل حرية الانفاق . فعندما تمارسها تفقد الوسيلة التى تمارسها بها وتصير فقيرا محتقرا ، والا فلكى تتحاشى الفقر تغدو جشعا وممقوتا .

يجب أن يعتبر الامير القسوة احدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم «لأن من يقمع الفتن ببضعة اجراءات فورية يكن فى النهاية أكثر رحمة ممن تبلغ به الطيبة أن يترك الامور تجرى فى أعنتها ، فينتج عن ذلك ، الاغتصاب وسفك الدماء . لان هذه تفسد الدولة ، كما تفسد القسوة الافراد » .

يقول ماكيافيلى فى فقرة شهيرة :

من هنا ينشأ هذا السؤال : هل الافضل أن يحب المرء أكثر مما يخاف ، أو يخاف أفضل مما يحب . قد تكون الاجابة أننا نرغب فى كليهما : ولكن بما أن الحب والخوف قلما يجتمعان معا، فاذا وجب علينا أن نختار بينهما ، فمن الاكثر امنا أن نخاف أفضل من أن نحب . اذ نؤكد عموما أن الناس ناكرون للجميل ومتقلبون وخائنون ويعملون كل ما فى طاقتهم لتجنب الخطر ، وجشعون يتكالبون على الربح ، يقفون الى جانبك طالما كان فى وسعك أن تغدق عليهم المنافع ، وعلى استعداد للتضحية بدمائهم اذا كان الخطر بعيدا كما يضحون بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم من أجلك والخطر كذلك ، حتى اذا ماجاء وقت الجد اداروا لك ظهورهم .

هذه سخرية بحتة ، ولو أن ماكيافيلى يستنتج تقديره للمحبة فى مقابلة الخوف ، فينصح الامير بأن « يعمل قصارى جهده لتحاشى الكراهية » .

ما من قسم من كتاب « الأمير » ادين واحتقر أكثر من الباب الثامن عشر» . «كيف يحتفظ الامراء بالثقة» . وتنصب مساوىء استخدام المصطلح «ماكيافيلية» على هذا القسم أكثر مما تنصب على بقية الكتاب كله . ويوافق المؤلف على أن المحافظة على الثقة جديرة بالثناء . أما الخداع والنفاق وشهادة الزور فضرورية ومغتفرة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية .

هناك طريقتان للنضال . احداهما بحسب القوانين ، والاخرى باستخدام القوة . الاولى مناسبة للبشر ، والثانية للوحوش . ولكن بما أن الطريقة الاولى كثيرا ماتكون غير فعالة ؛ فيقتضى الأمر الالتجاء الى الثانية . وعلى الأمير أن يفهم جيدا كيف يستعمل كلتا الطريقتين : طريقة البشر وطريقة الوحوش ... ولكن بما انه يجب عليه أيضا أن يعرف كيف يستخدم طبيعة الوحوش فى حكمة ، ينبغى له أن يختار من بين الوحوش الاسد والثعلب ، لان الاسد لايستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لايمكنه حماية نفسه من الذئاب ... وان أكثر الامراء حزما ، لا يمكنه ولا ينبغى له أن يحافظ على كلامه ، عندما يكون فى المحافظة عليه ضرر له عندما تزول الاسباب التى ألجأته الى الوعد . ليست هذه مشورة طيبة عندما يكون جميع الناس من الاخيار . ولكن بما أنهم خائنون ولايثقون بك ، وجب عليك ، أنت بدورك ، الا تثق بهم وما من أمير حار فى التفكير فى أعذار مقبولة لتغطية عدم التمسك بوعده .. غير أن الناس يظلون ساذجين ومحكومين باحتياجاتهم الحالية ، حتى أن من يرغب فى خداعهم لايخفق فى العثور على «مغفلين» راغبين ... وهكذا من الخير التظاهر بالرحمة

والثقة والانسانية والتقوى والاستقامة ، وتكون هكذا ايضا ، ولكن يجب أن يبقى العقل متزنا حتى اذا اقتضى الأمر صار فى مقدورك وتعرف كيف تتحول الى العكس بسرعة ... يرى كل شخص ماتظهر عليه ، ويعرف القليلون ماأنت عليه .

نصح ماكيافيلى بانه من الضرورى للامير ان يتحاشى كراهية شعبه احتقارهم له . والطريقتان الرئيسيتان اللتان تسببان كراهية الناس له هما : نهب أموال الشعب ، والتدخل فى ممتلكات رعاياه ونسائهم ... ويحتقر الامير اذا رؤى متقلبا او متهورا او مخنثا أو جبانا أو مترددا . وزيادة على ذلك ، يجب على الحكام أن يشهروا انفسهم بتوزيع الهدايا بأنفسهم ، ويتركوا لرؤساء الأقسام مسئولية توقيع العقاب ، وعلى العموم يتركون لهم أيضا حرية التصرف العام فى كل مايثير الحنق وعدم الرضى» ... لاتستطيع حتى امنع الحصون أن تحمى الامير اذا كرهه الشعب .

أكد ماكيافيلى عند اسداء التعليمات للامير فى «كيفية سلوكه» ، على انه ....

يجب على الامير أن يبدو رئيسا قديرا ، وأن يكرم كل من تفوق فى أى فن . لذلك ينبغى له أن يشجع رعاياه ويمكنهم من مزاولة مهنهم ، سواء أكانت تجارية أم زراعية ام غير ذلك ، فى اطمئنان ، حتى ان ذلك الرجل لايمنع من تجميل ممتلكاته خوفا من ان تؤخذ منه وألا يحجم آخر عن افتتاح محل تجارى خوفا من الضرائب .

أعجب ميكيافيللى كثيرا بذكريات روما القديمة وخصوصا النصيحة المسداة الى الامير : «يجب عليه فى المواسم المناسبة من السنة ، أن يبهج الشعب بالحفلات والعروض» .

كان ماكيافيلى شديد الايمان بالحظ والمصير ، وربما كان ذلك وليد التفكير فى اعتقاد أهل عصره فى «التنجيم» ، فكتب يقول : « أظن الحال هكذا ، ان ربة الحظ سيدة نصف أعمالنا ، وتترك لنا ، نحن انفسنا ، تدبير النصف الآخر أو أقل من النصف قليلا » . كانت وجهة نظره معتدلة الخطر ، اذ كان يعتقد أن يوسع الانسان أن يسيطر ، بعض الشيء ، على مصيره ، وأنه «من الافضل أن يكون جسورا ، من أن يكون حذرا . فالحظ امرأة ، يجب عليك ، لكى تخضعها ، أن تضربها وتعاملها بخشونة ، وترى أنها تقاسى رؤية نفسها محكومة تماما بواسطة من يعاملونها أكثر ممن يعتريهم الجبن عند الاتصال بها . ودائما ، كامرأة ، تؤثر الصغار لانهم اقل تدقيقا واكثر قسوة ، ويسيطرون عليها بجرأة أعظم » .

يختم كتاب «الامير» بنصيحة لتحرير ايطاليا ، انها نداء رنان للوطنية . حان الوقت لأمير جديد بطل ايطالى ما ، أن يتقدم لايطاليا فى « حالة انحطاطها الراهن » الاكثر عبودية من العبرية ، والاكثر معاناة الظلم من الفارسية ، والاكثر تفككا من الاثينية ، بغير قائد وبغير نظام ، مهزومة ومنهوبة وممزقة ، وطئت وتركت للدمار فى شتى صوره ... نراها كيف تتضرع الى الله أن يرسل شخصا ينقذها من هذه القسوة البربرية والظلم . كما نراها مستعدة ومتلهفة الى أن تتبع اى علم اذا كان هناك من يرفعه» .

ويختم ماكيافيلى مرافعته البليغة بهذه الكلمات :

فرصة ايطاليا الاخيرة هى انه يجب الا يفوتها أن تتطلع الى مخلصها . بأى محبة يستقبل (الامير الجديد) فى جميع المحافظات التى قاست من تدفق سيل الاجانب ، وبأى تعطش الى الانتقام ، وبأى وفاء ثابت ، واخلاص ، وبأية دموع تقصر الفاظى عن التعبير عنها ، وأية أبواب سوف تقفل وراءه ؟ وأى ناس سيرفضون

طاعته ؟ وأى ايطالى لايخضع له ويدين له بالولاء ؟ يتمعق هـذا الظلم البربرى فى كل خيشوم .

مضى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن قبل أن يتحقق حلم ماكيافيلى لتوحيد ايطاليا ورؤيتها متخلصة من الفساد والسيطرة الاجنبيين .

وزعت نسخ خطية من «الامير» أبان حياة مؤلفه ، وبعدها بعدة سنوات .. وقد وافق على نشره فى سنة ١٥٣٢ ، البابا كلمنت Clement السابع ، ابن عم الامير الذى أهدى اليه ذلك الكتاب . وطبع منه ٢٥ طبعة فى العشرين سنة التالية . ثم بدأت العاصفة تهب ، فقد أمر مجلس الثلاثين باتلاف جميع مؤلفات ماكيافيلى ، اذ اتهم فى روما بالالحاد ، وحرمت مؤلفاته فيها وفى كل مكان بأوروبا . واحرق اليسوعيون تمثالا صغيرا له فى المانيا . واشترك الكاثوليكيون والبروتستانت فى الدعوة ضده . وفى سنة ١٥٥٩ وضعت جميع مؤلفاته فى قائمة الكتب المحرمة .

لم تسترجع سمعة ماكيافيلى بعض أهميتها وبراءتها وتزكيتها الا فى القرن التاسع عشر . عملت الحركات الثورية فى أمريكا وفرنسا والمانيا وفى كل مكان على تحويل الحكومات الى مدنية وفصل الكنيسة عن الحكومة . وقامت الحركة الايطالية المطالبة بالحرية ، التى وصلت بنجاح الى ذروتها فى عام ١٨٧٠ مستمدة ايحاءها من الوطنى العظيم ماكيافيلى . وقد أبان هـ . دوجلاس جريجورى Douglas Gregory فى مقال معقول ، انه باتباع نظريات ماكيافيلى ، استطاع الحاكم الايطالى الكونت كافور Cavour أن يوحد ايطاليا ويطرد الغزاة منها ، بينما لو انه اتبع أى طريق آخر لنزلت بالبلاد كارثة واخفقت فى مساعيها .

لاينكر احد أن دكتاتورى وطغاة كل عصر وجـــدوا نصائح مفيدة فى «الامير» . وان قائمة القراء المتلهفين ضخمة : أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دى ميديكى بذلك المؤلف . وحصل أوليفر كرومويل Oliver Cromwell على نسخة خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها فى حكومة الكومنولث Commonwealth فى انجلترا . وكان كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيان يحمل نسخا منه عندما قتل . كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا Frussia ، واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلية المفضلة » ، ووجـدت منه نسخةذات حواش فىعربة نابليونبونابارت Napoleon Bonaparte فى ووترلو Waterloo واستمد نابليون الثـالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتـاب . وكان بسـمارك Bismarck تلميذا مخلصا وحديثـا احتفظ أدولف هتلر Adolf Hitler ، تبعا لقـوله هو نفسه ، بكتاب « الامير » بجانب سريره حيث كان مصدر ايحاء مستمرا له . وقال بنيتو موسولينى Benito Mussolini : « أومن بأن كتاب « الامير » لماكيافيلى دليـل رائع للسـياسى . فمذهبه اليوم حى لأنه لم تحدث تغييرات عميقة فى مدى الاربعمائة سنة فى عقول الناس أو فى أعمال الأمم » . (بعد ذلك غير موسولينى رأيه ، اذ ظهر فى سنة ١٩٣٩ اسم ماكيافيلى فى قائمة المؤلفين ، القـدامى والمحدثين ، الذين يضمهم فهرست الكتب الفاشستى ، تلك الكتب التى يحظر على أصحاب مكتبـات الـرومان أن يعرضوها) .

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للاحـداث التاريخية أن الطغاة ، أمثال هتلر وموسولينى ، لقوا عموما نهاية مؤسفة لانهم أهملوا أو أساءوا تفسير بعض المبادىء الاساسية التى صاغها ماكيافيلى .

اتفق دارسو مذهب ماكيافيلى على انه لايمكن فهم آرائه فهما تاما الا بقراءة كل من كتابيه «المحادثات» و «الامير» . فكتاب «المحادثات» الذى استغرق فى تأليفه أكثر من خمس سنين ، ونشر لاول مرة فى نفس السنة التى نشر فيها «الامير» ، مؤلف أضخم كثيرا من «الامير» . والفرق بينهما ، كما اقترح البعض ، هو أن«المحادثات» يتناول «مايجب أن يكون» ، بينما يتناول «الامير» ، «ماهو» . يختص «الامير» كلية بالامارات ، أى بالدول أو الدويلات التى يحكمها ملك واحد ، بينما يختص «المحادثات» بالمبادىء التى يجب أن تتبعها الجمهوريات .

يخرج المرء من القراءة المقارنة لهذين الكتابين بهذه النتيجة المذهلة ، وهى ان ماكيافيلى كان جمهوريا مقتنعا بمبدأ الجمهوريه . لم يحب الاستبداد ، ويعتبر أن الحكومة المختلطة المكونة من الحكومتين الشعبية والملكية هى أفضل الحكومات . وما من حاكم نعم بالامان بغير محبة شعبه . واشد الحكومات رسوخا هى التى يحكمها أمراء تقيدهم حدود دستورية . فحكم الشعب سديد فى نظر ماكيافيلى ، كما يلاحظ فى مهاجمته للمثل القديم : «من يبن على الشعب يبن على الرمال» . وكانت حكومته المثالية هى الحكومة الرومانية القديمة ، وكان يشير اليها دائما فى كتابه « المحادثات » .

اذن ، فلماذا ، وقد فضل ماكيافيلى الحكومة الجمهورية على كل ماعداها للشعب الحر ، لماذا انتج كتاب «الامير» ؟ ألف ماكيافيلى هذا الكتاب لعصر بعينه ، ولمجموعة معينة من الظروف . ولاشك فى أنه أدرك أنه يستحيل اقامة جمهورية ناجحة فى ايطاليا فى القرن السادس عشر . وضع كتاب «الامير» خصيصا لغرض الحصول على مساعدة الناس الاقوياء لتخليص الشعب الايطالى

من تعسفهم ، وتخليص الدولة من الفساد السياسى • فاذا واجهت ايطاليا أزمة حادة لم تلجأ الى الاسلحة من أجل خلاصها •

والآراء المخالفة الشائعة على نطاق واسع ، والخاصة بماكيافيلى ، لاتزال قائمة رغم الجهود المبذولة لرد الاعتبار لاسمه والموقف الذى وصفه جوزبى بريتسولينى Giuseppe Prezzolini منذ بضع سنوات لا يزال سائدا ويقول :

لدينا الآن ماكيافيلى اليسوعيين ، عدوا للكنيسة ؛ ماكيافيلى الوطنيين ، مخلص ايطاليا المتحدة وبيت سافوى Savoy ، وماكيافيلى العسكرية طليعة الجيوش القومية ؛ وماكيافيلى الفلاسفة ، الذى ابتكر طريقة جديدة للفكر ـ الروح العملية ، وماكيافلى الكتاب ، الذى يعجبون بأسلوبه الكامل النضج وعباراته الجريئة • وجميع هؤلاء الماكيافيليون شرعيون •

من الحقائق التى قلما تقبل الجدل ، انه ما من رجل قبل كارل ماركس كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى مثل ماكيافيلى • ان له حقا شرعيا فى لقب «مؤسس علم السياسة» •

٢ ـ الثورى الأمريكى

ثوماس بين THOMAS PAINE

« الأدراك العــام »

ماكان لأى رجل عاقل أن يتنبأ لثوماس بين بمستقبل زاهر عندما وصل الى أمريكا وهو فى الســابعة والثلاثين من عمره . كانت حياته كلها حتى ذلك الوقت سلسلة من الاخفاقات وخيبة الامل . فكل مشروع وضع يده فيه باء بالفشل . اذا ، فأى سبب يجعلنا نعتقد انه فى خلال بضع سنوات يبرز هذا القادم الحديث الى الدنيا الجديدة كواحــد من أعظم مؤلفى الكتيبات فى اللغــة الانجليزية ، وواحد من أعظم الباحثين فى التاريخ الامريكى . انــه مثير للقلاقل السياسية ، وثورى عرف اســـمه ورهب ومقت أو قرظ وكرم فى جميع المستعمرات البريطانية الامريكية ، وبريطانيا العظمى ، وغرب اوروبا ؟ يبدو أن رحلة المحيط قد احدثت تحورا مثيرا فى شخصيته واخلاقه ، فغيرته مابين عشية وضــحاها من الادراك المتوسط الى النبوغ .

اذا فحصنا سنى حياة بين الاولى ، وجدناها لم تضع هباء، بل كانت فى الحقيقة نوعا من الاعداد لحياته الجديدة . ولد فى فى شرقى انجلترا فى التاسع والعشرين من يناير سنة ١٧٣٧ ، من ثيتفورد Thetford بمقاطعة نورفوك Norfolk من أب ينتمى الى طائفة أصدقاء مذهب جورج فوكس الدينى ومن أم انجليكانية .. مارس الفقر المدقع والحرمان والنصب منذ نعومة أظفاره ... تعلم فى مدرسة الاجرومية حتى بلغ الثالثة عشرة اذ اكتسب ، كما يقول هو نفسه ، « تعليما اخلاقيا جيدا جدا ، وكمية طيبة من المعارف النافعة » . وان موهبته الطبيعية فى العلوم والاختراع ـ الناحية العملية المقابلة للنظرية ـ قد ظهرت على السطح وبقيت معه طوال حياته الحافلة بالاعمال المستمرة .

بعد هذا التعليم البسيط الشكلى ، تتلمذ لين ليتعلم مهنة ابيه صناعة «الكورسيهات» . فقضى فى ذلك العمل ثلاث سنوات. ثم ان بريق البحر وملل العمل على وتيرة واحدة ، جعلاه يفر من بيته ويلتحق بسفينة القرصنة الحربية « تريبل Terrible » بقيادة ربان يحمل الاسم المرهوب «الموت» . واذ انقذه ابوه ، استأنف عمله فى صناعة الكورسيهات حتى بلغ التاسعة عشرة ، فعاد الى القرصنة الحربية لنهب سفن الاعداء حيث عمل مدة قصيرة على السفينة «ملك بروسيا» . واذ شفى من ولعه بالمغامرات البحرية استقر مرة اخرى فى مهنته الاولى ، ليس فى ثيتفورد وانما فى لندن ، فى حانوت لصناعة الكورسيهات قرب درورى لين Drury Lane . وكان يقضى أوقات فراغه فى سماع محاضرات علم الفلك .

تلا ذلك سنوات من التجوال الشاق وعدم الاستقرار فى شىء ... تزوج خادمة يتيمة فى ساندوتش Sandwich ، ولكنها ماتت فى غضون سنة من زواجها . كان والدها موظفا بمراقبة

الانتـــاج ، فجـذب بين الى هــــذه الوظيفة وجـــود وقت فراغ يمكنه أن يقوم فيه بأعمال اخرى . فحصل على وظيفة مأمور فى ادارة مراقبة الانتاج ، ولم يكن هناك طريقــة أضمن من هــذه لفقدان الاصدقاء والابتعاد عن الناس ، اذ كان عمله القبض على مهربى البضائع ، فصارت أيدى الاغنياء والفقراء ضــده . ثم فصل من عمله هذا لتهاونه فى تنفيذ الأوامر . فعاد بعد ذلك الى صناعة الكورسيهات وبقى فيها مدة بسيطة ثم عمل مدرســا فى كنسنجتون Kensington بمرتب ٢٥ جنيها فى السنة لا يكاد يكفى ثمن القوت الضرورى . ولكنه عاد بعد ذلك الى مراقبة الانتاج ، وتزوج مرة ثانية فى سنة ١٧٧١ ، وانضم الى زوجته وأمهــا فى لويس Lewes ، فى ادارة حانوت لتجارة التبغ والبقالة ، كعمــل اضافى يزيد فى دخله .

قضى بين كثيرا من وقته ، فى هذه السنين الأخيرة ، فى حانة « هــوايت هارت White Hart » وحضــــور الاجتمـــاعات فى ناد انضم اليه . وللترفيــه عن الأعضـــاء ، كان ينظم الأزجال الدعابية والأغانى الوطنية ، ويصدر صحيفة فى موضوعات اكثر جدية ، وأحيانا كان يشترك فى نقاشـــات حاميــة عن الاحداث اليومية الجارية . ولما ظهرت براعته فى الجدل ، انتخبه زملاؤه كى يتــكلم نيابة عنهم فى طلب زيادة أجورهم وتحســـين ظروف العمل لهم . فقضى بين عدة أسابيع فى تحرير صحيفة بعنوان . « قضية موظفى مراقبة الانتاج ، والآراء الخاصة بالفساد الناجم عن فقر موظفى مراقبة الانتاج» . وفى شـــتاء عام ١٧٧٢ ـــ ١٧٧٣ ذهب الى لندن لتقديم هذه العريضة الى أعضاء البرلمان والموظفين الآخرين .

لم ترفض العريضة التى قدمها بين نيابة عن زملائه ، لم ترفض فحسب ، بل وطرد من عمله لاهماله واجباته . وأفلس

حانوت تجارة التبغ ، فبيع أثاث بيته وأمتعته الشخصية لانقاذه من السجن بسبب ديونه . فانفصل عن زوجته . واذ أقبل على منتصف العمر ، ترك وحيدا خالي الوفاض .

شاء الحظ أن يلتقى أثناء اقامته فى لندن بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذى أوفد الى هناك كسفير للمستعمرات . وربما أدرك فرانكلين عبقرية بين فحثه على أن يجرب حظه فى أمريكا وزوده بخطاب توصية لزوج ابنته ريتشارد باش Richard Bache فى فيلادلفيا Philadelphia ذكر له فيه أن بين « شاب عبقرى كفء » موصيا ، بتعيينه كاتبا أو مساعد مدرس فى مدرسة أو مساعد مساح . كان خطاب فرانكلين رأس المال الرئيسى لدى بين عندما نزل فى فيلادلفيا فى أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٧٤ .

ومع هذا ، أحضر بين معه رأس مال ثان بالغ القيمة من نوع آخر — هو مرانه الماضى . لاحظ بين الوحشية البدائية التى يسير عليها العدل فى انجلترا ، وذاق مرارة الفقر ، وقرأ وسمع الكثير عن حقوق الانسان الطبيعية ، ورأى الهوة الشاسعة الفاصلة بين ملايين البشر العاديين وبين بضعة الآلاف ، أعضاء الأسرة المالكة والنبلاء فى بريطانيا ، وعرف الطريقة التى يتبعها نواب الأقاليم الفاسدون فى اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons كما عرف فساد وغباء العائلة المالكة . واذ فكر عميقا فى هذه الأمور ، تملكه عطف شديد على الانسانية ، كما تملكه حب للديموقراطية وباعث قوى للاصلاح الاجتماعى والسياسى العام .

بعد وصول بين الى فيلادلفيا ، سرعان ما عين محررا فى مجلة بنسلفانيا Pennsylvania وكانت صحيفة جديدة ، فاستمر فى تلك الوظيفة معظم الثمانية عشر شهرا التى

بقيتها تلك الصحيفة . وعلى الفور تقريبا ، بدأ سيرته الطويلة كمغامر مصلح ، فنشر مقالا ندد فيه بالرقيق من الزنوج وطالب بالحاح عتق الأرقاء . بعد ذلك بخمسة أسابيع تكونت في فيلادلفيا أول جمعية امريكية لمقاومة الرق . وتلا ذلك مقالات أخرى تطالب بمنح المرأة المساواة في الحقوق ، وتقترح تشريع قوانين دولية لحقوق الطبع والنشر ، والرفق بالحيوان والسخرية من عادة المبارزة ، ونبذ الحروب لتسوية النزاعات بين الأمم .

وبينما هو يكتب تلك المقالات ، شبت بسرعة حرب دولية لعب هو فيها دورا هاما . ففي ربع سنة ١٧٧٥ قامت معارك كونكورد Concord ولكسنجتون Lexington وبنكر هيل Bunker Hill وبعد مذبحة لكسنجتون في شهر ابريل ، كتب بين الى بنيامين فرانكلين ، يقول : « رأيت من الصعب أن تشتعل النار في البلاد تحت سمعي بمجرد دخولي اليها » .

انقسمت الآراء في المستعمرات انقساما بالغا فيما يختص بالمنهج الواجب اتباعه . تراوحت الآراء من المتطرفين أمثال صموئيل آدمز Samuel Adams وجون هانكوك John Hancock اللذين صمما بشدة على ضرورة الحرب ، الى المحافظين الموالين للملك . وكان جورج واشنطن George Washington وبنيامين فرانكلين وتوماس جافرسون Thomas Jafferson من بين القادة الذين ابدوا ولاءهم لبريطانيا ، وتساءلوا عن فكرة الانفصال والاستقلال . اكد كل من المؤتمر الكونتنتال الاول والثاني قراراتهما في الولاء للتاج ، مطالبين فقط بتسوية عادلة لمطالبهما .

وفي وسط ذلك التفكير المضطرب والآراء والدوافع المتضاربة ، والجذب والرفع ، كان هناك رجل واحد رأى

بوضوح اتجاه الأحداث والنتيجة المحتملة . فمنذ البداية ، رأى توماس بين أنه لا مفر من الانفصال عن انجلترا . فقضى كل بقية عام ١٧٧٥ يكتب آراءه . وقبل نشر مؤلفه ، عرضه على عدد من الأصدقاء من بينهم الدكتور بنيامين رش Benjamin Rush الذى اقترح أن يكون عنوان الكتيب « الادراك العام » ، وساعد بين فى العثور على ناشر اسمه روبرت بل Robert Bell وهو صاحب مكتبة ومطبعة فى فيلادلفيا .

ظهر « الادراك العام » فى ١٠ يناير سنة ١٧٧٦ « ومؤلفه رجل انجليزى » ، وهو عبارة عن كتيب من ٤٧ صفحة ، وثمنه شلنان . فبيع منه ١٢٠٠٠٠ نسخة فى ثلاثة أشهر ، وبلغ مجموع المبيعات الكلية حوالى نصف مليون ، وهذه تعادل بالنسبة الى عدد السكان ، بيع ٣٠ مليون نسخة فى الولايات المتحدة اليوم . والواقع أن كل شخص يستطيع القراءة فى المستعمرات الثلاثة عشرة ، لابد وأن قرأه . ورغم هذه المبيعات الضخمة رفض بين أن يأخذ بنسا واحدا من حصيلة ذلك الكتيب .

ليس فى تاريخ الأدب شىء يعادل « الادراك العام » فى أثره الفورى . كان نداء بوق الى المستعمرات الامريكية لكى تحارب من أجل استقلالها — دون قبول الصلح ولا التردد . أبان لهم ذلك الكتاب أن الثورة هى الحل الوحيد لنضالهم مع بريطانيا العظمى وجورج الثالث . فقال بين : « بما انه لا شىء يجدى غير الصفعات ، فاكراما لخاطر الله هيا بنا الى الانفصال النهائى . اننا ندفع ثمنا غاليا ، وغاليا جدا عن الغاء القوانين ، اذا كان هذا هو كل ما نحارب من أجله .. انه من الحماقة أن ندفع ثمن بنكر هيل من أجل الارض .. ليس هذا موضوع مدينة أو مقاطعة او محافظة او مملكة ، بل موضوع قارة .. ليس هذا مصير يوم ولا سنة ولا جيل ، بل ان ذريتنا مشتركة فى هذه

التجربة .. الآن وقت البذر لاتحاد وايمان وشرف قارة .. ان حزام القارة المربوط واسعا .. الاستقلال هو الرباط الوحيد الذى يحافظ على ارتباطنا معا » .

ومقدمة « الادراك العام » فقرة معتدلة ومهدئة :

ربما كانت العواطف التى تتضمنها الصفحات التالية ليست جيدة الصياغة بما يكفى لأن تحظى بالقبول العام . فالعادة الطويلة الأمد التى لا تظن بأن هناك شيئا خطأ ، تعطى مظهرا سطحيا بأنه صواب ، ويثير أولا صفحة مدوية للدفاع عن العادات . ولكن سرعان ما يخمد الصوت . يخلق الزمن مهتدين اكثر مما يفعل العقل .

يتناول القسم الاول من هذا الكتيب نشأة الحكومة وطبيعتها مع تطبيق معين للدستور الانجليزى . تظهر فلسفة المؤلف عن الحكومة فى مثل هذه العبارات :

ليست الحكومة ، حتى وهى فى أفضل حالاتها ، سوى شر لابد منه ، وفى أسوأ حالاتها ، شر لا يطاق .. الحكومة كالثياب، شارة البراءة المفقودة .. بنيت قصور الملوك على أنقاض مقاصير الجنة .. كلما كثر كمال المدنية قلت حاجتها الى حكومة .

يقول بين ان نشأة الحكومة وقيامها قد صارا ضروريين بسبب عجز الأخلاق الفاضلة عن حكم العالم ، وهنا أيضا شكل ونهاية الحكومة ، أى الحرية والاطمئنان » .

يوجد فرق كبير بين المجتمع والحكومة . ينجذب الناس الى المجتمع وعن طريق التعاون الاجتماعى يمكنهم الحصول على حاجات معينة . وفى هذه الحالة يملك الانسان حقوقا طبيعية معينة مثل الحرية والمساواة . ونموذجيا، يجب أن يكون الانسان قادرا على أن يعيش فى سلام وسعادة بدون حكومة ، اذا كانت

بواعث الضمير واضحة ومتناسقة ومطاوعة بغير مقاومة » . وبما أن الجنس البشرى ضعيف طبيعيا ، وغير كامل اخلاقيا ، يلزم وجود قوة رادعة ما ، وهـــذه توفرها الحكومة . ومع ذلك ، يتوقف امن وتقدم وراحة الشعب على المجتمع اكثر مما يتوقف على الحكومة . وتجاوب المجتمع وعاداته والعلاقات المتبادلة بين الناس أقوى تأثيرا من اى دساتير سياسية .

بعد ذلك يبدى بين بضع ملاحظات على الدستور الذى تزهو به انجلترا كثيرا ، معلقا عليه بقوله : « من المسلم به أنه كان نبيلا ابان العصر المظلم الحقير الذى صيغ فيه . فعندما اجتاح الطغيان العالم ، فان أقل تزحزح عنه كان خلاصا ماجدا . ولكن من السهل توضيح انه غير كامل وعرضة للتأويلات المتضاربة وغير قادر على تحقيق ما يتظاهر بالوعد به » . ما اهم الصفات التى يجب أن تتحلى بها الحكومة ـ المسئولية ـ التى اعتبرها بين غير موجودة اطلاقا فى الدستور البريطانى . انه معقد بطريقة تجعل من المستحيل معرفة المسئول عن شىء بعينه . والجزء الوحيد المشكور فى ذلك الدستور هو حق الشعب ، نظريا على الاقل ، فينص على اختيار اعضاء مجلس العموم House of Commons بالانتخاب . واقترح بين قاعة تشريعية واحدة للمستعمرات ينتخب اعضاؤها ديموقراطيا ، ورئيسا ، ووزارة ذات قسم تنفيذى مسئول امام الكونجرس .

ادخر بين أقذع الفاظه وأعظم احتقاره لدستور الملكية الوراثية . هاجم مبدأ الملكية كله من اساسه ، ولاسيما الصورة الانجليزية من هذا المبدأ .

عرف العالم حكومة الملوك ، أول ما عرفوها ، من الوثنيين الذين حاكاهم فى هذه العادة أبناء اسرائيل. كانت الاختراع الاكثر ازدهارا ، الذى أقامه الشيطان لنشر عبادة الاصنام . قدم

الوثنيون فروض العبادة لملوكهم الأموات، وتحسن العالم المسيحى بفعل نفس ذلك الشيء لملوكهم الأحياء .. وأضفنا نحن الى شر الملكيــة ، شر حق الوراثة . ولما كان الشر الأول تحقيراً وتقليــلاً لأنفسنا ، فان الشر الثــانى ، كحق ، اهانة لنــا ، وفرض على ذريتنا .. ومن أقوى البراهين الطبيعيــة على ســخافة حقــوق الوراثة للملوك ، أن الطبيعة نفســـها تشمئز منها ، والا فانهــا تسخر منا فتعطينا « حماراً » بدل « أسد » .

ورجوع شرعية الوراثة الانجليزية للعرش الى عصر الغزو ، امر مشكوك فيه ، فى نظر بين ، فيقول : « نزل بانجلترا صعلوك فرنسى ومعه عصــابة مســلحة ، فأقام نفسه ملكا لانجلترا بغير موافقة السكان الوطنيين ، وهذه ببساطة نشأة دنيئة حقيرة ــ وبالتأكيد لا تنطوى على شيء الهى » . اذا أمنت الملكية فريقا من الناس الاخيار والعقلاء ، فلا مانع . ولكنها « تفتح بابا » للاغبياء والاشرار والمســـــودين » .. أولئك النــاس الذين ينظرون الى انفسهم على أنهم ولدوا ليحــكموا بينما ولد الآخرون ليطيعوا ، سرعان ما يتخلقون بالوقاحة . وهم بخلاف سائر الجنس البشرى قد تسممت عقولهم منذ عصر مبكر ، بالعظمة والصلف .. وعندما يتولون الحكومة بالوراثة ، فكثيرا مايكونون جهلاء وغير صــالحين لأى شيء فى جميع انحاء المملكة » . والســـــماح للملــوك القصر والشيوخ بالجلوس على العرش يخلق عددا من الشرور والمساوىء ففى الحالة الأولى يكون الحكم الحقيقى للمملكة فى يدى وصى على العرش ، وفى الحالة الثانية يصير الحكم عرضة لنزوات ملك عجوز خائر .

وردا على القــول بأن وراثة العرش تمنع قيــام الحــروب الأهلية ، أشار بين الى أنه منــذ عصر الغزو اجتــاحت انجلترا « مالا يقل عن ثمانى حروب أهلية وتسعة عشر تمردا » ، وقال :

لا يعمل الملك فى انجلترا الا القليـــل جدا زيادة على أعلان الحروب وتوزيع المناصـب ، وهذا ، ببســاطة ، معناه أنه يفقر الأمة ويضمها معا من آذانها . فياله من عمل رائع حقا أن يتقاضى رجل عنه ثمانمائة الف جنيه استرليني سنويا ويعبد من أجـل هذا العمل ! ان رجلا أمينا واحدا لأعظم قيمة للمجتمع وفى نظر الله أيضا ، من جميع أولئك السوقة المتوجين الذين عاشـوا فى هذه الدنيا .

ادى بين فروض الاحترام ، فى عـدة فقـرات الى جـورج الثالث . فكتب بعد مذبحة لكسنجتون ، يقول : « انى لأنبذ الى الأبد فرعون انجلترا القاسى القلب والسـيىء الطباع ، واحتقر ذلك الوغد ذا اللقب الزائف « أبو شـعبة » الذى يســمع عن مذابحهم دون شعور ، وينام ناعم البال ودمهم على روحه » . ثم يستطرد فى فقرة لاحقة ، فيقول : « يقول البعض ، ولـكن أين ملك امريكا ؟ فأرد عليك ، يا صديقى ، بقولى : انه يحـكم فوق ، ولا يعمل على ابادة الجنس البشرى ودماره كمـا يفعـل وحش بريطانيا الملكى » .

واذ فجر بين بعض الآراء الشعبية عن الحـكومة الملكيـة ، انتقل الى «بعض الافكار عن الحالة الراهنة للشئون الامريكية» . فأكد النقاش الاقتصادى للانفصـال عن بريطانيـا ، وعن ادعاء المحافظين بأن امريكا ازدهرت بسبب صلتها بانجلترا ، فقال :

كان بوسع أمريكا أن تزدهر بذلك القدر ، وربما بأكثر منه لو لم تتدخل فى شئونها اية قوة اوربية . فمواد التجـارة التى اغنت أمريكا بها نفسها هى ضروريات الحيـاة ، وسـتجد دائما سوقا لمنتجاتها طالما كانت عادة اهل أوروبا ان يأكلوا .. يجلب قمحنا ثمنا فى أية سوق اوروبية ، وسلعنا المسـتوردة يجب ان ندفع ثمنها ، ولذا يمكننا ان نشتريها من أين يحلو لنا .

اما القول بأن بريطانيا قامت بحماية المستعمرات ضد الاسبانيين والفرنسيين والهنود فلم يقبله بين فى احتقار ، وعلق عليه بقوله : « كان يمكن أن تحمى بريطانيا تركيا لنفس الدوافع، اى من أجل التجارة والمستعمرات وعلى اية حال كان الدفاع على حسابنا ، كما كان على حسابها » .

أدرك بين أن من أقوى الروابط التى تحافظ على عدم انفصال المستعمرات ، فكرة عاطفية بريطانية ، اذا كان هذا حقيقيا . وهى تجلب العار على سلوكها . فحتى الوحوش لا تأكل صغارها ، ولا يعلن المتوحشون الحرب على عائلاتهم .. فقد اتخذ الملك واذنابه العبارة « الدولة الوالدة أو الدولة الأم » يسوعيا لغرض بابوى وضيع ، لكسب انحياز غير عادل على الضعف الساذج لعقولنا . فان أوروبا ، وليست انجلترا هى الدولة الأم لأمريكا » . قال بين ، ان الدنيا الجديدة كانت ملجأ لمحبى الحرية المدنية والدينية المضطهدين من جميع انحاء أوروبا .. لا يصل عدد السكان ، الذين من أصل انجليزى ، حتى فى هذه المحافظة ، الى ثلث عدد سكانها الكلى ، وهذا ما يجعلنى أستاء لاطلاق عبارة « الدولة الوالدة او الدولة الأم » على انجلترا وحدها ، اذ يكون هذا انانية وزيفا وبخلا وضيقا فى التعبير » .

علق بين على تحذير جورج واشنطن « أن نبتعد عن التحالف الدائم مع أى جزء من العالم الأجنبى » ، وعلى سياسة توماس جيفرسون : « السلم والتجارة والصداقة الصادقة مع جميع الأمم — ولا نشتبك فى تحالف مع أى امة منها . » علق بين على هذين القولين مقترحا ان هناك مساوىء عديدة للعلاقة المستمرة مع بريطانيا :

.. لأن اى خضوع أو اعتماد على بريطانيا العظمى يؤدى الى الاشتراك المباشر لهذه القارة فى الحروب والمعارك الأوروبية ،

ويضعنا فى موقف العداء مع الأمم ، التى بغير ذلك تسعى الى صداقتنا والتى ليس بيننا وبينها اى كدر او شكوى . ولما كانت أوروبا سوقا لتجارتنا ، وجب علينا الا نكون اية علاقة انحياز مع اى جزء منها . ان صالح امريكا الحقيقى هو فى الابتعاد عن المنازعات الاوروبية ، الأمر الذى لن تستطيعه امريكا وهى الكفة الراجحة فى ميزان السياسة البريطانية . فاوروبا زاخرة بالكثير من الممالك الراغبة فى السلام ، واذا اندلعت نيران حرب بين انجلترا واية قوة اجنبية ، تحطمت تجارة امريكا بسبب علاقتها ببريطانيا .

استعرض بين مساوىء الحكومة البريطانية المتعددة الصور ، فاستنتج :

ليست قوة بريطانيا هى التى تنصف هذه القارة . فسرعان ما ستكون شئونها كثيرة ومعقدة فلا تستطيع قوة بعيدة عنا ان تدبرها تدبيرا مريحا ، وهكذا تجهلنا ، لأن البريطانيين اذا لم يستطيعوا قهرنا فلن يستطيعوا أن يحكمونا . فاذا كان علينا دائما أن نقطع ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ميل لعرض موضوع أو تقديم شكوى ، ثم ننتظر اربعة او خمسة شهور ليصلنا الرد ، الذى عندما يصل يحتاج الى خمسة أو ستة شهور اخرى لتفسيره . وعلى هذا ينظر اليه بعد بضع سنوات على انه حماقة و «مسيلة» . انها لسخافة أن تستمر جزيرة تحكم قارة . لم تجعل الطبيعة ، بحال ما ، التابع اكبر من الكوكب المتبوع .

ألقى بين مرافعة مثيرة للعواطف من أجل المتشككين وضعاف القلوب ، الذين مازالوا يعتقدون ان الاتفاق او الصلح ممكن ، فقال :

أيمكنكم أن تعيدوا الينا الزمن الذى مضى ؟ ايمكنكم ان تمنحوا البغاء براءته السابقة ؟ كذلك لايمكنكم الصلح بين بريطانيا

وأمريكا . لقد انقطع الآن آخر حبل للرجاء . يلقى شعب انجلترا الخطب ضدنا ، وهناك أضرار لن تغفرها الطبيعة ، واذا غفرتها فلن تكون طبيعة بعد ذلك . وكما أن العاشق لن يغفر لمن يهتك عرض معشوقته ، كذلك لن تغفر هذه القارة لبريطانيا مذابحها .

بينما يرزح العـالم كله تحت عبء الظلم ، يجب أن تفتح أمريكا أبوابها على مصاريعها للحرية وتعد ملجأ البشرية المضطهدة.

كرس بين الباب الأخير من كتيبه لموضوع عملى جدا ، وهو « المقدرة الحامية لأمريكا » ، ليحصل على ثقة الامريكيين ويقنعهم بأن لديهم القوة البشرية والتمرين الصناعى والموارد الطبيعية ، ليس فقط لشن الحرب بنجاح على بريطانيا ، بل ، اذا اقتضت الضرورة ، على العالم المعادى . تحتوى المستعمرات الآن على عدد ضخم من الرجال المسـلمين والمدربين ، ويمكنها تكوين أسـطول بحـرى يعـادل اسـطول بريطانيـا فى وقت قصير لان القطران والأخشـاب والحـديد والحبال متوافرة لدينا بكميات كبيرة وان « بناء السفن لمفخرة أمريكا التى لا تزال تتفوق فيها على العالم اجمع . » وعلى اية حال ، ان امريكا فى حاجة الى اسـطول للدفاع والحماية ، لأن البحرية الانجليزية قليلة الجـدوى وهى على بعد ثلاثة أو أربعة آلاف ميل ، وعديمـة النفع اطلاقا وقت نزول الخطر » .

وعلى ضوء المجادلات الدينية التى اشتبك فيها بعد ذلك ، من الممتع أن نبين آراء بين الدينية فى هذه المرحلة من حياته .

اما فيما يختص بالدين ، فأقرر أنه واجب لا غنى عنـه لجميع الحكومات أن تحمى جميع أسـاتذة الدين الغيـورين ، ولست أعرف عملا آخر يجب أن تقوم به الحكومة (وهـذا طعن واضح ضـد الكنيسـة ، يبغى من ورائه فصـل الكنيسـة عن

الحكومة) .. اما عن نفسى فاننى أؤمن تماما وبعقيدة انها مشيئة الاله القــادر على كل شىء ، أن تكون بيننـــا خـلافات فى الآراء الدينية ، فهذا يسـمح بمجال أوسع لطيبتنا المسـيحية . وإذا اتفقت طريقة تفكيرنا جميعا ، اجتاحت تكويناتنا الدينية الى مادة للنقاش ، وانى هــذا المبــدأ الحر ، أتطلع الى جميع القيم التى بيننا ، لنكون كأطفال أسرة واحدة لا يختلفون الا فيما يطلقــون عليه الاسم الاول او الاسم المسيحى .

لخص بين أسباب تمسكه برايه فى « أنه ما من شىء يسوى أمورنا بسرعة وبسهولة مثل الاعلان الصريح لاستقلالنا » .. ختم كتيبه « الادراك العام » بذكر اربعة عوامل : (١) طالما أن أمريكا تعتبر من رعايا بريطانيا ، فما من دولة أخرى يمكنها التدخل فى الخلاف بينهما . (٢) لا يمكن انتظار مســاعدة من فرنســا أو اسبانيا لاصلاح الصدع بين بريطانيا وأمريكا وتقـوية العـلاقة بينهما لأن مثل هذه الخطوة ستكون ضد مصالحهما . (٣) طالما يعترف الامريكيون بأنهم رعايا بريطانيا ، فانهم سيعتبرون فى نظر الأمم الأجنبية عصاة متمردين ، وهكذا لايكسبون الا القليل من عطفهم . (٤) اذا أعد الامريكيون تقريرا يوضحون فيه شكواهم ضد بريطانيا وعزمهم على قطع كل علاقة بها ، وارسال نســخ من هذا التقرير الى جميع الدول ، معبرين عن نواياهم الســلمية مع تلك الدول ، ورغبتهم فى اقامة علاقات تجارية ، صارت النتائج فى صالحنا جدا .

واختتم بين قضيته بقوله :

.. اذا لم يعلن الاستقلال فستظل القارة تشعر بأنها مثــل رجل دائم التأجيل لعمل كريه من يوم الى يوم ، رغم انه يعلم ان ذلك العمل لابد ان يتم ، ويكره أن يبدأ فيه ، وفى الوقت نفسه

يرغب فى الانتهاء منه ، ويظل مشغول البال باستمرار بضروره ذلك العمل .

لماذا ، بدلا من أن يحملق كل منا فى الآخر مستريبا أو متسائلا ، لماذا لا يمد كل منا الى جاره يد الصداقة من كل قلبه ، ونتحد فى رسم خط ، كعمل من أعمال النسيان وندفن فى حيز النسيان كل نزاع سابق . ولنقض على اسم عضو من حزب الأحرار وعضو فى حزب المحافظين ، ولا يسمع بيننا سوى « مواطن صالح » و « صديق وفى » و « مؤيد فاضل لحقوق الانسان وحقوق ولايات أمريكا الحرة والمستقلة » .

كانت هذه هى الرسالة الثورية التى بعث بها « الادراك العام » الى الشعب الامريكى ، صاعدا السلم من أسفل الى الأرض ، ومن الأدلة العملية الى النداءات المنحازة لشخص مفعم بالعواطف ، ووطنى عنيف ، وثورى مفطور .

يمكن تصوير الآثار الفورية والتلقائية لكتيب « الادراك العام » بالاستشهاد بأقوال بعض القادة المعاصرين . لقد تبخرت شكوك جورج واشنطن عندما كتب الى جوزيف ريد فى نورفوك : « ان مزيدا قليلا من مثل هذه الأدلة المتأججة كالتى عرضت فى فالموث Falmouth ونورفوك ، اذا أضيف الى المذهب السليم والأسباب المفحمة التى يضمها كتيب « الادراك العام » لن يترك الأعضاء فى حيرة فيما يختص بتقرير مبدأ الانفصال » . وبعد ذلك ببضعة أسابيع كتب أيضا الى ريد : « من الخطابات الخاصة التى تسلمتها أخيرا من فرجينيا Virginia أرى أن كتيب بين بعنوان « الادراك العام » ، قد أحدث تغييرا عجيبا هناك فى عقول كثير من الناس » . وكتب جون آدمز الى زوجته يقول : « أرسلت اليك كتيبا عنوانه (الادراك العام) وضع للدفاع عن مذاهب ، من المعقول أن تتوقع أن وقف الطغيان

ومقاومة الظلم سرعان ما ستكون عقيدة عامة » . وبعد أن قرأته البيجيل Albigail أجابت : « أن هـذا الادراك العـام ، جاء في الوقت المناسب كشعاع من الوحي لتبديد شكوكنا وتحديد اختيارنا . » وقال بنيامين رش عما كتبه بين : « يخرج من المطبعة بأثر قلما أنتجتـه حروف الطبـاعة والورق في أي عصر وفي اية دولة . » وقال الجنرال تشارلز لي Charles Lee : « أعترف بأنه اقنعني » . وذكر فرانكلين : « لقد أحدث اثرا ضخما . » وقال وليام هنري درايتون William Henry Drayton : «جاء هـذا الاعلان كقصف الرعد على أعضاء المؤتمر الكونتيننتال » .

وعلق السـير جـورج ترفليـان George Trevelyan في كتابه « تاريخ الثورة الامريكية » ، بقوله :

من الصعب أن نذكر اسـم اى انشـاء بشرى كان له ذلك الأثر الفوري وفي الحال ، وامتد الى نطاق واسع ، وكان له مثل ذلك الدوام .. سرق هذا المؤلف ، ونظم شعرا وحوكى ، وترجم الى لغة كل دولة كان للجمهورية الجديدة من يودونها فيه ويودون لها أطيب الاماني .. وتبعـا للصحف المعاصرة ، حـول كتيب « الادراك العام » الى الاستقلال أولوفا لم تتحمل من قبل مجرد فكرة الاستقلال . لم ينقص ما فعله هذا الكتيب عما تفعله المعجزات ، وحول المحافظين الى أحرار .

بعد بضعة أشهر من ظهور « الادراك العـام » زودت معظم الولايات موفديها بتعليمات أن يصوتوا طالبين الاستقلال . وترددت ماريلاند Maryland وحـدها ، وعارضـت نيـويورك وفي الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ اى بعد اقل من ستة شهور من ظهور كتيب بين الشهير من المطبعة ، اجتمع الكونجرس الكونتيننتال في قاعة الدولة بولاية فيلادلفيا ، وأعلن استقلال الولايات المتحدة

الامريكية . ورغم أن بين لم يكتب القرار بنفسه ، فانه كان على صلة قريبة من توماس جيفرسون أثناء صياغته . وباستثناء بند ضد الرق ، نادى بين به ، كانت المبادىء التى نادى بها يتضمنها ذلك القرار الشهير .

ان سرد حياة بين اللاحقة مطابقة غير مباشرة لقصة «الادراك العام» . ويمكن تصوير الأحداث الهامة باختصار . فبعد الاستقلال مباشرة ، انضم بين الى جيش الثورة . ولما كان خطيبا كثير الحجج فى دفاعه عن القضية الامريكية ، أسهم بقسط كبير فى الوحدة القومية وروحها ، بمجموعة من الكتيبات ، وكل منها يحمل عنوان « الأزمة » . يبدأ الكتيب الأول من هذه المجموعة بسطور كثيرة الورود على الألسنة : « هناك أوقات تختبر فيها أرواح الناس . يتراجع جندى الصيف ووطنى ضوء الشمس ، عن خدمة وطنهما ، ولكن من يقف فى هذه الخدمة الآن ، يستحق شكر كل من الرجل والمرأة . » وبعد بضعة اشهر ، اذ عرف الكونجرس قيمة بين كاخصائى فى الاعلام ، وداعية الى الأخلاق الفاضلة ، عينه وزيرا للجنة الشئون الخارجية ــ وبذا كان بين أول وزير للولايات المتحدة ، بيد أن الاحداث اجبرته على الاستقالة من منصبه . فعين بعد ذلك أمين سر لمؤتمر بنسلفانيا . وفى سنة ١٧٨١ ، أوفد الى فرنسا مع جون لورنز John Lorens لاحضار مساعدة مالية للحكومة الامريكية التى كانت فى اشد الحاجة الى المعونة ، فعاد فى السنة نفسها بالأموال والامدادات .

واذا انتهت الثورة فى عام ١٧٨٣ ، عكف بين على اختراعاته الميكانيكية مصمما أول جسر حديدى معلق واخذ يجرى التجارب على قوة البخار . فقرر استشارة المهندسين فى فرنسا وانجلترا عن بعض المسائل الميكانيكية فذهب الى أوروبا عام ١٧٨٧ حيث بقى مدة خمسة عشر عاما .

ما ان وصل بين الى الخـــارج حتى اندلعت نيران الثـــورة الفرنسية ، فأيدها بين بحماس اذ وجد فيهـــا دفاعا جديدا عن آرائه الديموقراطية . ودفاعا عن هـــذه الثـــورة رد على هجـــوم ادمـــوند بيرك Edmund Burke أخـــرج كتيبـــــــه الذائـــع انجلترا اجتنابا للقبض عليه بتهمة الخيانة العظمى بسبب المذهب المشروح فى ذلك الكتيب ، فر الى فرنسا حيث انتخب فى البرلمان الفرنسى عضرا ممثلا لكاليه Calais وفى محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعدام ، اشتبك بين فى نقاش مع بعض المتطرفين محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعدام ، اشتبك بين فى أمثال روبسبير Robespierre ومارات Marat . وعندما تسلم هذان العنصران الحكومة ، قبض على بين وجـــرد من جنســـيته الفرنسية الشرفية ، وسجن مدة عشرة شهور ، ونجا من المقصلة بأعجوبة . ولما أفرج عنه فى السجن بوســـاطة الســـفير الامريكى جيمس مونرو James Monroe عولج من ضـــعفه حتى اســـتعاد صحته فى بيت مونرو .

كان مؤلفـــه العظيم فى ذلك الوقت هـــو « عصر العقـــل Age of Reason » الذى اطلق عليه احيانا « توراة الملحد » . والواقع ان بين كان يعتقد بوجود اله واحد ليس فى دين معلن . وكان « عصر العقل » ينتقد « العهـــد القـــديم » انتقادا لاذعا ، وضعه بين لايقاف موجة الالحاد التى اجتاحت فرنســـا فى عصر الثورة . ومع ذلك ، فان علمـــاء اللاهـــوت والجمـــاعات الدينية الأرثوذكسية أدانوا بين بشدة ووصفوه بأنه متطرف خطير ، وغير مؤمن .

عنـــدما رجع بين الى أمريكا فى ســـنة ١٨٠٢ وجـــد انه لم يستقبل كبطل ثورى ، بل كان منفيا من المجتمع بواسطة القـــادة السياسيين وأعضاء الكنيسة ، بسبب تأليف كتيب «عصر العقل» ونظرياته السياسية المتطرفة . وفى نيوروشيل New Rochelle

ونيويورك حيث استقر ، ضن عليه بحق التصويت بحجة أنه ليس مواطنا امريكيا . ليس هذا فحسب ، بل وحدثت محاولة لاغتيانه . وبعد سبعة أعوام من سوء المعاملة والكراهية والاهمال والفقر واعتلال الصحة ، مات فى سنة ١٨٠٩ فى الثانية والسبعين من عمره ، فمنع من الدفن فى مقابر الكواكر Quaker (أصدقاء مذهب جورج فوكس) .

بقيت العداوة والاكاذيب والتعصبات العنيفة التى لقيها بين فى أواخر سنى حياته الى العصور الحديثة . فقد اشار اليه ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt بقوله : « ذلك الملحد الصغير القذر» ، وهكذا كان بين مثل «الامبراطورية الرومانية المقدسة» ، التى لم تكن امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة ، فلم يكن بين ملحدا ولا صغيرا ولا قذرا . وحديثا حتى سنة ١٩٣٣ منع اذاعة برنامج اذاعى عن بين فى محطة اذاعة مدينة نيويورك .

انتخب بين فى «قاعة الشهرة لعظماء الامريكيين » ، ولكن هذا لم يكن قبل سنة ١٩٤٥ ، أى بعد تأسيس تلك القاعة بخمس وأربعين سنة . وفى السنة عينها أعادت مدينة نيوروشيل لذلك البطل الثورى حقوق المواطنين التى فقدها فى سنة ١٨٠٦ .

كان ذلك هو الرجل الذى استحق ، ربما اكثر من اى شخص آخر ، لقب «مؤسس الاستقلال الامريكى» . ذلك الذى كان أول من استخدم العبارة «الولايات المتحدة الامريكية» ؛ الذى رأى مسبقا أن «الولايات المتحدة الامريكية ستكون عظيمة فىالتاريخ مثل مملكة بربطانيا العظمى» ، والذى أعلن أن «قضية أمريكا هى، بمعنى اكبر ، قضية البشرية كلها » . وما من اشارة توضح خلق بين خير من رده على عبارة فرانكلين : «أينما توجد الحرية ،

يوجد وطنى» . فقال بين : «حيثما لاتوجـد الحـرية يوجـــد وطنى » .

وحتى فى عصره ، لم تكن أنشودة الكراهية وعدم الاعتراف بالفضل ، عامين . وقد تجاسر أندريوجاكسون Andrew Jackson أن يقول : «ليس توماس بين بحاجة إلى تمثال مصـــنوع بالايدى اذ أقام تمثالا فى قلوب جميع عشاق الحرية » .

٣ ـ القديس حامى المشاريع الحرة

آدم سميث ADAM SMITH

« ثروة الامم »

بعد أن مضى شهران على اسهام كتاب «الادراك العام» فى اعلان الاستقلال والاحداث المعاصرة الاخرى للثورة الامريكية ، ظهر فى لندن كتاب قدر له أن يحدث رد فعل عميق فى مجال آخر من مجالات النشاط البشرى . وعلى نقيض كتيب بين الملهب للمشاعر ، كانت رسالة آدم سميث الطويلة ، ذات المجلدين بعنوان «تساؤل عن طبيعة وأسباب ثروة الامم» ، قنبلة زمنية، جذبت قليلا من الانتباه فى أول الامر ، والواقع أن هذا المؤلف لم ينجح فى احداث الاثر المرجو كاملا ، الا فى القرن التالى لموت مؤلفه بعد الثورة الامريكية ، وكانت الثورة الفرنسية فى طور التدبير ، وتقدم الانقلاب الصناعى بسرعة مدفوعا الى الامام باكتشاف قوة البخار . وقد وصف أحد الملقين الحقبة الماضية بأنها «العصور المظلمة للعصر الحديث» . وفى انجلترا ، كان كل مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية تحت المراقبة الدقيقة للحكومة.

جمدت الاسعار ، وحددت الاجور وساعات العمل ، وعدل الانتاج، وسيطرت الدولة تماما على التجارة الخارجية من واردات وصادرات ، وتكاد الحرب تكون موجودة باستمرار . فتتطلب السياسة القومية جيشا وبحرية قويين ، وشعبا ضخما ، والاستيلاء على المستعمرات فى جميع بقاع الارض ، واضعاف الدول المنافسة مثل فرنسا بالطرق الطيبة أو الشريرة . ولقى كل اقتراح لتوزيع الثروة بالعدل ، معارضة عنيفة من الطبقات الحاكمة . واقتصر التعليم على القلة المحبوة ، وكانت القوانين الجنائية بالغة القسوة والحقوق السياسية للجمهور موجودة نظريا أكثر منها عمليا .

وكما كانت الحال لعدة أجيال ، مازالت تملك الاريستوقراطية القائمة قابضة على زمام الحكومة . غير أنه قامت طبقة جديدة قوية من التجار والصناع ، تطالب بامتيازات خاصة لانفسها ، فحصلت عليها . كانت الصادرات فى نظر هذه الفئة نعما ، والواردات كوارث ، ويجب الا يسمح للاموال بمغادرة الدولة . يجب الاحتفاظ دائما بميزان تجارى مرموق ، يجب ان تكون أجور العمل منخفضة ، وساعاته طويلة ، ويجب حماية الصناعات الوطنية بتعريفة جمركية عالية . ومن الضرورى امتلاك اسطول تجارى قوى ، وفرض كل اجراء من شأنه أن يساعد التجار تلقائيا ، وذلك لفائدة الامة ككل . وتحت ضغط الاصوات القوية أصدر البرلمان قرارا بتحويل جميع هذه المقترحات الى قوانين .

بعد ذلك جاء آدم سميث معتزما نسف ماعتبره آراء خطأ وضارة . ويمكن اعتبار حياة رجولة سميث حتى هذه المرحلة اعدادا للعمل الضخم الذى وطد نفسه للقيام به . كان مواطننا اسكتلنديا التحق فى الرابعة عشرة من عمره (سنة ١٧٣٧) بجامعة جلاسجو حيث وقع تحت نفوذ أستاذه العظيم فرنسيس

هتشسون Francis Hutcheson الذى كثيرا ماكان يكرر مذهبه « السعادة العظمى للعدد الاعظم » ، حتى صار ذلك المذهب فلسفة سميث الدائمة . وبعد ذلك ذهب الى جامعة أكسفورد حيث بقى ست سنوات كرس معظم وقته فيها لقراءة الادب على مدى واسع . ولما عاد الى اسكتلندة ، أخذ يلقى المحاضرات فى ادنبره Edinburgh حتى سنة ١٧٥١ عندما عين أولا أستاذا لكرسى علم المنطق ثم الميتافيزيقا ثم أخيرا الفلسفةالاخلاقية فى جامعة جلاسجو . ظل مدة اثنتى عشرة سنة يعمل محاضرا موهوبا ذائع الصيت ، وزادت شهرته عندما نشر كتابه «نظرية العواطف الاخلاقية» الذى لقى رواجا عظيما ، وهو مؤلف اعتبره معاصروه أفضل من «ثروة الامم» . واذ أغرته المكافآت المالية السخية ، استقال من منصبه كأستاذ ، ليصاحب أحد الشبان النبلاء كرفيق ومدرس ، فى رحلة الى أوروبا تستغرق ثلاث سنوات . وهناك تعرف على رواد الاقتصاد والفلاسفة والمفكرين السياسيين لذلك العصر ،ولاسيما فى فرنسا .

وفى سنة ١٧٥٩ ، تضمنت مذكرات سميث فكرة «ثروة الإمم» ، ولكن العمل فيه سار ببطء الى أن أتى ثمرته . فاستغرق سنوات من التامل والدراسة والقراءة والملاحظات المبدئية والتحدث الى اناس من مختلف المشارب فى الحياة ، ومراجعات لاتنتهى ، قبل أن يعد هذا المؤلف للطبع . وقبل نشر هذا الكتاب، قضى سميث معظم ثلاث سنوات فى لندن حيث ناقش كتابه هذا مع بنيامين فرانكلين مندوب المستعمرات الامريكى . ولم يخرج ذلك الكتاب من المطبعة الا فى التاسع من مارس سنة ١٧٧٦ . ومنذ ذلك التاريخ طبع منه عدة طبعات ، وترجم الى معظم اللغات الحية فى العالم .

كان كتاب «ثروة الامم» دائرة معارف أكثر منه مجرد

رسالة فى الاقتصاد . واطلق عليه أحد النقاد اسم «تاريخ ونقد جميع الحضارات الاوروبية» . بدأ سميث بمناقشة موضوع تقسيم العمل ، ثم عرج على نشأة النقود وفائدتها ، وأسعار السلع ، واجور العمل ، وأرباح التجارة ، وايجار الارض ، وقيمة الفضة ، والفرق بين العمل المنتج وغير المنتج . بعد ذلك شرح التقدم الاقتصادى فى أوروبا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية ، وقام بتحليلات واسعة لنقد السياسات التجارية والاستعمارية للامم الاوروبية ، ودخل الملك ، ومختلف طرق الدفاع عن العدل ، واقامته فى المجتمعات البدائية ، ونشأة ونمو الجيوش القائمة فى أوروبا ، وتاريخ التعليم فى العصور الوسطى ، ونقد للجامعات فى عصره ، وتاريخ القوة الدنيوية للكنيسة ، وتضخم الديون الشعبية ، وفى النهاية اختبار لمبادىء نظام الضرائب وانظمة الدخل العام .

قد تكون القضية العامة التى بنى عليها سميث كتابه «ثروة الامم » من وضع نيقولو ماكيافيلى Niccolo Machiavelli ونصها : كل بشر تحركه أولا وقبل كل شىء ، مصالحه الشخصية . وليست الرغبة فى الثروة الا أحد المظاهر هذه . وتقف دوافع الانانية وراء جميع انشطة البشرية . وزيادة على هذا ، فبدلا من أن يجد سميث أن هذا المظهر فى سلوك الانسان ممنوع وغير مرغوب فيه ، اعتقد أن انانية الفرد تؤدى الى صالح المجتمع . قال أن خير طريقة لرفاهية الامة ، هى السماح لكل انسان بأن «يبذل جهدا منتظما ومستمرا بدون انقطاع لتحسين حالته ... لانتوقع الحصول على غذائنا من انسانية الجزار أو صانع البيرة أو الخباز ، بل من نظرتهم الى صالحهم . اننا نخاطب انفسنا ، ليس عن حبهم لخير البشر ، وانما عن حبهم لانفسهم ، ولانتحدث اليهم قط عن حاجاتنا وانما عن منفعتهم» . وبسبب أمثال هذه الفقرات ،

تحــــدث راســــكين Ruskin عن سميث على إنه «الرجل الاسكتلندى ذو نصف التربية ونصف الذكاء ، الذى علم التجديف الصريح ، «انك ستبغض الرب الهك ، وتلعن ناموسه ، وتحسد جارك على خيراته » .

قال سميث : «أن الصناعة الحديثة تغدو ممكنة بتقسيم العمل ، وتكديس رأس المال ــ وكل من هــذين مفسر بالصــالح الشخصى أو «النظام الطبيعى» ، كما وصفه فلاسفة القرن الثامن عشر . ودون وعى ، تقود «يد الهية» الانسان كى يسهم فى خــير الكل بالعمل من أجل نفسه ومن أجل ربحه . ومن الطبيعى ان يتبع ذلك ، أنه يجب أن يكون هناك أقل قدر ممكن من تدخــل الحكومة فى النظام الاقتصادى ــ فخير حكومة ، كما قال توم بين فى مناسبة أخرى ، هى الحــكومة التى تحــكم بأقل مايمكن من الحكم .

تناول سميث صناعة الدبابيس ، كتفسير بيانى لشرح مزايا تقسيم العمل : «فالصانع الذى لم يتعلم هذه الصناعة .. ولايعرف طريقة استعمال الآلات المستخدمة فيها ... فربما أنه قلما يستطيع بأكبر جهد أن يصنع دبوسا واحدا فى اليوم ، وبالتأكيد لايستطيع اطلاقا أن يصنع عشرين دبوسا» . وبتقسيم عملية الصنع «الى ثمانى عشرة عملية متفرقة ، تقوم بها جميعا فى بعض المصانع ، عدة أياد متفرقة ... رأيت مصنعا صغيرا من هذا النوع حيث يعمل عشرة رجال فحسب ... يصنعون فيما بينهم ثمانية وأربعين ألف دبوس فى اليوم» كان هــذا «نتيجة للتقسيم الصحيح لعملياتهم الصعبة وتجميعها» .

وأردف سميث يقول ان نشأة تقسيم العمل كانت عنــد الشعوب البدائية :

فمثلا ، يوجد بين أفراد قبيلة من الصيادين أو الرعاة ، شخص معين يقوم بصناعة القسى والسهام بحذق ومهارة أكثر من أى شخص غيره فى تلك القبيلة . فغالبا مايقايض هذا الشخص على القسى والسهام بالماشية أو بلحوم الصيد مع زملائه . فيجد أنه بهذه الطريقة يحصل على ماشية ولحوم صيد أكثر مما لو أنه ذهب بنفسه الى الحقل ليصيدها . وعلى هذا ، فمن نظرته الى صالحه ، صارت صناعة القسى والسهام عمله الرئيسى ..

ويتفوق شخص آخر فى صناعة هياكل وأغطية أكواخهم الصغيرة أو بيوتهم المتنقلة ..

وبنفس هذه الطريقة يصير شخص ثالث حدادا أو نحاسا ، ويغدو شخص رابع دباغ جلود .. وهكذا ، اذ يتأكد كل فرد من قدرته على مبادلة كل مايزيد عن حاجته مما يصنعه بنفسه ، بما يزيد عن حاجة رجل آخر مما صنعه هذا الاخير ، كلما سنحت له الفرصة ، فان هذا يشجع كل انسان على أن يقصر جهده على عمل واحد بعينه ، وينمى فى نفسه كل حذق وبراعة وموهبة يملكها لاتقان ذلك النوع المعين من العمل الذى ارتضاه لنفسه .

ينتقل سميث بعد ذلك الى موضوع النقود وأسعار السلع ، فيذكر مبدأ يهاجمه علماء الاقتصاد الاصليون على أنه خطأ ، ولكنه أقر فى حقبات تالية على أنه صرخة وثرثرة المفكرين الاشتراكيين ، فيقول سميث : «العمل وحده لاتتغير قيمته أبدا ، وهو وحده المستوى الحقيقى والاخير ، الذى به تقدر وتقارن جميع السلع ، فى جميع الازمنة والامكنة . انها ثمنه الحقيقى ، أما النقود فثمنه الاسمى فقط» .

لم يكن سميث أكثر صراحة فى أى موضع آخر من كتاب «ثروة الامم» ، وأحيانا ليس أكثر سخطا ، منه فى تعليقاته على

عدم المساواة فى المساومة بين أصحاب العمل والعمال ، وفى معارضته لفكرة المتاجرة القائلة بأن الاجور المنخفضة تجبر العمال على أن يعملوا أكثر ، وبذا يزيدون فى رخاء انجلترا . فيبدى ملاحظته على النقطة الاولى قائلا : «يرغب العمال فى الحصول على أكثر مايمكن ، ويرغب السادة فى اعطاء أقل مايمكن . فوطد العمال العزم على الاتحاد ليرفعوا أجور العمل ، واتحد أصحاب العمل ليخفضوها » .

ويستطرد قائلا :

اذن ، فليس من الصعب التنبؤ بمن من هذين الطرفين سيكون له النفوذ ، فى جميع الظروف العادية ، فى هذا النزاع ، فيجبر الآخر على التسليم بشروطه . ولما كان أصحاب العمل أقل عدداً ، فيمكنهم الاتحاد بسهولة أكثر ، فضلاً عن أن القانون دائما الى جانب السلطات ، أو على الاقل ، لايحرم اتحاداتهم بينما هو يحرم اتحاد العمال . ليس لدينا قرارات برلمانية ضد الاتحاد لخفض أجور العمل ، ولكن هناك قرارات كثيرة ضد الاتحاد لرفعها . وفى جميع أمثال هذه النزاعات ، بوسع أصحاب العمل الصمود مدة أطول بكثير . فصاحب الارض أو المزارع أو صاحب المصنع أو التاجر ، يمكنهم ، حتى ولو لم يجدوا واحدا ان يصمدوا ، عموما ، لمدة سنة أو سنتين بما ادخروه من قبل من مكاسبهم ، بينما لايستطيع كثير من العمال الصمود أكثر من أسبوع ، ويستطيع قليلون الصمود مدة شهر وقلما تجد من بوسعه أن يصمد بدون عمل مدة سنة . ومع الوقت الطويل ، قد يصبح العامل ضروريا لصاحب العمل ضرورة صاحب العمل للعامل ، ولكن هذه الضرورة ليست هكذا مباشرة .

يبدو عطف سميث الواضح على العمال الفقراء فى مثل هذه الفقرات :

« يتكون الجزء الاعظم فى كل مجتمع سياسى من الخدم والعمال والصناع على اختلاف انواعهم ، ولكن مايعمل علي تحسين ظروف هذا الجزء الاعظم لايمكن اعتباره ، بحال ما ، متعبا للمجموع . فما من مجتمع بوسعه أن يعيش سعيدا فى رخاء ، طالما كان هذا الجزء الاعظم من أعضائه فقيرا بائسا . هذا مؤكد. وعلاوة على ذلك ، فانه من العدل ان يحظى أولئك الذين يغذون ويكسون ويسكنون جموع الشعب كلها ، بنصيب من انتاج عملهم، فيتمتعون بالغذاء . الغذاء والمسكن الملائمين .. وهذان مكافأة حرة على العمل .. تزيد فى نشاط سواد الشعب . واجور العمل تشجع النشاط ، الذى هو كأية صفة بشرية اخرى ، يتحسن بنسبة ماينالة من تشجيع .. واننا لنجد العمال أكثر نشاطا واجتهادا وسرعة حيث الاجور عالية ، منهم حيث الاجور منخفضة » .

ثم يقول :

« يشكو تجارنا وأصحاب مصانعنا مر الشكوى من الاثر السيء الذى تحدثه الاجور العالية فى ارتفاع الاسعار ، وبالتالى قلة مبيعات منتجاتهم محليا وفى الخارج ، ولايقولون شيئا عن الارباح العالية . انهم صامتون عن الآثار الوبيلة لأرباحهم . انهم يشكون فقط من ارباح غيرهم » .

تنبأ سميث بنظريات مالثوس قبل نشر كتاب «مبادىء السكان » بإثنتين وعشرين سنة .

« تتكاثر كل فصيلة من الحيوانات طبيعيا بالنسبة إلى وسيلتها فى الحياة ، ولايمكن لأى فصيلة أن تتكاثر بما يزيد على تلك الوسيلة . اما فى المجتمع المتحضر ، فنجد بين الطبقات الدنيا فقط من الناس ، أن قلة مقومات الحياة هى التى تحد من تكاثر

الاجناس البشرية ، ولايمكنها ان تفعل ذلك بأية طريقة غير ابادة الجزء الاعظم من الاطفال الذين يولدون نتيجة للزواج المثمر » .

وبالنظر الى أرباح العمل فى العصور الحديثة ، من الصعب تصديق كل تلك الممنوعات والقيود الاقطاعية التى سادت فى القرن الذى عاش فيه آدم سميث . لم يكن تحريم اية صورة من صور التنظيم العمانى سوى أحد القيود الصارمة المفروضة على العمال . كما كانت قوانين التلمذة الصناعية ، وقانون الاقامة اشد وأنكى من القيد السابق .

يرجع تاريخ قانون التلمذة الصناعية الى عصر الملكة اليزابيث . وكما يصفه سميث ، ينص على «أنه محظور على اى شخص ان يمارس فى المستقبل اية حرفة او مهنة او اى عمل غامض ، فى انجلترا ، فى ذلك الوقت ، الا اذا كان قد سبق له أن تتلمذ فى ذلك العمل لمدة سبع سنوات على الاقل » . وفى اثناء هذه السنوات السبع ، كان صاحب العمل يمد التلميذ بالقوت الضرورى فحسب . وبطبيعة الحال ، انتهز أصحاب العمل المعدومو الضمير هذا القانون كى يستغلوا عمالهم ليأخذوا الكثير ويعطوا القليل ، بينما كان الصناع المتتلمذون اشبه بالعبيد . ولكى يشهر سميث بهذه الطريقة ، قرر انه لا حاجة اطلاقا لمدة التلمذة الطويلة هذه ، لانه بالامكان استيعاب معظم الحرف فى بضعة أسابيع . ثم ان قوانين التلمذة الصناعية كانت تدخلا تعسفيا فى حقوق العامل يمنعه من ابرام عقد عمله ، ومن اختيار عمله ومن الانتقال من عمل قليل الاجر الى عمل آخر اكثر اجرا .

وبالمثل ، كان قانون الاقامة ظالما أيضا : «أجرؤ على القول بأنه قلما يوجد رجل فقير فى الاربعين من عمره ، فى انجلترا ، لم يشعر فى اى وقت من حياته بأنه مغبون غبنا اى غبن بسبب قانون

الاقامة هذا » . وكما حدث فى قانون التلمذة الصناعية ، صدر ذلك القانون فى العصر الاليزابيثى أيضا . كان الغرض الاساسى منه اقرار النظام فى توزيع اعانات الفقر . كانت كل أبروشية مسئولة عن الاهتمام باعضائها الفقراء . ولمنع زيادة عدد الفقراء فى المجتمع ، لم يسمح للفقراء الجدد بالاقامة هناك الا اذا كان لهم معين يكفل معيشتهم . وبتطبيق هذا القانون على العمال ، كان الاثر العملى لهذا القانون خلق طبقة من المسجونين مؤبدا فى مسقط راسهم ، واضعا عقبات كأداء فى طريق العامل الراغب فى الانتقال من منطقة الى أخرى . كان هناك مثل أيضا ، فى تقدير آدم سميث، لعدم المساواة فى تدخل الحكومة فى حقوق الانسان وفى الناموس الطبيعى للنظام الاقتصادى .

حاول سميث التمييز بين العمل المنتج والعمل غير المنتج بقوله :

« لن تفتقر الامم العظمى بالتبذير العام وسوء السلوك ، ولو أنها قد تفتقر بهما أحيانا ، فكل الدخل القومى أو معظمه ، فى معظم الدول ، يستخدم فى الاحتفاظ بالايدى غير المنتجة . هكذا الشعوب التى تحتفظ ببلاط فخم كبير العدد ، وبمؤسسة اكليريكية كبيرة ، وأساطيل عظيمة وجيوش ضخمة ، تلك التى ، فى زمن السلم ، لاتنتج شيئا بعوض ماينفق على الاحتفاظ بها ، حتى ولو كانت الحرب قائمة . فمثل أولئك الناس ، الذين لاينتجون شيئا ، يعيشون بما ينتجه عمل أناس آخرين . واذا ضوعفوا الى عدد غير ضرورى ، فانهم فى سنة معينة يستهلكون جزءا عظيما من هذا الانتاج غير تاركين مايكفى للاحتفاظ بالعمال المنتجين » .

ولسوء الحظ ، أن المستعمرات الامريكية لم تلق بالا كذلك الى النصائح السليمة عن عمل العبيد .

«أعتقد ان تجارب جميع العصور وكافة الامم ، تبرهن على ان العمل الذى يقوم به العبيد ، رغم انه يبدو انه لايكلفهم سوى نفقات الاحتفاظ بأولئك العبيد ، فهو فى النهاية أغلى عمل . فالشخص الذى لايمكنه اكتساب اية ممتلكات لايمكنه الحصول على أية منافع الا ان يأكل أكثر مايستطيع ، ويعمل أقل مايمكن . فأى عمل يقوم به أكثر مما يكفي لشراء مايلزم لحياته ، لايمكن اعتصاره منه لا بالعنف ليس غير ، لا بمحض ارادته واختياره» .

بعد ذلك انتقل سميث من قضايا العمل الى الدفاع عن اصلاح قضايا الارض . وهنا أيضا يرى ان اللوائح الحكومية غير الحكيمة ، والقوانين غير الملائمة ، تقف فى طريق التقدم . فمعظم الاراضى البريطانية فى القرن الثامن عشر ، كانت خاضعة للوصاية. بوسع مالك الارض أن يصدر قواعد لتقسيم ارضه وبيعها ، يلتزم بها ورثته لعدة قرون بعد موته . ومن العادات القديمة الاخرى ، حق الابن الاكبر فى جميع الميراث عن والديه . وهذه عادة اقطاعية تمنع تفتيت الملكيات الكبيرة . فبهذا القانون يكون الابن الاكبر هو الوارث الوحيد . وقد علق سميث على هذا بقوله : «لاشىء يمكن أن يضر بصالح اية أسرة كبيرة ، الا ذلك الحق ، الذى لكى يغنى فردا واحدا منها ، يسوق بقية الاولاد الى فقر يودى بهم الى مد أيديهم للسؤال» . وعلى هذا ، حث بالحاح على حرية الاتجار فى الاراضى بالغاء قوانين التوصية وقانون حق الابن الاكبر فى الميراث ، وغير هذه من قيود نقل ملكية الاراضى بالهبة أو بالوصية أو بالبيع .

تتناول فقرة شهيرة من كتاب «ثروة الامم» ، المستعمرات ، ويؤكد مصدر حجة ، أن هذه «لاتزال أفضل ملخص لسياسة المستعمرات ، كتب حتي ذلك الوقت» . وتنقسم مناقشة هذه القضية الى ثلاثة أقسام : (١) «دوافع اقامة مستعمرات جديدة»:

استعرض فيها المشروعات الاستعمارية لكل من اليونان وروما وافينيسيا والبرتغال واسبانيا . (٢) «أسباب رخاء المستعمرات الجديدة» ، ذكر تلك العوامل ، مثل الاراضي الواسعة والرخيصة، والاجور العالية ، ونمو السكان السريع ،والمام المستعمرين بالزراعة والفنون الاخرى . (ويقارن بين السياسات الاستعمارية المستنيرة لانجلترا ، وبين السياسات الاستعمارية الضيقة والمقيدة لكل من البرتغال واسبانيا .. (٣) «عن الميزات التى حصلت عليها أوروبا من اكتشاف أمريكا ، ومن طريق الوصول الى جزر الهند الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح» . وهذان اكتشافان يقول عنهما سميث : «انهما أعظم وأهم اكتشافين سجلهما تاريخ البشرية» .

هاجم سميث القيود الموضوعة على المستعمرات لاحتكار تجارتها فقال انها اعتداء على «الحقوق الطبيعية» لتلك المستعمرات كان النظام التجارى فى المستعمرات سخيفا وباهظ النفقات ، شأنه شأن النظام المستعمل فى الدولة المستعمرة نفسها . كذلك كان هناك استنزاف مالى للقوة المستعمرة ، لان المستعمرات لن ترضى بمحض اختيارها ، أن تفرض على نفسها ضرائب تكفى نفقات الدفاع عن نفسها .

استطاع سميث ان ينظر الى المستعمرات الامريكية المتمردة بموضوعية اكثر من نظرة معظم مواطنيه . اعتقد ان الحل المناسب لهذه القضية هو تمثيل تلك المستعمرات الامريكية فى البرلمان البريطانى ــ الاتحاد بدلا من الانفصال ، بتمثيل مبنى على الدخول الضريبية . واذا انتهى الامر ، كما يمكن أن ينتهى ، بأن يزيد الامريكيون فى الضريبة البريطانية ، فانه من الممكن نقل تلك الاموال عبر الاطلنطى «الى جزء الامبراطورية الذى أسهم أكثر من غيره فى الدفاع العام وتأييد الكل» . قد يكون هذا ردا على تأكيد توم بين بانه من السخافة الاعتقاد ان بوسع جزيرة أن تستعمر قارة استعمارا دائما » . اذ عندئذ يجب أن تنعكس الاوضاع .

اكد سميث على ضرورة استقلال المستعمرات الامريكية اذا لم يكن تسوية الخلافات سلميا بينهـا وبين انجـلترا ، ولو انـه اعترف بالواقع ، فقال : «ان الاقتراح بأن تتنازل بريطانيا العظمى عن كل سلطة لها على مستعمراتها ، وتتركهـا تنتخب حـكامها وتشرع قوانينها ، وتصنع السلم أو تعلن الحرب كما يتراءى لها الاصلح لنفسها ، يعنى اقتراح نظام لم يحدث قط من قبل ، ولن تتخذه اية امة فى العالم ... فما اصعب مايصير حكمها ، وماأقل الدخل الذى تدفعه بالنسبة الى النفقات التى انفقت عليها ! » .

يتجلى رأى سـميث النير وبصيرته الثاقبة فى هذه الفقـرة التى يتنبأ فيها بمستقبل امريكا :

« لقد تحول أهالى المستعمرات الامريكية ، من بائعين وتجار وقضاة الى سياسيين ومشرعين ، اسـتخدموا فى تكوين صـورة جديدة من الحكومة الامبراطورية واسعة ، معللين انفسـهم بانهـا ستصير أعظم وأقوى امبراطورية شهدها العالم ، ومن المتوقع ان يحدث هذا » .

ان اشهر قسم ، وهو بيت القصيد ، فى كتاب «ثروة الامم»، هو الجزء الرابع وعنوانه «عن انظمة الاقتصاد السياسى» . تناول فيه سميث نظامين مختلفين : نظام التجارة ونظام الزراعة ، وشغل موضوع التجارة مكانا يبلغ ثمانى مرات ماشغله الكلام عن الزراعة. فتناول مبادىء «حرية العمل» التى اقترنت باسـمه منذ ذلك الوقت . وقد انتهت المناقشة الخاصة بكل من العمـل والاراضى والسلع والنقود والاسعار والزراعة والماشية والضرائب الى نقطة واحدة هى حرية التجارة داخليا وخارجيا . لن تحصـل الامـة على التقدم الكامل والرخاء الا عن طريق التجارة غير المقيدة ، فى الداخل وفى الخارج .. ناشد سميث الامم الغاء الرسوم الجمركية والتبرعات والتحريم من النظام التجارى ، والاحتكارات التجارية

للشركات المتعهدة . فكل هذه القيود تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع الى المستهلكين . كما تترك المبدأ الزائف ، مبدأ «التوازن التجارى» الذى يحبذه التجار . ليست النقود سوى أداة «وليس هناك مقياس يمكننا بواسطته معرفة على أى جانب يقع مايسمى بالتوازن التجارى بين دولتين أو أى منهما تصدر بأكبر قيمة .. ليست الثروة فى النقود ولا فى الذهب ولا فى الفضة ، وانما فيما تشتريه النقود ويستحق الشراء فعلا» .

وتقسيم العمل ضرورى ومنطقى بين الامم كما هو بين الافراد .

« الميزات الطبيعية لدولة على اخرى فى انتاج سلع بعينها ، عظيمة فى بعض الاحيان ، لدرجة ان العالم كله يعلن أية من العبث منافستها فى تلك السلع . فبواسطة الاقبية الزجاجية والاحواض والحوائط الدافئة يمكن انتاج أنواع من العنب بالغة الجودة فى اسكتلندة . وكذلك يمكن صنع نبيذ جيد جدا منها بنفقات تبلغ ثلاثين ضعفا ،على الاقل ، لما يمكن جلبه من الدول الاجنبية ويكون مماثلا له فى الجودة . فهل يكون من المعقول اصدار قانون يحرم استيراد جميع الانبذة الاجنبية لمجرد تشجيع صنع النوعين المعروفين بالكلاريت Claret والبرجندى Burgundy فى اسكتلنده ؟ »

لخص سميث الميزات الاقتصادية للتجارة الحرة فى هذه الحقائق :

« شعار كل رب اسرة حازم الا يحاول ان يصنع فى منزله مايكلفه صنعه أكثر مما يدفع فى شرائه ... وماهو حزم فى مسلك كل اسرة قلما يكون غباء فى مملكة عظمى . فاذا كان بوسع دولة أجنبية أن تورد لنا سلعة بأرخص مما يكلفنا صنعها بأنفسنا ،

فمن الخير ان نشتريها منها نظير نوع ما من منتجات صناعتنا ، مستخدمة بطريقة تحقق لنا بعض الميزات » .

اكد سميث المنافع المتبادلة من التجارة الاجنبية بقوله :

« اذا تمت تجارة أجنبية بين أى مكانين ، حصل كل منهما على فائدتين واضحتين . تأخذ تلك التجارة فائض انتاج أرض وعمل كل منهما الذى ليس له طلب فيهما ، وتجلب بدلا منه شيئا له طلب ... وبهذا التبادل لايعوق ضيق السوق المحلية تقسيم العمل فى أى فرع بعينه من الفنون أو الصناعة أن يسير الى أعلى درجات الكمال . واذا مافتحت دولة ما سوقا أوسع لأى جزء من انتاج عملها يفيض عن الاستهلاك المحلى فيها ، فانها تشجع بذلك قوتها الانتاجية وتحسنها وتزيد فى انتاجها السنوى الى أقصى حد ، وبذا تزيد فى الدخل الحقيقى والثروة الحقيقية للمجتمع» .

يتضح ان سميث كان عقيديا محضا فى تأكيده على حرية التجارة مع بعض استثناءات أو تحديدات معينة رغب فى ابدائها لتطبيق هذا المبدأ ، فاشار فى بضع حالات بقوله : «ومن المفيد عموما القاء بعض الاعباء على الصناعة الاجنبية لتشجيع الصناعة المحلية . وأول تلك الاعباء ، هو عندما يلزم نوع معين من الصناعة للدفاع عن الدولة «حتى ولو لم يكن تحقيق ذلك لاسباب اقتصادية محضة ، لان «الدفاع أهم بكثير من الرخاء» . ولما كان سميث يعيش فى دولة محاربة ، فقد سلم بأن الامم الغنية التى من المفيد لنا ان نتبادل معها التجارة فى وقت السلم تغدو أعداء اشد خطرا فى وقت الحرب من الدول الفقيرة . كما وافق على ان اصدار تعريفة جمركية وقائية على «الصناعات الناشئة» يساعدها على النمو بسرعة اكثر ، ربما الى درجة تسمح بامكان الدفاع عنها اقتصاديا . وزيادة على ذلك ، أوصى سميث بأن كل تخفيض فى التعريفة الجمركية يجب أن يتم «ببطء وتدريجيا وبعد تحذير

طويل جدا» . وذلك لحماية الاستثمارات النباتية فى الصناعة غير القادرة على الصمود امام المنافسة الاجنبية ، ولتزويد العمال بمهنة يبحثون فيها عن أعمال جديدة . كانت هذه اعترافات راقعية لمجادلات خصوم التجارة الحرة .

اذا رفعت الحكومة أيديها عن الاعمال والصناعة والزراعة ومعظم الانشطة اليومية للامة ، كما قال سميث ، فما الذى يعتبره وظائف مناسبة للحكومة؟ سيكون نطاق المسئولية ضيقا . فالوظيفة الاساسية الحكومة تقتصر على صد الهجوم الاجنبى واقامة العدل، وكذلك يرغب سميث فى أن تقوم الحكومة «بتشييد وصيانة انواع معينة من الاشغال العامة ، وبعض المؤسسات العامة ، التى لايمكن اطلاقا أن تكون لصالح أى فرد أو لصالح عدد بسيط من الافراد تشدها وتصونها ، لان الفائدة لأى فرد أو لعدد بسيط من الافراد، لايمكن أن تعوض نفقاتها ، ولو أنها كثيرا ماتفيد المجتمع الكبير بأكثر من نفقاتها» . وقد ذكر سميث فى القائمة البسيطة التى حددها لوظائف الحكومة ، صيانة الطرق الرئيسية واضاءة شوارع المدن ، وامداد الاهالى بالماء . وهكذا راى آدم سميث عذرا بسيطا لبقاء ماأطلق عليه «الحيوان المراوغ المكار الذى يحمل اسما مبتذلا نسميه : السياسى» خارج المحافظة على الامن الخارجى والنظام الداخلى .

كان سميث فى أحد استثناءاته سابقا كثيرا لعصره ــ اسهام الحكومة فى تعليم الشعب ، ويعلق فى تدعيم حجته بخصوص التعليم الشعبى ، بقوله :

. « الرجل الذى لاينتفع الانتفاع المناسب بالمواهب العقلية للانسان ، يستحق الازدراء ، ان أمكن ، أكثر من ازدرائنا للجبان، ويبدو مشوها فى عضو رئيسى من أعضاء أخلاق الطبيعة البشرية . ورغم أن الحكومة لاتجنى فائدة من تعليم الطبقات الدنيا من

الشعب ، فمما يستحق اهتمامها الا يكونوا غير متعلمين تماما . ومع ذلك ، فلاتجنى الحكومة فائدة كبيرة من تعليمهم . فكلما كانوا متعلمين ، كانوا أقل عرضة للانسياق فى تيار الخزعبلات والخرافات التى تسبب أفظع حالات الاخلال بالنظام بين الامم الجاهلة . وزيادة على ذلك ، فان الشعب المتعلم الذكى أكثر احتشاما ونظاما من الشعب الجاهل الغبى . يشعر كل فرد منهم بأنه محترم وبأنه جدير باحترام رؤسائه الشرعيين . وعلى ذلك ، يكون أكثر استعدادا لان يحترم أولئك الرؤساء .. وفى الدول الحرة ، حيث يتوقف أمن الحكومة كثيرا جدا على الحكم الذى يكونه الشعب على مسلك هذه الحكومة . ولهذا يكون من المهم جدا الا يكون الشعب ميالا الى الحكم عليها بتهور أو بتعصب» .

ان تقدير آدم سميث وكتابه غير المتحيز وغير المحابى ، معقد، حتى بعد مرور حوالى مائتى عام . فمثلا ، هناك نظرة باكل Buckle فى كتابه « تاريخ المدنية » اذ يقول : « ربما كان كتاب ثروة الامم ... أهم كتاب وضع ، سواء اعتبرنا مايضمه من كمية الفكر الاصلى ، أو نفوذه العملى » . ويقول ماكس ليرنر Max Lerner ، ولو أنه كان أقل ميلا الى سميث : « ربما فعل كتاب ثروة الامم مثل مافعله اى كتاب حديث فى تشكيل منظر الحياة كله كما نعيشها اليوم» . أبدى ليرنر ملاحظته ببصيرة ، فقال : «من قرءوا ذلك الكتاب هم الذين أرادوا الافادة من نظرته الى العالم ـ الطبقة الثائرة من رجال الاعمال ولجانهم التنفيذية السياسية فى برلمانات العالم ، ولجانهم التنفيذية الذهنية فى الاكاديميات . وعن طريق هؤلاء استطاعت تلك الطبقة أن يكون لها نفوذ ضخم على سكان العالم الآخرين ، رغم أنهم عموما ، لم يكونوا معروفين لهم ، وعن طريقهم أيضا كان لهم نفوذ عظيم على الآراء الاقتصادية والسياسة القومية » .

أيد حكم هذين الحجتين ، العالم الاقتصـــادى الانجليزى الشـــهير ج.أ.ر. ماريوت J.A.R. Marriott ، الذى ابـدى ملاحظتـه قائلا . « ربما لايوجـد اى مؤلف فى اللغة كان له ، فى عصره ، مثل ذاك الاثر العميق على كل من الفكر العلمى الاقتصادى وعلى العمل الادارى ، على حد سواء . وهناك أسباب قوية فى انه لايزال له هذا الاثر » . واضاف عالم اقتصادى آخر هو و.و. ســـكوت W.R. Scott « كان سميث ، من الناحيـة الذهنية ، استاذا فى رؤية الحياة الاقتصادية باستمرار وككل» .

ومن ناحية اخرى ، وجد كثير من المفكرين الاحرار المتطرفين ، انه من الصعب عليهم أن يغتفروا لسميث تماديه فى مبدأ «حرية العمل» الذى مارسه رجال الاعمال ورجال الصناعة الذين اعتبروا مؤلف سميث انجيلهم . هذا ، وان المذاهب التى دافع عنهاالحماية العامل والمزارع والمستهلك والمجتمع عموما قـد حـرفها أناس عديمو المبدأ مغرضون ، الى قذف دنىء لا ضابط له من أجـل نفوسهم ، تحت سمع الحكومة وبصرها دون أن تتدخل .

كذلك هناك الجدل القديم عن أيهما أسبق ، أهو الكتكوت ام البيضة . هل كان لمبادىء سـميث أن تتسع فى نمو التجـارة والصناعة لو أنه لم يكتب كلمة واحـدة ، أو هـل كان لكتـابه « ثروة الأمم » أن يحـدث تلك التغيرات الواســعة التى تلت نشره ، مقدما فلسفة وخطة للحركة الجديدة ؟ ربما كانت الحقيقة فى موضع ما بمنتصف الطريق .

وانا لنعترف بأن آدم سميث اختار العصر الصحيح لميلاده فوقف فى منتصف الطريق بين حقبتين تاريخيتين . نادى بالحرية الاقتصادية الجديدة فأصغى اليه عالم متقبل ، وأفاد من مبادئه للحصول على تحول اقتصادى عظيم . وفى أثناء الانقلاب الصناعى ، أدرك رجال الأعمال البريطانيين سلامة مذاهب سميث ، فنبذوا

القيود والامتيازات التجــارية . وفى القرن التاســع عشر أبرزت هذه المذاهب بريطانيا الى العالم كأغنى أمة . وقلما كانت آراء سميث أقل تأثيرا على كبرى الدول التجارية الأخرى . وقليلون هم الذين ينكرون أن آدم سميث يستحق بجدارة لقب « أبو علم الاقتصاد الحديث » .

٤ ــ أفواه كثيرة

توماس مالثوس THOMAS MALTHUS

مقال عن : مبدأ السكان

مما اثار المتعة المحبوبة فى أواخر القرن الثامن عشر ، خيالات الحالمين وقتذاك . فقد أوحت المثالية المقترنة بالحركات الثورية فى امريكا وفرنسا ، الى الخياليين بأن يستنتجوا أن كمال الانسان قد لاح فوق الأفق ، واقترب خلق جنة أرضية .

ومن بين أولئك الحالمين اثنان ، أحدهما وليم جودوين illiam Godwin فى انجلترا ، والماركيز دى كوندورسيه Marquis de Condorcet بفرنسا . وكان لهذين أتباع بالغو الاخلاص ، نادوا بعدد كبير من الأمانى والخيالات لانبثاق يوم جديد . وقد ذكر جودوين فى كتابه « العدل السياسى » آراء نموذجية بالمتفائلين الراسخين فى التفاؤل ، مؤداها انه « سيأتى يوم نكون فيه ممتلئين بالحيوية فلا نحتاج الى أن ننام، ومفعمين بالحياة فلا نحتاج الى أن نموت ، ويتغلب تأكيد تنمية

القوى الذهنية على الحاجة الى الزواج . وبالاختصار ، يغدو الناس كالملائكة » . تغنى بأنه يتوقع أن « تتمشى تحسينات أخرى مع تحسن الصحة وطول العمر . لن تكون هناك حروب ولا جرائم ولا اقامة عدل ، كما يسمونها ، ولا حكومة . وعلاوة على هذا ، لن تكون هناك أمراض ولا آلام ولا أحزان ولا غيظ . سيسعى كل انسان بحماس شديد الى خير الجميع » .

كتب جودوين لازالة الخوف من مواجهة عدد كبير جدا من السكان مع وجود كميات قليلة جدا من الطعام ، كتب يقول : « قد تمر بلايين القرون ذوات عدد السكان المتزايد باطراد ، والأرض دائبة على اعطاء الطعام الكافى لحياة سكانها » . وأخيرا ، فكر فى أن النزوة الجنسية قد تضمحل ، كما اقترح كوندورسيه انها قد تتم بغير نسبة عالية من التكاثر .

اغرت هذه الفقاقيع الجميلة بوخزها ، فأعد الابرة شاب اكليريكى سليط اللسان اسمه توماس روبرت مالثوس ، يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، كان زميل كلية يسوع بكامبريدج . كان رده على أنصار الكمال الاجتماعى أن أصدر « مقالا عن مبدأ السكان » فى سنة ١٧٩٨ ، صار احد الكتب الكلاسيكية العظمى فى الاقتصاد السياسى .

عاصر مالثوس آدم سميث وتوماس بين ولو انه يصغرهما كثيرا . وهو ثانى أبناء دانيل مالثوس ، الرجل الريفى الميسور الحال وصديق روسو Rousseau ومدير مزرعته ، وكان من أشد المعجبين بجودوين . وكان الأب والابن مولعين بالجدال . فكان توماس يهاجم الآراء الخيالية ، بينما يدافع عنها دانيل . واخيرا ، قرر توماس ، تلبية لرغبة والده الملحة ، أن يبين آراءه كتابه ، فكانت النتيجة ذلك المقال ، وهو كتاب أحدث أثرا عميقا خلال ال ١٥٦ سنة الماضية على الفكر البشرى والحياة البشرية ،

وربما لم يكن هذا الأثر واضحا فى أى عصر أكثر مما هو فى العصر الحاضر . وما عمله آدم سميث قبل ذلك باثنتين وعشرين سنة فى استفساره عن طبيعة وأسباب الثروة ، أكمله مالثوس بتحليل فاحص عن طبيعة وأسباب الفقر .

كان «مقال عن مبدأ السكان » وأثره على تحسين المجتمع فى المستقبل ، مع ملاحظاته عن آمال المستر جودوين والمركيز دى كوندورسيه وغيرهما من الكتاب الذين نشروا آراءهم دون ذكر أسمائهم ، كان أكثر قليلا من كتيب (٥٠٠٠٠ كلمة) فى طبعة سنة ١٧٩٨ ، ومن الجلى أنه طبع منه عددا قليلا من النسخ ، لأن النسخ الموجودة الآن من تلك الطبعة نادرة جدا . وقال المؤلف بعد ذلك : « وضعت هذا الكتيب بناء على حافز ذلك الوقت ، وبالمواد القليلة التى كانت فى متناول يدى فى مركز ريفى » . لم تكن فكرة ذلك المقال جديدة ، لأن كثيرين من كتاب القرن الثامن عشر ، ومنهم بنيامين فرانكلين ، قد ناقشوا مسألة زيادة السكان ، ولكن ما من أحد منهم قدمها بمثل تلك القوة ولا بمثل هذا الحماس ولايمثل هذه البصيرة الواضحة ، كما فعل مالثوس.

ذكر مالثوس فرضين أساسيين فى بداية ذلك المقال :

أولا : الطعام ضرورى لحياة الانسان ، وثانيا : الغريزه الجنسية ضرورية بين الجنسين ، وستظل فى حالتها الراهنة تقريبا .

لم يفكر الخياليون أنفسهم فى أن الانسان قد يستطيع ، فى النهاية ، أن يعيش بغير طعام .

ولكن المستر جودوين أعلن تخمينه بأن الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ستخمد فى الوقت المناسب .. وتكونت خير

المجادلات عن كمال الانسان ، من التأمل فى التقدم الذى أحرزه حتى الآن منذ حالته الوحشية .. ولم يحدث أى تقدم نحو خمود الفريزة الجنسيه بين الذكر والأنثى ، ويبدو انها لاتزال الآن بنفس القوة التى كانت عليها منذ الفى سنة أو أربعة آلاف سنة خلت .

واذ افترض مالثوس أن « رسالاته » لم تكن قابلة للنقض، أخذ يضع مبدأه الشهير :

« .. ان قوة الانسان أعظم أكيدا من القوة التى فى الأرض لانتاج المادة للانسان . واذا لم يوقف نمو عدد السكان ، فانهم سيزيدون بمتوالية هندسية ، بينما تزيد خيرات الارض بمتواليه حسابية ليس غير . وان الالمام البسيط بالأرقام ليبين ضخامة القوة الاولى بالنسبة الى الثانية » .

نمق مالثوس اقتراحه افضل من ذلك ، فابرز قضيته بهذه الطريقة :

« بين المملكتين الحيوانية والنباتية ، نثرت الطبيعه بذور الحياة الى الخارج بيد سخية جدا ، وفى حرية . كانت تقتصد فى المكان والغذاء اللازم لتغذيتهما . فينكمش جنس النبات وجنس الحيوان تبعا لهذا القانون المقيد العظيم ، ولا يستطيع جنس الانسان ، مهما كانت قوة الأسباب ، أن يفلت منه . كانت آثاره بين النباتات والحيوانات ضياع البذور والمرض والموت قبل الأوان . أما بين الجنس البشرى فالبؤس والرذيلة » .

وفى تقدير مالثوس ، وضعت هذه الحقائق الصعبه والواقعية ، عقبات لا يمكن تخطيها فى طريق كمال المجتمع .. وما من اصلاح ممكن استطاع ازالة ضغط القوانين الطبيعية ، تلك العقبات التى تمنع « وجود مجتمع ، يعيش كل أعضائه فى

رخاء وسعادة وراحة نسبية ، ولا يشعرون بأى اهتمام نحو تزويد أنفسهم وعائلاتهم بوسائل الحياة » .

اختار مالثوس لتوضيح عمل متواليته الهندسية زيادة عدد السكان فى الولايات المتحدة « حيث وسائل الحياة أكثر ملاءمة ، فان اخلاق الناس اكثر نقاء » وبالتالى ، يقل تقييد الزواج المبكر » .. وجد مالثوس أن عدد السكان ، باستثناء الهجرة ، قد تضاعف فى مدة ٢٥ سنة . فاستنتج من هذا البرهان انه حيث لا توضع قيود على الطبيعة ، وحيث لا يوجد تحديد للنسل ولا توازن ، يتضاعف عدد سكان الدولة فى كل جيل . غير أن النقاد لفتوا النظر الى وجود عيوب فى قاعدة مالثوس لأن الظروف التى كانت سائدة فى الولايات المتحدة ابان الحقبة التى ذكرها مالثوس ، لم تكن نموذجية لأية حقبة اخرى فى التاريخ الأمريكى، ولا فى تاريخ اية امة اخرى .

استخدم مالثوس مقياسه عن زيادة عددالسكان فى انجلترا، اى أن عددهم يتضاعف كل ٢٥ سنة ، ثم عرج على مسألة الغذاء ، فاستنتج أنه « باستخدام أحسن سياسية محكمة ، اى بزيادة رفعة الأرض وبتشجيع الزراعة ، يمكن مضاعفة انتاج تلك الارض فى الخمس والعشرين سنة الأولى » .

بعد ذلك تبدأ المتاعب تتراكم فىالجيل الثانى بينما يتضاعف عدد السكان مرة أخرى ، أى يصير أربعة اضعاف ما كان عليه أولا بعد مضى خمسين سنة ، « ومن المستحيل افتراض أنالانتاج يمكن أن يصل الى أربعة أضعاف ما كان عليه أولا . » فخير ما يمكن أن نأمل فيه هو زيادة موارد الغذاء الى ثلاثة اضعاف ما كان عليه من قبل . وبالتعبير بالاعداد ، يكون قانون مالثوس لعدد السكان هو : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، .. والغذاء : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، .. الخ .

والنتيجة المنطقية لبحث مالثوس هو وجوب ايجاد وسيلة مستمرة لايقاف ازدياد عدد السكان وأخطر الوسائل جميعا هو قلة الغذاء . ومجموعة « الوسائل المباشرة » تقع فى مجموعة « ايجابية » ، وتشمل المساكن غير الصحيحة ، والعمل الشاق ، والفقر الشديد ، والأمراض ، وسوء تربية الأطفال ، والمدن العظمى ، والأوبئة والقحط . ومجموعة « مانعة » وهى : الكبت الأخلاقى والرذيلة .

تبعت ذلك بنتائج عملية حتمية معينة ، فى نظر مالثوس . فاذا كان للمخلوقات البشرية ان يتمتعوا بأعظم سعادة ممكنة ، وجب عليهم عدم القيام بالالتزامات العائلية الا اذا كان بوسعهم أن يكولوا عائلاتهم . أما من ليس لديهم موارد كافية ليعولوا أسرة ، فيجب عليهم عدم الزواج اطلاقا والتزام العزوبة . وعلاوة على هذه ، السياسة الشعبية كقوانين الفقراء التى يجب ان تمنع تشجيع طبقة العمال ومن اليهم على انجاب اطفال لا يمكنهم أن يكلفوهم .

« فالرجل الذى جاء الى العالم ولا يستطيع الحصول على القوت من والديه ، اللذين له عليهما حق عادل ، اذا لم يرغب المجتمع فى عمله ، فليس له حق فى اقل جزء من الطعام ، وليس له ، فى الحقيقة ، عمل حيث يكون » .

كتب هذا ردا على مقال بين بعنوان «حقوق الانسان » .

ليست الصدقة ، سواء أكانت خاصة ام حكومية ، مطلوبة ، لأنها تعطى نقودا للفقراء دون زيادة كمية الطعام الموجودة ، وبذا ترفع الأسعار وتخلق النقص فى المواد . كذلك خطة الاسكان الشعبى ممنوعة لأنها تحث على الزواج المبكر ، وبالتالى زيادة عدد السكان . ولارتفاع الأجور نفس الأثر الضار . وعلى هذا

تكون الوسيلة الوحيدة للفرار من هذه المعضلة المعقدة ، هى الزواج المتأخر مع « الكبت الأخلاقى » ، اى ضبط النفس عن الشهوات .

الواقع ، فى نظر مالثوس ، ان اى مشروع لتحسين المجتمع وتخفيف انتشار الفقر ، عرضة لأن ينتهى بزيادة المساوىء التى سعى الى علاجها . وهذا المسلك المتعنت المعادى للمجتمع من جانب ذلك الشاب الاكليريكى ، قد غير وجهات نظر علماء الاجتماع فى جيله والأجيال التالية . ومع ذلك ، تقبل الأغنياء ، فى عصر مالثوس ، والطبقات القابضة على زمام السلطة ، مذاهبه فى حماس . اذا يقع اللوم ، فيما يختص بالفقر الواسع النطاق والمساوىء الاجتماعية الأخرى ، على الزواج المبكر وكثرة النسل بدلا من وقوعه على سوء توزيع الثروة .

يمكن توضيح مسلك مالثوس نحو برامج المعونة الحكومية ، فى هذه الفقرة المأخوذة عنه :

« تميل القوانين الانجليزية الخاصة بالفقراء الى زيادة سوء الحالة العامة للفقراء ، بهاتين الطريقتين : الأولى تميل الى زيادة عدد السكان دون زيادة كميات الطعام اللازم لهم . قد يتزوج الرجل الفقير دون ان يدرك أنه غير قادر على أن يعول أسرته معتمدا على نفسه فحسب . وعندئذ يمكن القول بطريقة ما ان الحكومة تخلق الفقراء الذين تعولهم . ولما كان يجب ، فى حالة زيادة عدد السكان ، ان توزع موارد الدولة على كل فرد بنسب صغيرة ، فمن الجلى أن عمل أولئك الذين لا تعولهم معونات الابروشية ، يشترى كمية من الأغذية أقل مما سبق . وهذا يسوق الكثيرين منهم الى طلب المعونة . والثانية ، تنص على أن كمية الأغذية المستهلكة فى الملاجىء على فئة من المجتمع لا يمكن اعتبارها عموما الفئة القيمة ، تنقص من انصبة الأعضاء الأكثر

قيمة . وهكذا ، بنفس هـذه الطريقة يجبر عدد آخر على التواكل » .

يختم مالثوس مقاله بملخص لآرائه :

« ينطبق نفس الشيء على ظروف أخرى . يمكن التأكيد بأن كثرة عدد السكان فى امة يتناسب مع كمية غذاء الانسان التى تنتجها أو التى يمكنها الحصول عليها ، وتكون سعيدة تبعا للحرية التى يوزع بها هذا الطعام ،او الكمية التى يمكن ان يشتريها عمل يوم واحد . والدول المنتجة للقمح أكثر سكانا من الدول ذوات المراعى . بيد أن سعادتها لا تتوقف على كثرة أو قلة عدد سكانها ، ولا على فقرها أو غناها ، ولا على شبابها أو شيخوختها ، وانما على النسبة بين عدد السكان وكميات الطعام .

أثار ظهور مقال مالثوس عاصفة من النقد والاحتجاج والطعن ، ولا سيما من مصدرين ، هما : المحافظون اللاهوتيون والمتطرفون الاجتماعيون . ويقول أهم كاتب لتاريخ حياته ، وهو بونار Bonar : « أمطر ذلك المقال الافتراءات لمدة ثلاثين عاما . » كان مالثوس أكثر رجل مذموم فى عصره ، ووصف بانه « رجل دافع عن الجدرى والرق وقتل الأطفال ، وهاجم المطاعم الشعبية والزواج المبكر ومعونات الأبروشيات ، ذلك الذى بلغت به الوقاحة أن يتزوج بعد أن وعظ عن مساوىء الأسرة ، الذى ظن أن حكم العالم سيىء ، وأن خير الوسائل يأتى بأسوأ النتائج وأكثرها ضررا ، وبالاختصار ، هو الذى سلب الحياة كل مباهجها » .

نبذ عدد قليل من النقاد جميع مبادىء مالثوس باستخفاف فهذا هازايت Hazlitt « لم يجد ما يكتشفه بعد أن قرأ قوائم سلالة نوح Noah ،بعد أن عرف أن الدنيا مستديرة » .

أما ملاحظة كـولـيريدج Coleridge فتقـــول : « أنحن الآن بحاجة الى كتب ليعلمنـا أن البـؤس العظيم والرذيلة العظمى ينتجـان عن الفقر ، وانه يجب أن يكون هناك فقر فى أبشـع صـوره حيثما يكون هنـاك أفواه أكثر من الأرغفة ، ورءوس أكثر من الأمخاخ؟» .

أما المعاقون الآخـرون فكانوا أكثر اقذاعا فقـد كتب وليم تومبسون William Thompson رائد الاشتراكية الانجليزية فى أول عهدها ، يقول :

« لا توجه اهانة الى الفقـراء أولئك الغـالبية العظمى من البشر ، بالافتراءات البراقة ، أنه بواسطة عدد السكان المحدد، أو بعدم تناول البطاطس تكون سعادتهم فى أيديهم ، بينما الأسباب باقية ، تلك التى تجعل من المستحيل عليهم ، أخلاقيا وبدنيا ، أن يعيشوا بغير البطاطس والنسل الذى لا طعام له . »

وجاء تعبير عنيف آخر من وليم كوبيت William Cobbett « كيف يستطيع مالثوس وأتباعه المعفنون الأغبياء ، كيف يستطيع أولئك الذين يريدون نبذ الطبقات الفقيرة ، ومنع الفقراء الزواج، كيف تستطيع تلك الفئة الغبية المغرورة أن تنظر فى وجـه الرجل الكادح وهم ، فى الوقت نفسه ، يطلبون منه أن يحمـل السـلاح ويخاطر بحياته للدفاع عن الوطن ؟ » .

تصـادف أن كان كوبيت هـو الذى نابز مالثـوس بلقب « قسيس » . وقد تحدث كوبيت الى أحد المزارعين ، فقال :

« كم طفلا تريد أن تنجب ؟ »

أجاب المزارع : « لا يهمنى العدد ، فالله لا يرسل أفواها دون أن يرسل لحما » .

قال كوبيت : «ألم تسمع قط عن قسيس اسمه مالثوس؟»

« لم أسمع عنه ، يا سيدى . »

« لو سمع قولك هذا ، لثارت ثائرته ، لأنه يريد من البرلمان أن يصدر قانونا يحرم على الفقراء أن يتزوجوا فى سن مبكرة ، كما يحرم عليهم انجاب عدد كبير من الأطفال » .

دهشت الزوجة قائلة : « يا له من وحش ! » بينما ضحك زوجها وظننى أمزح .

عندما ظهر المذهب المالثوسى لأول مرة ، قام ضده اعتراض يقول انه لا ينطبق وكون الخالق خيرا . واتهم مالثوس باصدار كتاب يتنافى مع تعاليم الدين . وهذا اتهام محطم ضد كاهن كنيسة معترف بها . وبسبب هذا النقد اكد مالثوس فى الطبعة الثانية لمقاله ، على « الكبت الأخلاقى » بصفته وسيلة تحتفظ بعدد السكان داخل النطاق المحدد ، بينما حذف البؤس والرذيلة ، وبذا أزال « كل سوء ظن عن مراحم الرب » .

وفى برنامج تخليد الذكرى المئوية لموت مالثوس اى فى سنة ١٩٣٥ ، قام بونار يدافع عنه ضد أولئك الذين اعتقد بونار أنهم اساءوا تمثيل مالثوس ، كما أساءوا قراءته وأساءوا ذكر مقتطفات من أقواله وأساءوا فهمه . كان مالثوس ، فى نظره ، ايجابيا وليس سلبيا فى تقديم مذهبه . وقرر بونار أن « رغبة قلب مالثوس للجنس البشرى » تتضمن :

١ ــ نسبة وفيات منخفضة للجميع .

٢ ــ مستوى معيشة مرتفعا للفقراء .

٣ ــ نهاية هلاك الأرواح البشرية صغيرة السن .

راى مالثوس بوضوح أن الأمم تمنع سرعة ارتفاع نسبة

المواليد كلما صارت هذه الأمم متحضرة وأكثر تعلما ، واكتسبت مستوى معيشة أعلى . ونتيجة لذلك صارت آراؤه عن مستقبل المجتمع الانسانى ، منفائلة ، تدريجيا . لاحظ مالثوس ، انه فى انجلترا نفسها « يجب أن يقنعنا أسرع نظرة سطحية عن المجتمع، بأن وسائل تحديد النسل بين جميع الطبقات ، تسير بدرجة كبيرة . » والواقع أنه تناول مختلف الطبقات الاجتماعية ــ السادة (الجنتلمان) والحرفيين والمزارعين والعمال وخدم المنازل ــ كل طبقة على انفراد بسبب اختلاف ظروفهم الاقتصادية فاعتقد أن اللهفة على الاحتفاظ بمركز اجتماعى معين ، تمنع الزواج السريع . فمثلا :

على الرجل ذى التعليم الحر والدخل الذى لا يكاد يكفى لتمكينه من مصاحبة طبقة السادة (الجنتلمان) ، أن يتأكد تماما ، انه اذا تزوج وانجب أسرة ، اضطر ، عند اختلاطه بالمجتمع، الى أن يخالط طبقة المزارعين المعتدلة وطبقة الحرفيين الاقل . أى يهبط درجتين أو ثلاث درجات فى سلم المجتمع ، وخصوصا عند هذا المستوى من السلم الذى ينتهى عنده التعليم ويبدأ الجهل ، لن يعتبره عامة الشعب عالما وخياليا وحشيا ، بل شرا حقيقيا وأساسيا .

وكما يمكن أن نستنتج من أقوال المعاصرين ، لم يهمل مالثوس أثناء حياته . فالأثر الذى أحدثته الطبعة الأولى من « المقال » ، جعل الحكومة الانجليزية تجرى تعدادا للسكان فى سنة ١٨٠١ ، وهو أول تعدادا حقق نتائج منذ مجيء الأرمادا Armada هذا ، وقد عورضت مقترحات التعداد السابقة على انها منافية لتعاليم الكتب المقدسة ومنافية للتقاليد الانجليزية وهناك نتيجة ثانية للمقال ، هى تعديل قانون الفقراء الحكومى اجتنابا لبعض أخطاء حددها مالثوس .

كانت وطأة الأفكار المالثوسية على العلوم الطبيعيــة بالغــة الشــدة كمــا كانت على العلوم الاجتماعيــة . وقد أعلن كل من تشــارلزداروين Charles Darwin والفــريد رســل والاس Alfred Russell Wallace في حرية ، أنهما مدينان لمالثوس فى تكوين نظرية النشوء بالاختيار الطبيعى . فكتب داروين يقول :

فى أكتوبر سنة ١٨٣٨ ، أى بعد مضى خمسة عشر شــهرا على أبحاثى المنظمة ، تصادف أن قرأت لغرض التســلية مقــال عدد السكان لمالثوس . واذ كنت على أتم استعداد لتقدير «تنازع البقاء » (عبارة استعملها مالثوس) الذى يحــدث فى كل مكان ، وقد شاهدته أثناء ملاحظاتى الطويلة للحيوانات والنباتات ، طرأ على بالى فى الحال ، أنه تحت هذه الظروف ، تميل بعض الأنواع الصالحة الى أن تبقى بينما تتلف غير الصالحة . وينتج عن هذا جنس جــديد . وأخيرا ، اســتوعبت نظرية يمــكن أن أعمــل بمقتضاها .

وفى اتجاه مشابه ، كتب والاس :

كان « المقــال » أول مؤلف قرأته ، حتى ذلك الوقت ، ويتناول أى مشكلة فى علم الأحياء الفلســفى ، وبقيت مبــادئه الرئيسية فى ذهنى كمعلومات مستديمة وبعد ذلك بعشرين سنة ، أمدتنى بالحل الذى طال بحثى عنه فيما يختص بعامل فعال فى نشوء الأجناس العضوية .

عندما خرجت طبعة سنة ١٧٩٨ لذلك «المقــال» ، قوبلت بالاحتجاجات الغاضبة من رجال الدين والمتمردين الاجتماعيين . ولكن مالثوس لم يهتم بكل ذلك ، بل أعجب بموضوعه وعقد العزم على أن يستمر فيه الى أبعد من ذلك . ولتقوية أدلته طاف بأوربا فى سنة ١٧٩٩ بحثا عن مادة لمؤلفه . «طــاف خــلال الســويد

والنرويج وفنلندة وجزء من روسيا ، وكانت هذه هى كل الدول المفتوحة أمام السياح الانجليز فى ذلك الوقت» . ثم قام بجولة اخرى فى فرنسا وسويسرا ابان فترة السلم القصيرة لسنة ١٨٠٢ . ونشر فى خلال هذه المدة كتيبا عنوانه «بحث أسباب ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى الوقت الحاضر» ، متخذا وجهة نظره أن الاسعار والارباح تقدر مبدئيا تبعا لما أسماه «الطلب الفعال» .

بعد مضى خمس سنوات من ظهور الطبعة الاولى «للمقال»، خرجت من المطبعة طبعة ثانية كبيرة جدا عبارة عن مجلد بحجم الكوارتو (ربع فرخ) يتكون من ٦١٠ صفحات . وكان ينقصهاحماس الطبعة الاولى وأسلوبها الطلى وتأكيدها الفتى ، وصارت على هيئة رسالة اقتصادية دراسية مثقلة بالمستندات والحواشى ، ولو أنها باستثناء تطور فكرة «الكبت الاخلاقى» فان المبادىء الأساسية لم تتغير . ظهرت أربع طبعات أخرى أثناء حياة ذلك المؤلف . وفى الطبعة الخامسة كان «المقال» عبارة عن خمسة أجزاء تبلغ فى مجموعها ١٠٠ صفحة . والمؤلف الكبير الوحيد الذى وضعه مالثوس بالاضافة الى «المقال» ، لانشغاله بتنقيح هذا الاخير ، كان عنوانه هو :

« مبادىء الاقتصاد السياسى من وجهة نظر تطبيقها» ، الذى نشر فى سنة ١٨٢٠ .

كانت حياة مالثوس الشخصية هادئة وآمنة نسبيا . كان حرا فى مزاولة دراساته الاقتصادية وكتاباته ، مع قليل من المسئوليات الاخرى حتى سنه عندما تزوج وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره . وفى السنة التالية عين أستاذا للتاريخ الحديث والاقتصاد السياسى فى الكلية الجديدة لشركة الهند الشرقية بمدينة هيليبورى Hailybury ليقوم بتعليم موظفى تلك

الشركة المدنبين ، المعلومات العامة . كان هذا أقدم كرسى للاقتصاد السياسى اسس فى كلية أو جامعة انجليزية . فبقى مالثوس فى هيليبورى لمدة ثلاثين عاما حتى مات فى سنة ١٨٣٤ وقد أنجب ثلاثة أولاد ، بلغ اثنان منهم ، ولد وفتاة ، سن الرشد .

لم تخمد جذوة النار التى أشعلها مالثوس، اذ ظلت المجادلات المناصرة والمعارضة على أشدها . فبرزت عناوين حديثة تؤيد نظرية مالثوس، منها :«النضال عن مستقبل الانسان» و «الطريق الى البقاء» و «حدود الارض» و «كوكبنا المغتصب» ضمن مقالات عناوينها : «خيال المقات المالثوسى» و «كل بشهية» و «الشر المالثوسى» و «لن تجوع البشرية» . وماهى وجهة النظر الحديثة المبنية على نظريات مالثوس اليوم ؟

ظهر عامل فى مشكلة الانفجار السكانى ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهو الاقبال المتزايد على طرق منع الحمل ، التى نشأ عنها تحديد منظم لعدد اعضاء الاسرات ، باستثناء الذين ينقصهم الوعى ومن تمنعهم الوساوس الدينية . وظهرت حركة عرفت بأسماء مختلفة ، منها : «المالثوسية الجديدة» و «تحديد النسل» و «الامومة المخططة» فأطلق عليها عموما اسم «اعظم حركة لاحصاء الشعوب فى العالم الحديث» . غير أن مالثوس نفسه اشمأز من فكرة منع الحمل ، نوعيا ، واستقبحها ، واعتبرت فى عصره شيئا «سيئا وغريبا وغير طبيعى» . ومع ذلك ، فقد صارت احدى الطرق الرئيسية لوقف التضخم السكانى فى المجتمع الحديث ، وبذا أضاف مالثوس عاملا رابعا الى الثلاثى الخاص به : الرذيلة والبؤس والكبت الاخلاقى» .

وفى سنة ١٨٠٠ عندما كان مالثوس يكتب مؤلفه ، قدر تعداد العالم ببليون نسمة . وفى المائة والخمسين عاما الماضية وصل تعداده الى بليونين ونصف البليون . وهذه نسبة عالية فى النمو

السكانى نتجت عن زيادة طول العمر أكثر منها عن أية ظاهرة فى ارتفاع نسبة المواليد . ففى الامم المتقدمة من العالم ، أنقذت حياة الكثيرين بسبب التغيرات الطبية والصحية والاجتماعية وجاء الانقلاب الصناعى فى انجلترا بزيادة كبيرة فى انتاج السلع المصنوعة ، فبودل على هذه بالاطعمة والمواد الخام من الدول غير الصناعية ، وتحسنت جميع وسائل النقل لتزيد فى سرعة التحرك . فانتقل فائض السكان بالهجرة الى القارات الناشئة حديثا . وتأخر ، على الاقل ، تكهنات مالثوس البغيضة ، وربما أجلت الى ما لا نهاية ، فيما يختص بالعالم الغربى .

ومع ذلك فهناك مساحات شاسعة من الكرة الارضية تمثل تماما نظريات مالثوس .. يتميز الشرق الادنى ومعظم قارة آسيا وغالبية دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية بدرجة عالية من الخصب الجنسى تناظرها نسبة وفيات عالية . فالارواح التى ينقذها الطب والوسائل الصحية فى تلك المساحات ، عرضة لان يهلكها الفقر والمجاعات .

وعلى عكس نظرية هذا الموقف ، دخلت بعض امم الأرض البالغة التحضر والثقافة ، عصراً من الاستقرار أو تناقص عدد السكان ، وأهمها فرنسا والسويد وأيسلندة واستراليا وانجلترا وويلز وايرلندة . جاء هذا الاستقرار نتيجة انخفاض درجة الخصب الجنسى ونقص عدد الشباب وزيادة طول العمر .

زاد انتاج الاطعمة زيادة كبيرة منذ عصر مالثوس ، وتتفق الدول على أنه سيصير بالامكان زيادتها أكثر من ذلك بطرق انتاج أكثر فاعلية ، كالرى واصلاح الاراضى البور والاستعاضة بالاطعمة النباتية بدل الاطعمة الحيوانية ، وبمقاومة افضل ، للآفات الزراعية الحشرية . ويمكن ان يكون فائض المحاصيل فى الولايات المتحدة وكندا ، دليلا على خطأ فى المبدأ المالثوسى . ولكن ، على الرغم من

انتاجنا الضخم من الغـذاء ، هنـاك مئات الملايين من البشر ، فى الشرق وفى أماكن أخـرى ، تقف على حافة الموت جـوعا ، أو فى مستوى القوت الضرورى . ولكن كون ثلثى سكان العالم يقاسون سوء التغذية والقحط واعتلال الصحة والمرض ، يجعـل النظرية التى أثارها مالثوس منذ قرن ونصف قرن ، حقيقية وحيوية ، اليوم ، كما كانت وقتذاك .

وحتى اولئك النقاد ، الذين يقولون ان نظـرية مالثـوس أضعفت فى نواح معينة بالتطورات التى لم تحدث فى عصر مالثوس، والتى لم يستطع مالثوس أن يتكهن بها ، حتى هؤلاء النقاد يوافقون على أن نتائج عظمى نشأت عن أفكاره . وكما لاحظ هـوبهاوس Hobhouse بشـدة : « كانت نظرية مالثـوس أحـد الأسـباب فى هزيمة ماتنبأت به هى نفسها . كان الاعتقاد بأن عدد السكان يزداد بسرعة كبيرة هو الذى عمل بطريقـة غـير مباشرة لايقاف ذلك » .

لم يعط أحد من المعلقين الكثيرين عن مقال مالثوس (مقال عن مبدأ السكان) ثناء اكثر عدلا ولاأقوى بصـيرة ، من جـون ماينارد كينيس John Maynard Keynes ، الذى اعتقد انه :

« يحق لهذا الكتاب ان يتبوأ مكانا بين تلك الكتب التى كان لها تأثير عظيم على تقدم الفكر . لقـد تغلغل عميقا فى التقـاليد الانجليزية للعلوم البشرية — فى تقاليد الفكر الاسكتلندى والانجليزى الذى كان فيه على ما أظن ، استمرار خارق للشعور اذا صح لى أن أعبر عنه هكذا ، منذ القرن الثامن عشر الى الوقت الحاضر — تلك التقاليد التى اقترحتها الاسماء : لوك Locke وهيـوم Hume وآدم سـميث وبالى Paley وبنثـام Bentham وداروين وميل Mill ، تقاليد تتميز بحب الحقيقة والوضوح الأعظم نبلا ،

وبسلامة عادية خالية من كل عاطفة أو ميتافيزيقيا ، وبعدم المتعة العظيمة والروح الشعبية . هناك استمرار فى تلك العبارات ، ليس عن الشعور فحسب ، بل وعن المادة الواقعية . الى هذه الصحبة ينتمى مالثوس .

٥ ـ حالة الفرد المختصرة

هنرى دافيد ثورو HENRY DAVID THOREAU

العصيان المدنى

يرسم اسم دافيد هنرى ثورو فى المخيلة شخصا دقيق الملاحظة فى الطبيعة ، محبا للعزلة وحياة الخلاء ، ونموذج الحياة البسيطة ، وشاعرا متصوفا ، وأستاذا لاسلوب النثر الانجليزى .

كثيرا مايتذكر الناس ثورو كمؤلف لبعض من أشد التقارير تطرفا فى التاريخ الامريكى ، وكمحام ، كما يصفه أحد كاتبى تاريخ حياته ، «أعظم المذاهب العلنية للمقاومة ، سبق أن ظهر فى هذه القارة » . وقد تمادى الى اكثر مما قاله توماس جافرسون Jafferson . « خير حكومة هى التى تحكم بأقل ما يمكن » . ولكن ثورو استنتج أن «خير حكومة هى التى لاتحكم اطلاقا» .

كانت هذه الالفاظ مقدمة مقالة ثورو الشهيرة «العصيان المدنى» التى ظهرت أولا كمجلة دورية غامضة قصيرة الاجل ، وهى

مجلة اليزابيت بيبـــودى Elizabeth Peabody بعنـــوان : «صحف فلسفة الفنون» ، فى مايو سنة ١٨٤٩ ،وكان اســـمها الاصلى «المقاومة المدنية للحكومة» ثم غير هذا العنوان الى «عن واجب العصيان المدنى» ، ثم مجرد «العصيان المدنى» . وعنـدما نشرت لاول مرة ، لم تسترع كثيرا من الانتباه ، وقرأها قليلون . وفى اثناء المائة سنة التالية ، قراها الوف ، واثرت فى حياة ملايين البشر .

هل كان ثورو فوضويا فلسفيا فى معتقداته ؟ وبتحليل مقاله «العصيان المدنى» ، أساسه وماضيه ، نحصل على اجابة لهـذا السؤال المعقد .

أما عن ثـورو نفســه ، فلاشىء فى بدء حياته يمكن أن ينتج متمردا اجتماعيا . ولد من أبوين احـدهما فرنسى والآخـر اسـكتلندى فى بلدة كونكورد Concord بولاية ماسـاشوزتس Massachusetts فى سـنة ١٨١٧ شـب فى بيئة محـافظة فقيرة وحسـنة التربية ... قضى أربع سـنوات فى هارفارد Harvard لم تتميز بشىء ، ولو انه كانت هنـاك لمحـة عن مسـتقبل ذلك الشـخص غير المنتمى الى الكنيسـة السـائدة فى انه كان يرتدى معطفا أخضر فى الكنيسة «اذ كانت الانظمـة تتطلب معطفا أسود» . كان يقضى كثيرا من الوقت فى مكتبة الكلية . وتثار متعة ثورو فى الكتابة بواسطة اثنين من خيرة الاساتذة : ادوارد ت . تشانيج Edward T. Channing وجون فيرى John Very وإذ كان ثورو سـعيدا بعودته الى حقـول كونكورد الخضراء وغاباتها ، لم يغادرها بعد ذلك الا لزيارات قصار . فقام بعدد من الاعمال المختلفة . فبعد أن اشتغل مدة قصيرة يعلم فى مدرسـة شعبية لم يسعد فيها بحال ما ، قضى ثلاث سنوات شريكا مـع اخيه جون فى ادارة مدرسة خاصة بهما . وتلا ذلك مدد متقطعة

ساعد فيها أباه فى عمل الأسرة لصناعة الاقلام الرصاص ، وقام بعمل موظف عام فى المجتمع ، ومساحا فى البلدة ، والقاء المحاضرات من آن الى آخر ، وحاول أن يصير مؤلفا محترفا .

عاش ثورو فترتين قصيرتين فى بيت رالف والدو اميرسون Ralph Waldo Emerson حيث تعرف على أعضاء النادى الراقى ، وأسهم بنشاط فى مناقشات هذه الجماعة الشهيرة من الكتاب والمفكرين فى ولاية نيو انجلاند New England وقد كان تأثير اميرسون قويا على نموه الذهنى ، ويشمل تزويده ببعض الآراء لكتابه « العصيان المدنى » .

لم يطمح ثورو ، بحال ما ، الى جمع ثروة أو القيام بأى عمل سوى مايمده بأقل ضروريات الحياة . كان شغفه دائما الحصول على وقت فراغ للامور ذات الاهمية الاساسية ، كما يراها هو ، وهى التجول فى حقول كونكورد ودراسة الطبيعة على الطبيعة والتفكير والقراءة والكتابة — وعمل الاشياء التى يرغب فى عملها . كان بوسعه الحصول على حاجاته البسيطة دون شغل نفسه فى حياة الاعمال الشاقة ، التى راى جيرانه يقومون بها . فبدلا من آية التوراة القائلة بالعمل ستة أيام والراحة يوما واحدا ، آثر ثورو أن يعكس النسبة — مكرسا اليوم السابع فقط للعمل . وبالاختصار كان يسير على عكس تعاليم آدم سميث والحكم التى ذكرها فرانكلين فى كتابه «مسكين ريتشارد» ، والمثل الامريكية التقليدية التى تحث على العمل الشاق والثراء السريع .

ولتمثيل فكرة ثورو عن الحياة البسيطة الخالية من جميع السطحيات ، قضى سنتين فى والدين بوند Walden Pond بالقرب من كونكورد حيث بنى كوخا وعاش يزرع الفول والبطاطس

ويأكل أبسط الاطعمه (وأهمها الارز ودقيق القمح والبطاطس والعسل الاسود) . وعاش منفردا بعيدا عن المجتمع .

كانت فترة تفكير وتدوين أفكاره ، فأنتج كتابا من أعظم الكتب فى الأدب الامريكى بعنوان : « الغابة Walden » أو «الحياة فى الغابات » (١٨٥٤) .

وبكل فخر ، كان كتاب «الغابة» سجلا لحياة ثورو فى عزلته الريفية ، وزاخرا بالأوصاف التذكارية للفصول والمناظر الطبيعية وحياة الحيوان حوله . ولكن «الغابة» كان أكثر من ملاحظات عالم طبيعى ، مثلما كان كتاب اسحق والتو Izaak Walton «صياد السمك الكامل» أكثر من كتيب عن صيد السمك . بل يعلق على السطحيات وحدود المجتمع والحكومة ، فصار ذا أهمية عالمية . وبمرور الاعوام جذب النقد الاجتماعى كثيرا من القراء ، كما فعلت الاجزاء التى تتناول التاريخ الطبيعى . وبالطريقة الخاصة التى وضع بها كتاب «الغابة» ، فهو وثيقة متطرفة مثل الكتاب المنشور قبل ذلك «العصيان المدنى» الذى يحمل له مشابهة كبيرة .

بينما كان ثورو يزور كونكورد فى سنة ١٨٤٣ بعد اقامته فى والدين بوند ، قبض عليه وسجن لعدم دفعه ضريبة الراس . وقد حذا ، فى رفضه دفع الضريبة هذا ، حذو برونسون الكوت Bronson Alcott ، والد « السيدات الصغيرات » ، الذى قبض عليه قبل ذلك بسنتين لنفس التهمة . استعمل كل منهما هذه الوسائل أحتجاجا على مساندة الحكومة لتجارة الرقيق . سجن ثورو لمدة ليلة واحدة فقط ، اذ تدخلت عمته ، رغم معارضته ، فدفعت الضريبة .

لم يذكر ثورو قصة احتكاكه بالحكومة لرفضه سداد ضريبة الراس ، لم يذكرها فى مقاله «العصيان المدنى» الا بعد مرور عدة

سنوات . كتب ذلك المقال أصلا فى ١٨٤٨ كمحاضرة . وخرجت النسخة المطبوعة ، من المطبعة ، فى العام التالى . . كانت الحرب المكسيكية لسنة ١٨٤٦/٤٧ قد انتهت منذ مدة قصيرة ، وكانت تجارة الرقيق نتيجتها الملهبة . وكان قانون العبيد الهاربين ، الذى أثار حنق ثورو بنوع خاص ، على وشك أن يصدر . أضف الى هذه الامور معركة ضريبة الرأس ، فكانت حافزا أوحى اليه بكتابة «العصيان المدنى» .

كانت أية حرب بغيضة لمثل ثورو ، فما بالك بالحرب المكسيكية التى مقتها اشد المقت ، لان هدفها الوحيد ، حسب اعتقاده ، هو مد تجارة الرقيق الزنوج ، التى كان يمقتها ، الى مناطق جديدة . فتساءل ثورو : لماذا ندعم بالمال حكومة «مذنبة بمثل هذه المظالم والغباء ؟ وهنا كان مولد مذهبه عن العصيان المدنى . قرر ثورو ، وهو السياسى بقلبه وقالبه ، أن الوقت قد حان لاختبار طبيعة الدولة وحكومتها . ماذا يجب أن تكون عليه علاقة الفرد بالحكومة ، وعلاقة الحكومة بالفرد ؟ ومن اعتبارات هذه المسائل ، برزت فلسفة ثورو ، بوفائه الشخصى ومركزه الانسانى فى المجتمع .

كتب ثورو يقول : «ليست الحكومة فى خير صورها الا وسيلة . بيد أنمعظم الحكومات ليس وسائل أحيانا .والمعارضات التى أثيرت ضد الجيش القائم ، وهى كثيرة وبالغة الاهمية ، وتستحق أن تثار ضد الحكومة القائمة » .

اعلن ثورو أن الحكومة الامريكية كانت حسنة نسبيا .

غير أن هذه الحكومة لم تنفذ أى مشروع من تلقاء نفسها ، ولكنها تبدى نشاطا وسرعة حركة فى ازالة ذلك المشروع من امامها لم تحافظ على حرية الدولة ، ولم تسو مسألة الغرب ، ولم تنشر

التعليم . فالاخلاق الكريمة التى فطر عليها الشعب الامريكى هى التى أنجزت كل ماتم من مشروعات ، وكان بوسعها أن تنجز اكثر منه لو لم تتدخل الحكومة أحيانا . لان الحكومة وسيلة ينجح بها الناس فى ترك كل واحد وشأنه . وكما قلت من قبل ، عندما تكون الحكومة فى اقصى كونها وسيلة ، فان المحكومين يصبحون فى اقصى حالات تركهم وشأنهم بواسطة تلك الحكومة .

بعد أن قدم ثورو قضية « الا تكون هناك حكومة» ، مباشرة تقريبا ، أدرك أن الانسان لم يصل بعد الى درجة الكمال حيث يكون من المحتمل عدم وجود حكومة على الاطلاق ، فبدأ يعدل رأيه ، قائلا :

ولكى أتكلم من الناحية العملية ، وكمواطن ، بعكس الذين يسمون أنفسهم رجال «عدم الحكومة» ، فانى لااطلب فى الحال عدم وجود حكومة ، بل اطلب فى الحال حكومة أفضل . وعلى كل فرد أن يوضح نوع الحكومة التى تحظى باحترامه ، وستكون هذه خطوة الى الامام نحو الحصول عليها .

اكد ثورو على حقوق الاقليات فى الحكم ، والمغالطة التى تطلب حكم الاغلبية ، فقال : «تحكم الاغلبية ، ليس لكونها عرضة لان نكون على صواب ، ولا لان هذا يبدو اكثر انصافا للاقلية ، ولكن لانها الاقوى طبيعيا . ولكن الحكومة التى تحكم فيها الاغلبية، فى جميع القضايا ، لايمكن أن يكون حكمها مبنيا على العدل ، حتى ولو كان على حد مفهوم البشر» . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أن المواطن لن يتخلى عن ضميره للمشرع ... يجب أن نكون رجالا اولا ، ثم رعايا بعد ذلك . ليس من الضرورى أن ننمى احترام القانون ، كما ننمى احترام الحق » .

ازدرى ثورو السياسيين كطبقة ، فقال : «يخدم معظم

المشرعين والسياسيين والمحامين والوزراء وموظفى الحكومة ، الدولة برءوسهم غالبا . وبما أنهم قلما ، يبدون أى تمييز أخلاقى فانهم يميلون الى خدمة الشيطان كاله دون وعى منهم . ويخدم قلة قليلة ، كالابطال والمتحمسين للوطن والشهداء والمصلحين والرجال بمعنى الكلمة الدولة بضمائرهم أيضا ، ولذا فمن الضرورى أن يقاوموا الحكومة فى أغلب الاحوال ، ولهذا تعاملهم الحكومة عموما كأعداء .

بعد ذلك أخذ ثورو يهاجم الحكومة الامريكية لعصره ، قائلا: «لايمكنني الاعتراف لحظة واحدة بأن تلك المؤسسة السياسية هى حكومتى ، التى هى حكومة العبيد أيضا» . من واجب المواطن أن يقاوم الشر فى الحكومة الى حد عصيان قوانينها علنا وعمدا .

اذا تعهدت أمة بأن تكون ملجأ للحرية ، وكان سدس عدد سكانها عبيدا .. فأعتقد أن الوقت ملائم للأشراف من شعبها أن يتمردوا ويثوروا .. يجب أن يكف هؤلاء الناس عن امتلاك العبيد وعن شن الحرب على المكسيك ، حتى ولو كلفهم هذا وجودهم كبشر .

وكذلك رثى ثورو للمواطن الذى يظن انه قد ادى واجبه كاملا بمجرد الادلاء بصوته .

كل تصويت نوع من المقامرة ، كالضامة والطاولة ، مع اضافة مسحة أخلاقية بسيطة اليها . انه لعب بالحق والباطل ، بالمسائل الاخلاقية والمراهنة التى تصحبها بطبيعة الحال . ليست أخلاق المصوتين فى خطر ... وحتى التصويت على الحق لايعمل شيئا من اجله .. انه انما يعبر للناس عن رغبتك فى سيادة الحق ... ليس هناك سوى قليل من الفضل فى أعمال جموع البشر .

ناقش ثورو الطريقة الصحيحة لعمل المواطن حيال القوانين

غير العادلة . هل الافضل : الانتظار حتى تعمل الغالبية على تغيير القوانين ، أم رفض طاعتها على الفور ؟ كان جواب ثورو القاطع هو : «اذا أرادت الحكومة منك أن تكون عاملها فى انزال الظلم بشخص آخر ، فعندئذ أقول لك : اكسر القانون ... مايجب على أن أفعله هو أن أرى أننى لاأعير نفسى ، بأية حال ، الى الظلم الذى أمقته وأحاربه .

قال ثورو ، انه من خصائص الحكومة أن تقاوم كل تغير وكل اصلاح ، وتسيء معاملة من ينتقدونها . وتساءل : «لماذا تصلب المسيح دائما ، وتحرم كوبرنيكوس Copernicus ولوثر Luther وتصف واشنطن وفرانكلين بالتمرد ؟»

أكد ثورو على أنه ينبغى لمن يقاومون تجارة الرقيق ان «يسحبوا دعمهم فى الحال ، الشخصى والمادى ، من حكومة ماساشوزتس ، والا ينتظروا حتى يصيروا غالبية عظمى ، قبل أن يروا سيادة الحق بواسطتهم . وأعتقد انه يكفى أن يكون الله فى جانبهم ، دون انتظار لتلك الغالبية . وزيادة على ذلك ، فكل رجل اكثر احقاقا للحق من جيرانه ، هو غالبية فى حد ذاته » .

وكشعار للعصيان المدنى ، الذى هو طريق مفتوح أمام كل مواطن ، أشار ثورو بأن يرفض المواطن دفع الضرائب . فاذا عبر ألف شخص أو أقل عن امتعاضهم من الحكومة بتلك الطريقة ، فلابد أن يتبع الاصلاح ذلك ، حسب رأى ثورو . وحتى اذا كانت مقاومة السلطات تعنى العقاب ، «ففى ظل الحكومة التى تسجن أى فرد ظلما ، يكون المكان الصحيح للانسان العادل هو السجن أيضا .. اذا خيرت الحكومة بين ايداع جميع العادلين فى السجن وبين ترك الحرب وتجارة الرقيق ، فانها لن تتردد فى الاختيار» . فاذا دفع المواطن الضرائب لحكومة غير عادلة ، فانه انما يتجاوز عن المظالم التى تقوم بها تلك الحكومة .

ورغم هذا ، رأى ثورو أن طبقة أصحاب الاملاك تخاطر كثيرا اذا تمردت ، لان «الرجل الغنى ـ دون عمل مقارنات تثير الغضب ـ يباع دائما للمؤسسة التى جعلته غنيا . وبتعبير مركز، كلما زاد المال قلت الفضيلة ، اذ يقف المال دائما بين الرجل وأهدافه ، ويحققها له » .

وأذ لم يكن ثورو غنيا ، كان بوسعه أن يقاوم . «يكلفنى عصيان الحكومة أقل ، بجميع المعانى ، مما تكلفنى طاعتها . احس بأننى أساوى أقل فى هذه الحالة الاخيرة» .

كذلك كان ثورو واقعيا فى رؤيته قيمة الاعتراضات الاقتصادية التى منعت حكومة ماساشوزتس من القيام بعمل ضد تجارة الرقيق .

اذا تكلمنا من الناحية العملية ، فان المعارضين للاصلاح فى ماساشوزتس ، ليسوا مائة ألف سياسى فى الجنوب ، بل مائة ألف تاجر ومزارع هنا ، يهتمون بالتجارة والزراعة أكثر من اهتمامهم بالانسانية . وليسوا مستعدين للوقوف الى جانب تحريم تجارة الرقيق ومعارضة الحرب مع المكسيك ، «مهما تكلف الامر » .

تمسك ثورو بمبادئه لمدة ستة أعوام ، وقرر أنه لم يدفع أية ضريبة رأس . ولم تزحزحه مدة سجنه القصيرة عن اتهاماته للحكومة ، بل جعلته لايهتم بالسجن .

رأيت ان الحكومة نصف ذكية ، وأنها جبانة كامرأة تركت وحيدة مع ملاعقها الفضية ، وأنها لاتعرف أصدقاءها من أعدائها، ففقدت كل ماتبقى عندى من احترام لها . وهكذا ، لن تواجه الحكومة قصدا مشاعر الانسان الذهنية ولا الاخلاقية ، بل تواجه جسمه فقط وليس مشاعره . ليست الحكومة مسلحة بذكاء سام

ولا بأمانة ، وانما هي مسلحة بقوة بدنية فائقة ، لم أولد لأجبر ، سأتنفس كما يطيب لي .

فرق ثورو بين الضرائب : «لم اتأخر ابدا» عن دفع ضريبة الطرق ، ولا ضريبة المدارس ، لانني أرغب في أن أكون جارا طيبا، بقدر ماأنا رعية سيء» . انه يدعم تجارة الرقيق والحرب بدفع الضرائب العامة « أريد ، ببساطة ، أن أرفض التحالف مع الحكومة ، وأن انسحب واقف بعيدا عنها بطريقة فعالة» ، في هذه الامور .

لم تكن هناك رغبة من جانب ثورو للوقوف كشهيد أو قديس ، بل قال :

« لا ارغب في العراك مع اى رجل أو اية أمة ، ولاأريد ان أقوم بالتمييز بين شخص وآخر ، أو اضع نفسي في موقف افضل من جيراني ، بل أسعى الى عذر يجعلني أتمشى مع قوانين البلاد . انني على أتم استعداد للسير تبعا لها . والحقيقة انه لدى سبب للشك في نفسي فيما يختص بهذا الامر . وفي كل عام ، عندما يأتي وقت جباية الضريبة ، أجد نفسي مستعدا لاستعراض القوانين وموقف الحكومة العامة وحكومة الولاية وروح الشعب لاكتشف حجة للتمشي مع القوانين » .

وزيادة على ذلك ، اعترف ثورو أنه على الرغم من هبوط القوانين عن المستوى المثالى فان «الدستور ، مع كل اخطائه ، جيد جدا ، والقانون والمحاكم محترمة . وحتى حكومة هذه الولاية والحكومة الامريكية رائعتان في كثير من النواحي ، ونادرتان لدرجة أننا ندين بالشكر من أجلهما » .

ورغم استفاده قاعدة الغالبيـة ، فهو يؤمن ، بعض الشيء ، بحكم الشعب . وفي نظره ، فالتشريع ينقصه القدرة على أن يعالج

بنجاح «الموضوعات المتواضعة نسبيا» للضرائب والمالية والتجارة والصناعة والزراعة . واذا كان كل اتكالنا على عبارات المشرعين فى الكونجرس ، لكى تقودنا ، دون أن تصححها التجارب الموسمية أو شكاوى الشعب المؤثرة ، فلن تحتفظ أمريكا بمركزها بين الامم لمدة طويلة» .

ويختتم ثورو مقاله « العصيان المدنى » بعبارة من فكرته عن الحكومة الكاملة ، وتأكيده الملح على اعتقاده بكرامة الفرد وقيمته .

ولكى تكون سلطات الحكومة عادلة بالمعنى الحرفى ... يجب أن تحصل على موافقة المحكومين وبركتهم . لايمكن أن يكون لها حق مطلق على شخصى أو على ممتلكاتى الا بقدر ماأوافق عليه . والتقدم من ملكية مطلقة الى ملكية محددة ، ومن الملكية المحددة الى الديمقراطية تقدم نحو احترام حقيقى للفرد .. وهل الديموقراطية كما نعرفها هى التحسن الاخير الممكن فى الحكومة) أليس بالامكان أن نخطو خطوة نحو الاعتراف بحقوق الانسان وتنظيمها . لن تكون هناك ولاية حرة بحق ، ومستنيرة بحق الا اذا اعترف مجلس الشيوخ بالفرد كقوة عليا مستقلة ، يستمد منها كل قوته وسلطته ، ويعامل ذلك الفرد على هذا الاساس . وانى لأمتع نفسى بأن أتخيل حكومة ، فى النهاية ، يمكنها أن تكون عادلة ازاء جميع الناس ، وتعامل الفرد بالاحترام على أنه جار لايظن من الملائم لراحته أن يعيش القليلون بعيدا عن الحكومة ولايتدخلون فى شئونها ولاتحتضنهم تلك الحكومة التى أدت واجبها نحو الجيران والزملاء . فالحكومة التى تنتج مثل هذا النوع من الثمار وتدعه يسقط بمجرد نضجه ، ستمهد الطريق لحكومة اكثر كمالا ومجدا ، وقد تخيلت هذه أيضا ، ولكنى لم أرها فى أى مكان .

وبالاختصار ، كان خصام ثورو للحكومة فى كتابه « العصيان

المدنى» هو أن الحكومة تعيش للافراد ولايعيش الافـراد لأجـل الحكومة . يجب الا تخضـع الاقليـة للاغلبية أذا وجب تصحيح المبادىء الاخلاقية لتفعل هذا . ثم انه ليس للحكومة الحق فىاهانة الحرية الاخلاقية باجبار المواطن على دعم المظالم . يجب أن يكون ضمير المرء دائما هو روحه المرشدة العليا .

يمكن اهمال أثر «العصيان المدنى» فى عصر ثورو .. لم يشر اليه معاصروه من الكتاب فى مؤلفاتهم . واذ كانت الحرب الاهلية بعد ذلك بعشر سـنوات أو أكثر قليلا ، فيمكن افتراض أن ذلك المقال قد مس وترا شعبيا حساسا . ومن الجلى انه دفن تحت التيار المكتسح لأدب أنصـار الالغاء ، وظل غامضـا ومنسيا الى القرن التالى .

والأن ينتقل المنظر الى جنوب افريقيا والهند . ففى سنة ١٩٠٧ وقعت نسخة من كتاب «العصيان المدنى» فى يدىمحـام هندى فى أفريقيا اسـمه مهانداس كاراتشاند غاندى Mohandas Karamchand Gandhi كان غاندى يفكر من قبل فى ميزات المقاومة الايجابية كدفاع لشعبه . وهاك سردا لهذا الحدث كما ذكره المهاتما بعد ذلك باثنتين وعشرين سنة لهنرى صولت Henry Salt أحـد كاتبى تاريخ حياته المبكرين :

كان أول لقاء لى مع مؤلف ثـورو، ، على مااظن ، فى سـنة ١٩٠٧ ، أو بعد ذلك ، لما كنت فى معمعان نزاع المقاومة الايجابية . أرسل لى أحد أصدقائى نسخة من مقال عن «العصيان المدنى» ، فترك فى نفسى اثرا عميقا . فترجمت جزءا منه لقـراء صـحيفة «الرأى الهندى فى جنوب أفريقيا» التى كنت احررها وقتذاك ، ونقلت بعض فقرات منه للقسم الانجليزى من تلك الصـحيفة . يبدو أن ذلك المقال مقنع وصادق لدرجة اننى شعرت بالحاجة الى

معرفة المزيد عن ثورو . فعثرت على كتابك عن تاريخ حياته ، وعلى كتابه «الغابة» ، وبعض المقالات القصيرة الاخرى ، وقرأتها جميعا بمتعة بالغة ، وفائدة مماثلة .

وهناك قصة أخرى تختلف قليلا عن هذه ، رواها احـــد الاصـــدقاء المقربين لغاندى فى جنوب أفريقيا وهو هنرى بولاك Henry Polak :

لاأستطيع الآن (١٩٣١) أن اتذكر انه فى سنة ١٩٠٧ ، هـل كان غاندى هو الذى عثر على نسخة من مقال ثورو (نشرته مكتبة ســكوت Scott) أم أنا الذى عثرت عليهـــا . ولـــكن كلا منـا تأثر به غاية التأثر ، لمطابقة معنى مبادىء المقـاومة الايجابيــة ، والعصيان المدنى .. فى مقال «عن واجب العصيان المدنى . وبعد التشاور مع المستر غاندى ، كتبت المقال فى اعمدة صحيفة «الرأى الهنـــدى » وترجم الى اللغـــة الجيجـاراتيه Gujarati التى كانت تلك الجريدة تظهر بها ، كما تظهر باللغة الانجليزية أيضا . وبعد ذلك ، نشر ذلك المقال فى صـــورة كتيبات أو نشرات . وفى السنة نفسها ، نظمت جريدة «الرأى الهندى» مسابقة فى مقـال عن «الفلسفة الاخلاقية للمقاومة الايجابية ، مع اشارة خاصة الى مقال ثورو ، الذى جذب أنتباه المستر غاندى .

لما كان غاندى غير راض عن المصطلح «المقاومة الايجابية» ، وفى الوقت نفسه لم يجد مصطلحا بديلا ملائما ، وافق من فوره على استعارة «العصيان المدنى» لوصف حركته . قرر أن هـذا المصطلح تعبير عن مبدأ الصلابة فى غير عنف ، مع تمسك بالحقيقة والعدالة ـ وهذه سياسة دبلوماســية تنطبق تماما وفلســفة غاندى . فصار «العصيان المدنى» فى يدى المهاتما غاندى انجيلا لعدم المقاومة .. صاغ غاندى لاتباعه الهندوكيين مصطلحا معادلا «ساتيجراها Satygraha » ويتـــكون من كلمتين ســانسكويتيتين

ترجمتهما «قوة الروح» أو «القوة المولودة من الحقيقة والمحبة ، أو عدم العنف» .

يقـــول كريشـــنالال شريدهارانى Krishnalal Shridharani وهو أحد كتاب تاريخ حياة غاندى : «ان نضال ثورو ضد تجارة الرقيق فى الولايات المتحـدة ، قد شبع غاندى بالايمان بأن عدد المقاومة ليس هو مايهم فى «قوة الروح» وانما الذى يهم هو نقاء روح التضحية» . وقرر غاندى :

الأوامر مستحيلة عندما تنحصر فى عدد قليل من المتعضين، وهى متعبة عند وجوب تنفيذها ضد الكثيرين من ذوى النفوس الســامية ، الذين لم يقترفوا اثمـا ، والذين يرفضـــون دفع الضريبة دفاعا عن مبدأ . وعندما يلجأ الافـراد العزل الى هـذه الطريقة للتعبير عن احتجاجهم ، فقد لايسترعون كثيرا من الانتباه. بيد أن الامثلة الظاهرة تنتهج طرقا غريبة لمضاعفة انفسها . انها تتحمل الاعلان ، وبدلا من أن تعانى الكراهية ، تحظى بالتهانى .. حقــق اناس ، امثـــال ثورو ، الغاء تجـــارة الرقيق بمثلهم الشخصية .

بهذه العبارات كان غاندى يردد الفاظ ثورو عن قوة الاقلية الصغيرة ذات العزيمة الثابتة . وبذا ، كما علق شريدهارانى «لم يصنع ثورو سلاح العصيان المدنى الذى هو قاعدة هامة فى مقال غاندى «قوة الروح » ، لم يصنع ثورو هذا فحسب ، بل وابرز قوة عدم التعاون التى كبرها غاندى بعـد ذلك كوسـيلة لتحطيم حكومة فاسدة» .

بقى غاندى فى جنوب أفريقيا طوال عام ١٩١٤ يقوم بمعركة مـع قـوات الحـكومة التى يقـــودها الجنرال جان سمطس

Jan Smuts ، وقد تميزت تلك الحملة بالاضطهـــاد والعنف المتعدد الصور ، والسجن وجميع الوسائل الاخرى المتوفرة لدى حكومة قوية لمحاولة قمع اقلية غير شهيرة .. أفادت طرق غاندى من عدم التعاون وعدم المقاومة والعصيان المدنى أو «قوة الروح»، وفى النهاية وافق رئيس الوزراء سمطس وحكومته ، على كل طلب هام للهنود ، ومن ذلك الغاء قانون بصمات الاصابع ، والغاء ضريبة الثلاثة الجنيهات على الرأس ، والتصـــديق على صـــحة زواج الهندوس والمسلمين ، وازالة القيود المفروضة على هجرة الهنـود المتعلمين ، والوعد بحماية الحقوق الشرعية للمواطنين الهنود .

وقرر اندوز Andrews ، وهو كاتب آخر لتاريخ حيـــاة غاندى ، انه يجب اعتبـــار حملة جنـوب أفريقيا « ليس المثـال الاول فحسب ، بل والمثال الكلاسيكى لاستخدام عـدم المقـاومة بواسطة جموع الناس المنظمة لدفع المظالم » .

وتبعا لما قاله شريدهارانى ، كان تفسير غانـدى للعصـيان المدنى هو أن :

بوسع أولئك الراغبين فى طاعة القانون وحدهم ... أن يكون لهم الحق فى ممارسة العصيان المدنى ضد القوانين غير العادلة . ويختلف هذا الامر تمام الاختلاف عن مسلك طريدى القانون ، لانهم يمارسونه علنا وبعد سابق انذار مناسب ... لم يكن من اللائق ، اذن ، تنمية عادة كسر القانون أو خلق جو من الفوضى. وانما يلجئون اليه فقط عندما تخفق جميع الوسـائل الأخـرى كالشكاوى والمفاوضات والتحكيم ، فى دفع الظلم .

عاد غاندى الى الهند فى أوائل سنة ١٩١٥ ، وبقى هنـاك حتى قتل فى سنة ١٩٤٨ ، اغتاله مجرم هندوكى ، وهو يقـود القوات التى جلبت الحرية للهند وباكستان . وحدث شـغب

ومذابح وأحكام بالسجن لمدد طويلة وكبت للحريات المدنية وقوانين ظالمة للنضال بها . وكثيرا ما استخدم العصيان المدنى ابان هـذه السنين ، وشحذه غاندى حتى جعله سلاحا ذا أثر عجيب . كانت الخطوات الاولى اضطرابات ومظاهرات ومفاوضـات ، وان امكن تحكيمها . واذا لم تأت هـذه بنتائج ، كانوا يلجئون الى الطرق الاقتصادية كالاضراب والمقاطعة التجارية والاعتصام . ومن الطرق الأخرى عدم دفع الضرائب .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٧ منحت بريطانيا الهند الهندوكية وباكستان الاسلامية حق تقرير المصير .

لا شك فى أن المستقبل سـيرى فوائد اخـرى لاسـتخدام مبـادىء العصيان المدنى كما وضعها ثورو ونقحها غاندى . وان قوى الشعوب المظلومة فى كل مكان ،حتى فى الدكتاتوريات الحديثة الوحشية ، تستطيع بهذه الوسائل ارغام السلطات على الاحساس بها . ومن الأمثلة السائرة نضال شعوب جنوب أفريقيا الملونة ضد حـكومة ستريجدون Strijdon وهو تجديد لنضـال غاندى .

قال غاندى : « فحتى أكثر الحكومات استبدادا لا يمكن أن تقوم الا بموافقة المحكومين ، تلك الموافقـة التى كثيرا ما يحصـل عليها المستبد باستخدام القوة . وعلى الفـور تكف الرعيـة عن الخوف من انقوة المسـتبدة . لقـد ذهب ريح ذلك المسـتبد ، وتعوضت القلوب من رعبها منه ، الجرأة عليه » .

نبذ ثورو الحكومة التسلطية والحكومة المطلقة فى أية صـورة من صورهما . كانت مذاهبه ، على طول الخط ، ضد الشيوعية والاشتراكية ، أو اى مذهب آخر يجعل الحـكومة فوق حقـوق الفرد . ويجب التنويه عن أن اتجاه الحـكومة فى منتصف القرن العشرين ، يدل على أن أفكار ثورو تقاتل فى حرب خاسرة . ومع

ذلك ، ففى العالم عموما ، نجد مسـألة علاقة المواطن بحكومته ــ اى طبيعة ومدى طاعته لها ــ لم تكن عاجلة أكثر من هذا .

كتب بارنجتون Parrington يقول : « ان فلسـفة الفردية فى القرن الثامن عشر ، والاباحيـة القـوية التى اطلقهـا جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau وقد بلغت ذروتها في ميوانجلاند عن طريق ثورو . كان التجسد الكامل لرد فعل مبـدأ «حـرية التعامل» على النظام الاجتماعى المدعم بالقوة العسكرية ، وأقسى ناقد للاقتصاديات الدنيا ، التى تحبط أحلام الحرية البشرية . بأعشابه ، وكان سـعيد الحظ فى عدم تكهنه بمقـدار بعـد ذلك المستقبل ، مستقبل الاحرار ، الذى ثبت عليه آماله » .

٦ ـ مغامرة من أجل المساكين

هارييت بيتشرستو HARRIET BEECHER STOW

كابينة العم توم

اتفق نقاد « كابينة العم توم » ، من مادحين وقادحين ، فى نقطة واحدة . فقد اشترقوا جميعا ، بغير استثناء ، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره ، وبنفوذه القوى فى التحريض على الحرب الأهلية . وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين ، هذا المؤلف بأنه : « تشويه وحشى أوحى به التعصب لالغاء الرق ، وأنه موضوع لاثارة الشقاق بين الأقسام » . وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتاب ، فى أوائل القرن الحالى ، ملاحظة بقوله : « أحدث كتاب ، كابينة العم توم ، ضررا للعالم يفوق ما فعله أى كتاب آخر » .

وعلى نقيض هذين ، عبر عدد كبير من المعجبين ، عن عاطفتهم بخطاب ، جاء من لونجفلو يصف كتاب كابينة العم توم ، بأنه : « أحد الانتصارات العظمى التى سجلها تاريخ الأدب علاوة

على أثره الأخلاقي » . وقرظ آخرون ذلك الكتاب على انه « انتصار للحقيقة » و « خالد » وأن المؤلف « سيدة نابغة بدون جدال » .

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا احسن توقيتا وظيفيا .. زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق . وزاد في حدتها التصديق على قانون العبيد الهاربين — ظل المطالبون بالغاء الرقيق عشرين سنة يصعدون من اثارة الراى العام ضد الرق ، وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين ، بتزايد المعارضين للرق من رجال الدين — من الشمال والجنوب — وهم يصيحون من منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة استخدام العبيد وامتلاكهم . وبلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز العالم كله ، وقد زودهم كتاب كابينة العم توم بهذه الشرارة .

لم يكن الوقت مناسبا فقط ، بل ظلت الوراثة والبيئة تشكلان الشخص الملائم بالضبط لاثارة المغامرة ضد استرقاق البشر .

واذ كانت هاريت بيتشرستو ابنة رجل من أشهر الناس قداسة في القرن التاسع عشر ، وهو لايمان بيتشر Layman Beecher وشقيقة واعظ أكثر عاطفة من أبيه وهو هنرى وارد بيتشر Henry Ward Beecher وزوجة واعظ ، وشقيقة ووالدة وعاظ آخرين ، قضت حياتها كلها في جو دينى بحت . وزيادة على ذلك ، كان تعليمها الدينى كلفينيا متعصبا ، متمسكة بروح جوناثان ادواردز Jonathan Edwards وصموئيل هوبكنز Samuel Hopkins وغيرهما من متصوفى نيو انجلاند ، كما احاط بها باستمرار منذ نعومة اظفارها تعاليم لاهوتية «كالنار والكبريت» .. قلما كانت هاريت تستطيع الا أن تكون واعظة — ان لم يكن من منبر ، فعلى الاقل بالقلم . تجلى الأساس الدينى

فى جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كابينة العم توم ، يحفزها الى الحماس الانجيلى وفصاحة التعبير بالآيات المقدسة .

ولدت هاريت بيتشر ستو فى ليتشفيلد Litchfield بولاية كنكتيكت Connecticut فى سنة ١٨١١ ونالت قسطا من التعليم فى هارتفورد Hartford أفضل مما جرت العادة أن تناله النساء فى عصرنا . وكان حوالى ثلثى تعليمها دينيا فى طبيعته . وكانت مولعة بالقراءة . وزيادة على علم اللاهوت ، كان المؤلفان المفضلان لديها هما بايرون Byron وسكوت Scott اللذين كان لهما تأثير كبير فى أسلوب كتابتها .

انتقل لايمان بيتشر ، الكثير التنقل ، مع أسرته من ليتشفيلد الى أبروشية فى بوسطون Boston ، وكانت هاريت عندئذ فى الرابعة عشرة من عمرها ، وبعد ذلك ببضع سنين انتقل ثانية الى سنسناتى Cincinatti حيث استدعى رئيسا للجميع اللاهوتى فى لين Lane حيث بقيت هاريت الى سنة ١٩٥٠ تقوم بالتعليم فى مدرسة هناك ، وتزوجت عضوا من كلية ذلك المجمع ، هو كالفين ستو Calvin Stowe ، فأنجبت ستة من أطفالها السبعة . وبين آن وآخر ، كانت ترسم وتكتب القصص للنشر فى المجلات هناك .

كانت السنوات التى قضتها فى سنسناتى شكلية فى كثير من النواحى . وتقع سنسناتى هذه على نهر أوهيو Ohio فى مواجهة مزارع شاسعة يفلحها العبيد فى ولاية كنتكى Kentucky وكانت مركزا لحركة ثائرة ضد الرق . وكان الرعاع المعارضون لالغاء الرقيق يجوبون شوارعها يحطمون المطابع المضادة للرق ، ويسيئون معاملة الزنوج الأحرار . فألقيت الخطب العنيفة لابطال الرق . كما كانت سنسناتى ملجأ للعبيد الهاربين ، وهم فى

طريقهم الى الشمال بالسكة الحديدية تحت الأرضية الى الحرية في كندا . وكان المجمع نفسه مربى للعاطفة المناوئة للرق ، ولم يحمه من هجوم الرعاع الا موقعه فى شارع وعر موحل يبعد عن المدينة بمسافة ميلين . وقد أوى بيت لايمان بيتشر الهاربين في عدة مناسبات . وصل الى اذنى هاريت ، مباشرة ، من أفواه العبيد الهاربين قصص عن عائلات تفككت ، عن قسوة ملاحظى عمل العبيد ، وفظائع مبنى المزاد ، وأهوال مطاردة الهاربين .

رات مسز ستو بعيني راسها ، مرة واحدة ، العمل في أنظمة الاحتفاظ بالعبيد . ففى زيارة قصيرة مع بعض الاصدقاء لمدينة مايزفيل Maysville بولاية كنتكى ، سنة ١٨٣٣ ، شاهدت عددا من المزارع بها عدد كبير من البيوت الريفية وعنابر العبيد . هنا وجدت نموذج المزرعة التى تخيلتها لكتاب « كابينه العم توم » وهى مزرعة شلبى Shelby . كما حصلت على افكار عملية لنظام عمل العبيد . وزادت ذخيرتها من عند أخيها شارلز الذى يعمل رجل أعمال ويسافر الى نيو أورليانز New Orleans وريف النهر الأحمر ، اذ جاءها بقصص بشعة عن الرق فى أقصى الجنوب . كانت هاريت مدينة لشارلز بنموذج بطل كابينة العم توم ، وهو سيمون لجرى Simon Legree الذى يتميز بوحشية ملاحظ العبيد ، وقد التقى به شارلز على ظهر سفينة فى نهر المسيسيبى Mississippi

وفى السنوات التى قضتها هاريت ستو فى سنسناتى ، لم تكن من محبذى الغاء الرق المتحمسين ، وربما شاركت اباها رأيه فى أن الالغاء يتكون من « الخل وحامض النتريك وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتى ، ليتفجر فتتناثر المادة الأكالة . » والواقع أن مسز ستو كانت متفرجة اكثر منها بطلة عاملة فى معركة الرقيق ، حتى عادت الى

نيو انجلاند اذ عين كالفين ستو استاذا بكلية بودوين Bowdoin بولاية مين Maine ، فانتقل اليها مع أسرته فى سنة ١٨٥٠ .

كانت نيو انجلاند كلها ثائرة حنقا على اقرار قانون العبيد الهاربين وخصوصا ضد احداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون فى بوسطون . فأصحاب العبيد فى الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد الهاربين داخل الولايات الحرة مع الزام موظفى هذه الولايات بمساعدتهم فى استعادة مملوكيهم . وزيادة على ذلك ، فان الزنوج الذين نعموا بالحرية قانونا منذ مدة طويلة ، جمعوا وأعيدوا الى أصحابهم السابقين ، وغالبا ما انفصلوا عن عائلاتهم فى هذه العملية .

تسلمت هاريت ستو خطابا من زوجة اخيها مسز ادوارد بيتشر ترجوها فيه أن تكتب شيئا يجعل امة بأسرها تشعر بفظاعة الرق » • وتبعا لتقاليد أسرة ستو ، قالت هاريت : « بمساعدة الرب سأكتب شيئا ان أحيانى الله » . وفى تلك الأثناء ، كان اخوها ادوارد ثائرا ضد الرق فى كنيسة بوسطون : بينما يعقد أخوها الآخر هنرى وارد ، مزارات فى كنيسته بمدينة بروكلين Brooklyn لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية .

كان القسم الاول من كتاب « كابينة العم توم » ، الذى كان ما يزال فى طور التأليف ، هو غاية الموضوع ، ويصف موت توم . وبينما كانت مسز ستو حاضرة فى كنيسة برنسويك Brunswick أثناء توزيع الذبيحة المقدسة ، استرجعت كافة المناظر المتجمعة فى عين ذهنها . وفى مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت الى حجرتها واقفلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفد ما لديها من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البنى اللون واكملت فيه قصتها . وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذى عنوانه « الشهيد » فى كتاب « كابينة العم توم » . ولما قرأته لأولادها

وزوجها تأثروا جميعا تأثرا عميقا . ويقال ان كالفين ستو ، صاح يقول : « أى هاتى ، هذه ذروة قصة الرق التى وعدت شقيقتى ايزابيل بكتابتها . ابدئى من البداية حتى تصلى الى هذه ، تحصلى على كتابك » .

بعد اسابيع قليلة ، كتبت هاريت ستو الى جامالیل بایلی Gamaliel Bailey محرر صحيفة « العصر القومى » ، وهى جريدة مناصرة لالغاء الرق تصدر فى واشنطون ، وكان بايلى يعرف اسرة بيتشر فى سنسناتى حيث كان يصدر جريدة اخرى مناهضة للرق عنوانها « الخير » ، حتى طرد من هناك فى كثير من العنف . ذكرت مسز ستو فى خطابها أنها تعتزم كتابة قصة اسمها « كابينة العم توم » عن « الرجل الذى كان شيئا » (وهذا عنوان غير فيما بعد الى : (الحياة بين المساكين) فى صورة حلقات تصل الى ثلاث أو اربع . فعرض عليها بايلى ثلثمائة دولار لحقوق النشر ، وبدأت صحيفة « العصر القومى » تنشر الحلقات فى شهر يونية سنة ١٩٥١ .

توقعت مسز ستو أن ينتهى ذلك المؤلف فى شهر ، ولكنه امتد باستمرار فى مناظر وأحداث وشخصيات ومحادثات كانت مكدسة فى ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالأكوام، بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسا . امتدت الحلقات الاسبوعية لمدة سنة تقريبا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة من الوصول الى خاتمة كتابها . بعد ذلك ، أصرت على أن الله نفسه هو الذى كتبه ، ولم أكن أنا سوى أداة فى يده » .

لم تكن الخطة الأصلية لقصة « كابينة العم توم » معقدة ، ولو أنها تتضمن عدة شخصيات . ففى المنظر الافتتاحى : لكى يسدد المستر شلبى ، وهو صاحب عبيد خير من كنتكى ، ديونه ، اضطر الى أن يبيع بعضا من خيرة عبيده ، ومنهم العم توم ، الى

نخاس فى نيو أورليانز اسمه هيلى Haley . فاسترقت السمع فتـاة نصف زنجيـة اسـمها اليزا Eliza فعرفت ان طفلها هارى سيباع أيضا . وفى ديجور الظلام ليلا ، هربت مع ابنهـا وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبا للحرية فى كندا . وكان زوجهـا جـورج هاريس George Harris عبدا فى مزرعة قريـبة ، فهرب هو ايضا ولحق بها . واخيرا ، وبعـد عدة مغـامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التى طاردتهم ، وبمسـاعدة اعضاء جمعية الأصدقاء التى أسسها جورج فوكس ، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم ، على طول الطريق ، وصلوا الى كنـدا ، ثم بعد ذلك الى أفريقيا .

أما العم توم فكان سـيىء الحظ ، اذ رفض الهروب لئـلا يربك سيده ، وفصل عن زوجته وأولاده . وابان الرحلة فى نهر المسيسبى الى نيو اورليانز ، أنقذ توم حياة الصـغيرة ايفا Eva ولكى يعبر أبوها سانت كلير St. Claire عن شـكره لتـوم ، اشتراه من النخاس . . كانت السنتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخـادم فى بيت سـانت كلير المنيف فى نيو أورليانز مع الطفـلة القديسة ايفا ورفيقها الزنجى الصغير توبسى Topsy . ثـم ماتت ايفا ، وفى ذكراها ، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين ، ولكن سانت كلير قتل فجـأة وهـو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين ، فأمرت زوجته بارسال توم الى سوق الرقيق ليباع بالمزاد العلنى ، فاشـتراه مزارع متـوحش سـكير من منطقة النهر الاحمر اسمه سيمون لجرى . وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبذله كل جهد لارضاء سيده القاسى ، فان لجرى سرعان ما بدأ يمقت توم ، وكان يسوطه كثيرا . وحدث أن اعتزمت اثنتـان من الامـاء كاسى Cassy واملين Emmeline الهـرب من المزرعة والاختبـاء فى مكان ما . فاتهم لجـرى توم بمساعدتهما واشتبه فى أنه يعرف أين تختبئان . وعندما رفض

توم الافضاء بأية معلومات ، ظل لجرى يسوطه حتى فقد وعيه . وبعد ذلك بيومين ، جاء جورج شلبى الصغير ابن صاحب توم السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان ، اذ مات توم متأثرا بجراح ضربه الوحشى القاتل . فما كان من جورج الا ان ضرب لجرى فطرحه أرضا ، ثم عاد الى كنتيكى فأعتق جميع العبيد باسم العم توم ، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية الغاء الرق .

رغم ان توزيع صحيفة « العصر القومى » لم يكن ضخما . فقد حظى كتاب « كابينة العم توم » باقبال حماسى فى خلال بضعة أشهر . وقبل ظهور الباب الأخير اخرج وليد أفكار مسز ستو من المطبعة فى صورة كتاب . تعهدت مؤسسة جون ب . جيويت John P. Jewett فى بوسطون بهذا العمل فى خوف عظيم بسبب طوله ، من جهة ، وكون مؤلفته امرأة ، من جهة أخرى ، وعدم شعبية موضوعه . ولكى يحتاط جيويت ضد أى خسارة مالية ، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف تكاليف الانتاج . ولكن ، بدلا من ذلك ، اختارت أسرة ستو أن تحصل على ١٠٪ من ثمن النسخ المبيعة ـ فأضاع عليهم هذا القرار ثروة .

لم يكن كل من الناشر والمؤلفة متفائلا من نجاح « كابينة العم توم » . فعبرت مسز ستو عن أملها فى أن يأتيها ذلك الكتاب بما يكفى لشراء ثوب جديد من الحرير . كانت الطبعة الأصلية ٥٠٠٠ نسخة من جزءين ، وقد رسم على وجه الغلاف صورة كوخ زنجى .

بيعت ٣٠٠٠ نسخة فى اليوم الاول للنشر ، وبيع الباقى كله فى اليوم التالى ، بينما تدفقت الطلبات . وفى خلال أسبوع بيعت ١٠٠٠٠ نسخة ، وفى نهاية السنة الاولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠ نسخة فى الولايات المتحدة وحدها . كانت ثمانى آلات طباعة آلية

تعمل ليل نهار لسد المطلوب ، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم . ورغم هذا ، كان الناشر لا يزال فى حاجة الى ألوف من النسخ لسد الطلبات . » ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة فى الدولة قد قرأ هذا الكتاب .

كانت شهرة « كابينة العم توم » فى الخارج تزيد على المبيعات فى الولايات المتحدة نفسها . ارسل موظف صغير لدى بوتنام Putnam نسخة الى ناشر انجليزى ، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه . فظهرت عدة طبعات مسروقة ، اذ لم تكن هناك حماية دولية لحق التأليف . وسرعان ما كانت هناك ثمانى عشرة مؤسسة انجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة . وقدر أنه فى خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة فى بريطانيا العظمى والمستعمرات . ولم تحصل مسز ستو على اى شىء من ثمن كل هذه المبيعات وفى الوقت نفسه ، كان الناشرون الأوروبيون مشغولين بجنى ثمار ذلك المحصول الذهبى . فقد ترجم هذا الكتاب الى اثنتين وعشرين لغة على الأقل ، ولقى النجاح فى فرنسا والمانيا والسويد وهولندة والدول الأخرى بمثل النجاح الذى لقيه فى الدول المتكلمة بالانجليزية .

وزيادة على ذلك ، حولت هذه الرواية الى مسرحية وصارت واحدة من اشهر المسرحيات التى مثلت فى المسارح الأمريكية ، وظهر منها عدد لا يحصى من الطبعات قام بها جماعات مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضى . ومرة اخرى ، لم تكسب مسز ستو شيئا ماليا ، اذ أن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذى كان سائدا فى سنة ١٨٥٢ لم يعطها اشرافا على تحويل روايتها الى مسرحية . وعلى اية حال ، لم تستحسن مسز ستو تحويلها الى مسرحية ، ورفضت أن تطلب تصريحا بتحويل كتابها الى مسرحية .

وبالجملة ، فان ما أحرزه كتاب « كابينــة العم توم » من شهرة وربح ، لم يحرزه أي كتاب آخر فى تاريخ النشر ، فيما عدا التوراة الذى ضرب الرقم القياسى فى المبيعات . صار هذا الكتاب ملكا للملايين فى شتى صوره : الخيالية والمسرحيــة والشــعرية والموسيقية ، كما طاف حول الكرة الأرضية .

كان تأثير كتاب « كابينة العم توم » على الرأى والعــواطف المعاصرة هائلا مثل ضخامة مبيعاته . وفيما بعــد وصف ابن مسز ستو وحفيدها اقبال الناس ، بقولهما : « كان مثل اشعال حريق ضخم ، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العــواطف الجــارف الذى اكتسح أمامه كل شيء وعبر المحيط الشاسع نفســـه ، حتى بدا أن العالم كله قلمــا كان يفــكر فى شيء أو يتحــدث عن شيء سواه » .

بيد انه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والانكار والقدح ، انصبت على مؤلفــة « كابينــة العم توم » . وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور . وامتلأت أعمــدة فى الصــحف من النقــد المفصــل بقصد اظهار أخطــاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق . ومن التعليقــات النموذجيــة ، تقرير صحيفة « الرسول الأدبى الجنوبى » القــائل بأن ذلك الكتــاب « بغاء اجرامى لوظائف الخيال السامية » ، وأن مســز ســتو ، اذ اقترفت اثما بتأليفه ، « قد وضعت نفسها خارج نطاق العــلاج الطيب على يدى النقاد الجنوبى » . وتسلمت مسز ستو شخصيا ، الوفا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب .. وفى البداية ، انتشر توزيع كتاب « كابينة العم توم » فى الجنوب بحرية ، غــير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير ، صار مجرد حوزة نســخة من هذا الكتاب ، خطرا أى خطر .

ومن قبيل التهكم ، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بان روايتها

« كابينة العم توم » قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذى طال امده . وبعد أن قرأ احد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب ، كتب اليها يقول : « سيكون كتابك مصلحا عظيما يوحد بين الشمال والجنوب » .. حاولت مسز ستو فى كتاب « كابينة العم توم » ان تقدم فى عدل طرفى النزاع فى جدال الرق ـ التصورى والدينى من ناحية ، والقاسى المتشائم من جهة أخرى . صور اثنان من أصحاب العبيد فى ذلك الكتاب ، هما المستر شلبى وأوجستين سانت كلير ، وهما أخوان من الجنوب عظيما الفضل . وربما كانت ايفا الصغيرة ، ابنة سانت كلير أكثر الاطفال ملائكية فى الأدب كله . أما الوغد الأعظم سيمون لجرى فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت Vermont . كما يتحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين اخريين من نيو انجلاند هما مس أوفيليا Miss Ophelia وماركس Marks . وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالى الشمال ينقصهم الوعى الكافى بصفة قاطعة عن الزنوج ، ومع ذلك ، فقد يعطفون عليهم فى شىء من الغموض .

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لارضاء استياء الجنوب . فقد توالت الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق . مثال ذلك : أشير الى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة ازاء قتل العبيد مثلما هى صارمة ازاء قتل البيض ، وتحرم اللوائح عادة فصل الاطفال ، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، عن أمهاتهم . هذا ، والعبيد كممتلكات بالغو القيمة فلا يجب اساءة معاملتهم اساءة خطيرة .

أما فى الشمال ، فاستقبل كتاب « كابينة العم توم » استقبالا مختلطا : فحتى البعض ، الذين يمقتون الرق ، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يثير حربا أهلية . كما ذمه اهل الشمال

المستثمرون أموالا فى أعمـــال قطن الجنوب خشـــية أن يعرض استثماراتهم للخطر . وعبرت صحيفة التجارة النيويوركيـــة عن وجهة نظرهم هذه فى نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو . ومع ذلك ، فعموما ، تقبل القراء الشماليون « كابينة العم توم » على أنه اتهام حق لنظام الرقيق . ولما لم يعمل شيء غير ذلك ، تحرك الضمير القومى والغرائز الانســانية فأثارت هــذه القصة وأصابت نغمات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول أرواحا بشرية .

ومن الآثار المباشرة لكابينة العم توم ، استحالة التصــديق على قانون العبيــد الهاربين . فكان عدم التعــاون مع القــانون اجماعيا خارج الجنوب . والأشــد من ذلك ، أن ذلك الكتــاب ألهب مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق، وربما جعل من المحتم نشوب حرب أهلية وبالتأكيد ، كان هذا الكتاب السبب الاكبر فى ذلك الالتحــام المنتهى بكارثة ، كمــا أدرك ابراهام لنــكولن Abraham Lincoln وهــو يصــافح مســز ســتو عنــدما زارت البيت الأبيض فى سنة ١٨٦٢ ، وقال عنها انها « السيدة الصغيرة التى كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة . » وابدى تشــارلز ســـمنر Charles Sumner ملاحظته بأنه « اذا لم يؤلف كتاب « كابينة العم توم » ، فما كان لابراهام لنــكولن أن ينتخب رئيسا للولايات المتحدة » .

أما القيمة الأدبيــة لكابينة العم توم ، فلم تلق الا اهتماما سطحيا فى بادىء الأمر ، رغم أن النقاد جميعا ناقشوها فيما بعد . ولاحظ المــؤرخ جيمس فــورد رودز James Ford Rhodes أن « الأســلوب عادى ، واللغة ، فى أغلب الاحوال ، مبتــذلة وغير أنيقة ، وتنقلب أحيــانا الى اللغة العاميــة ، والدعاية متكلفة » . وناقش أحــد النقــاد الجنوبيين وهو ســـتارك ينج Stark Young

استخدام مسز ستو للهجة الزنوج ، فيقول : « رات كثيرا من السود ، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون . اذنها مستحيلة ، ليس لديها احساس بوقع لغتهم أو حيويتها.» ويشير فان ويك بروكس Van Wyck Brooks الى « عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية . » ورغم هذا ، يصفه بأنه «وثيقة انسانية عظمى» . وتعتقد معلقة حديثة أخرى ، هى كاثارين أنثونى Katharine Anthony أن «كابينة العم توم قصة وصورة للاخلاق الامريكية .. وتستحق التقدير السامى بغير ماريب . ومن الجلى أن مسز ستو مولعة بالجنوب . فبينما هي تمقته لأنه فى جانب الرق ، نراها تصور جوه بحرارة وعطف . كانت طليعة الكتاب الامريكيين فى تناول مسألة الزنوج بجدية ، وتتخيل قصة بطلها رجل أسود . ورغم انها كتبت لغرض أخلاقى ، فقد نسيت المؤلفة الغرض الأصلى احيانا فى متعة انسياقها فى سرد قصتها . » اما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظمى كوثيقة اجتماعية أكثر منها عمل فنى أدبى أو كلاسيكى . وبالتأكيد هى أكثر من مجرد قصة ، كما وصفها قلم «كاو» فيقول انها : «مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات » .

اكسب كتاب « كابينة العم توم » مسز ستو ، فى الحال ، شهرة عالمية . ففى السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات الى الخارج ، زارت فيها انجلترا واسكتلندة ، حيث التقى ورحب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة المالكة وعلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير البرت وديكنز Dickens وجورج اليوت George Elliot وكنجزلى Kingsley ورسكين Ruskin وماكولى Macauly وجلادستون Gladstone وفى رحلتها المظفرة هذه ، استقبلها ، بحماس بالغ ، عامة الشعب

الذين رأوا فيها بطلة المساكين وفى ادنبره Edinburgh قدموا لهـا هدية بنسا قوميا بلغت حصيلته الف جنيه ذهبى لمساعدتها فى محاربة الرق .. لم يسبق قط أن مؤلفا أمريكيا خلق مثل هذه الاثارة البالغة ، ولا استقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار فى الجزر البريطانية .

وقد حاولت مرارا البرهنة على ان صورة الرق المرسومة فى كتابها ليس فيها اية مبالغة ، ولا هى « وليدة الأكاذيب » كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحا لكابينة العم توم ، التى قالت انها « ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التى ستبنى عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة العم توم » . وينقسم هذا المؤلف الى أربعة اقسام تبدأ بوصف الشخصيات لتثبت انهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية . ويشمل القسم الثانى قوانين العبيد مبينا أن اللوائح القائمة لا تحمى العبيد ، ثم يأتى سرد حياة العبيد كأفراد ، واخفاق الرأى العام فى حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقى للرق على الأعمال الحرة فى الجنوب . وأخيرا ، وجه اتهام للكنائس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق .

كانت نشرة « المفتاح » ضعيفة ، وعيبها الخطير انها جمعت مادتها بعد ظهور « كابينة العم توم » ، وكان الكثير من تلك المادة مبنيا على الشائعات . وعلى ذلك لم تحرز نجاحا مع الشعب ، ولم تضف الا القليل من القوة لاتهام رواية « كابينة العم توم » . وكمثال للعدل الالهى ، قام الناشر الانجليزى الذى سرق « كابينة العم توم » وطبعها فى انجلترا ، بطبع خمسين الف نسخة من نشرة « المفتاح » متوقعا ضربة حظ اخرى ، ولكن هذه الأخيرة كانت سبب افلاسه .

كتبت مسز ستو بقلمها الكثير التصانيف ، مؤلفا آخر عن الرق ، هو رواية « دريد Dred » وهى « قصـــة المســـتنقع العظيم المشئوم » ، التى نشرت فى سنة ١٨٥٦ ، وبيع منها مائة الف نسخة فى أربعة أسابيع ، رغم انهـا لم تصـل الى شـهرة « كابينـة العم توم » كانت فكرة المؤلفـة فى « دريد » هى الأثر السـيىء لنظام الرق على الرجـل الأبيض ـ كل من المالك ، ومستأجر المراعى الأبيض الفقير . كان الخلط بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص، مسرحيا . . ورواية «دريد» هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء ، والوعاظ المطالبين بانعاش الفقراء ، وحياة المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة ، مثل العم توم ، لتحظى بعطف القارىء .

أنتجت مسز ستو ، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة ، سيلا لاينتهى من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية . ولمدة ثلاثين عاما تقريبا ، كان متوسط انتاجها كتابا واحـدا فى كل عـام . ولكنها تركت موضوع الرق فى معظم انتاجها . وفى أثناء الحـرب الاهلية ، كان أهم ما أسهمت به خطابا الى نساء انجلترا تذكرهن باستجابتهن الشاملة والمحبذة لكتاب « كابينة العم توم » ، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة أعوام ، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنـوب ، وأعمالهن بعد نشوب الحرب . ونتيجة لذلك الخطاب ، عقـدت اجتماعات كبيرة فى الجزر البريطانية بقصد تغيير الرأى الانجليزى الحاكم نحو قضية الاتحاد . وعلى هذا ، فربما لعب خطاب مسز ستو دورا هاما فى منع التدخل الانجليزى ، فى وقت كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالى للخطر .

عند تقدير مركز هاريت بيتشر ستو فى التاريخ ، قال كـيرك مونـرو Kirk Monroe : « انهـا لا تقف فقط فى مقـدمة

الصف الامامي بين نساء العالم ، بل وفى تشكيل مصير الشعب الامريكى ، فى فترة حرجة اشد الحرج فى تاريخهم ، كان نفوذها أقوى من نفوذ أى فرد آخر ... وبالطبع لايمكن لأى فرد انجاز منع الرق وحده ، ولايمكن ان يقوم به اى شخص واحد » .
واشار مونرو وهو يستعرض العناصر التى حققت النصر النهائى ، قائلا : «ولكن أعظم هذه العناصر كلها ، وأقواها تأثيرا هو «كابينة العم توم» .

ربما كان التقدير النهائى لكتاب «كابينة العم توم» ، والذى أمكن ذكره بعد قرن ، هو ماقررته مؤلفة أخرى اسمها كونستانس رورك Constance Rourke ، اذ قالت : « ولو انه تهشم من فرط الهياج الذى صاحب حياته المستقبلة ، ورغم عيوبه فى بعض الامور الاساسية ، فمازال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة ، صفات تفند التهمة السهلة العادية ، وهى المبالغة . والواضح أن هذا الكتاب يفتقر الى الواقعية الحقيقية ، ولكن ربما كان من الواجب الا نحكم عليه بالواقعية اطلاقا . ومن الجلى أنه ينقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصين بالكتابة العظيمة . ليست عاطفيته حرة قط ، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار ، انها تجرى فى سباق لا نهاية له ، ويبدو أن الهستيريا قد خلقت هذا السباق . بيد أن القوة السليمة لتلك العاطفة أنتجت اتساعات فى امتدادها ، واتزانات غير محسوبة ، ويذكر امتصاصها المتدفق بالنتيجة الضخمة للعمل ، ومجموعاتها المفككة للاقدار المتشابكة ، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم . كما أنها تتصف ، قبل كل شيء . بالحركة المؤثرة نحو أهداف مجهولة على مسافات طويلة

تغـــدو الفكرة التى لاتقاوم للسرد الاعظم . المذكور هنا بالعواطف العميقة ، لان المغامرة ليست حرة ابدا ، وانما تقطع دائمـــا عنـــد نهايتها ، أو تساق الى الخطر .

وقـــد اكـــد فان ويك بروكس Van Wyck Brooks أن «كابينة العم توم» قد نقل من الجو الذى كتب فيه ، ورغم ذلك ، بقى صورة شعبية عظمى لعصر ولأمة » .

٧ ــ عراف طبقة العصاميين

كارل ماركس KARL MARX

راس المال DAS KAPITAL

قال فــريدريك انجـــلز Friedrich Engels فى رثائه لكارل ماركس : « كان ماركس ، قبل كل شيء ، ثــوريا هــدفه المظيم فى الحياة أن يتعاون بهذه الصورة أو تلك ، لقهر المجتمع الرأسمالى ومؤسسات الحكومة التى خلقها» . بهــــذه الالفاظ لخص معاون ماركس وتلميذه وأخلص أصدقائه ، فى ايجاز ، القوة الدافعة فى حياة ذلك المتمرد الاجتماعى الشهير .

ولد ماركس فى عصر كثير الشغب . كان الجــو مشــحونا بالتمرد والقلق . كانت ذكرى الثورة الفرنســية مازالت عالقة بالاذهان ، وثورة أخرى قريبة . وتميزت السنوات العشر التالية بمرارة عامة واسعة النطاق ، وبالتذمر والنقد ضـــد الحــكومة القائمة . وفى سنة ١٨٤٨ نمت هذه الحالة الى قوة متفجرة ، ونشبت الثورات خلال أوروبا . وحتى فى انجلترا ، قامت حركة

العمال مطالبين باشراكهم فى السياسة ، وهددت الحكومة القائمة وقتذاك . سرى الضغط فى كل مكان لتخفيف حدة سوء المعاملة الناتج عن مبدأ العمال الجديد ، والغاء بقايا الاقطاع . كان الوقت مناسبا جدا لميول كارل ماركس الهدامة والمناهضة للكنيسة .

درس ماركس الصغير القانون والفلسفة فى بون Bonn وبرلين بهدف الحصول على منصب أستاذ ، ولكن الباب أقفل فى وجهه بسبب آرائه الملتوية والمتزايدة بأطراد ، فاتجه نحو الصحافة . تأسست صحيفة دورية جديدة اسمها Rheinische Zeitung فى سنة ١٨٤٢ ، فصار ماركس أول مكاتب لها ، ثم مالبث أن صار رئيس تحريرها . وبسبب الهجوم المتكرر لتلك الصحيفة على حكومة بروسيا Prussia ، واتجاهها المتطرف عموما ، أوقفت عن الصدور وعمرها لايزيد على السنة الا قليلا .

انتقل ماركس الى باريس ليدرس الاشتراكية ، ويكتب فى جريدة أخرى قصيرة الاجل اسمها Franco-German Year Books فتعرف هناك على أهم ممثلى الفكر الاشتراكى والشيوعى . وأهم حادث فى حياته ومستقبله هو بداية صداقته التى استمرت طول حياته مع فريدريك انجلز وهو زميل المانى غنى نسبيا، وابن صاحب مصنع للقطن ، ومن انصار المثل الاشتراكية ، مثل ماركس نفسه . وضع انجلز أساس كتاب ماركس « Das Kapital اى راس المال » فى سنة ١٨٤٥ مع نشر كتابه «حالة الطبقات العاملة فى انجلترا» .

واذ استمر ماركس فى اثارة الآراء ضد الحكومة البروسية ، طردته السلطات الفرنسية على انه اجنبى غير مرغوب فيه . فلجأ الى بروكسل Brussels وبقى فيها ثلاث سنوات ثم عاد الى ألمانيا لمدة قصيرة ، ونفى ثانية فعاد الى باريس ابان

ثورة ١٨٤٨ ، وفى تلك السنة ، بالاشتراك مع انجلز ، كتب ونشر كتيبه «الشيوعى البين» الشهير ، وهو أحد الاعمال الادبية المتطرفة ذات الاثر القوى والبالغة العنف ، التى أخرجتها المطابع . ويختتم هذا الكتيب كلامه بصيحة تحريض على الثورة :

« يعتبر الشيوعيون أنه من الامور السطحية ان يخفوا آراءهم ونواياهم . أنهم يقررون فى صراحة أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها الا باستخدام العنف فى قلب النظام الاجتماعى المعاصر كله . فلترتجف الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية . لن يخسر العمال غير قيودهم . وأمامهم العالم كله ليربحوه . أذن ، فاتحدوا ياعمال العالم» !

أينما ذهب ماركس ، كان بالغ النشاط ومثيرا عدائيا ، ينظم حركات العمال ، ويرأس تحرير الصحف الشيوعية ، ويثير التمرد .

جعل تدهور الثورات الاوروبية ١٨٤٨ ــ ٤٩ الدنيا ضيقة جدا لاتتسع لماركس . هاجر الى انجلترا فى صيف عام ١٨٤٩ وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، وقضى آخر حياته فى لندن . وتزوج قبل ذلك جينى فون وستفالين Jenny von Westfalen ابنة موظف بروسى ، بقيت معه حوالى أربعين سنة شريكته الوفية تقاسمه فترات الفقر المدقع والحرمان وسوء الحظ لم يعش من أولادهما الستة غير ثلاثة . ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان . ومما لاشك فيه ، أن ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لونت آراء ماركس ، وتعد مسئولة عن الحقد والمرارة فى كتابته . ولم ينقذ أسرة ماركس من الموت الحقيقى جوعا سوى المساعدات المالية ، فى كثير من المرات ، من فريدريك انجلز . وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه ، جنيها واحدا فى الاسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك

تريبيون New York Tribune ، وبعض الاجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة .

ورغم البؤس والدائنين الملحين ، والمرض والحاجة ، التى احاطت به باستمرار فى منطقة سوهو Soho القذرة ، التى اقام بها فى لندن .. كان كعادته دائما ،لايكل فى تقدمه فى القضايا الاشتراكية سنة بعد سنة . كان يذهب الى المتحف البريطانى لفترات تصل الى ست عشرة ساعة فى اليوم ، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفه الذى سيكون عنوانه Das Kapital اى رأس المال . ومع عدم حساب فترات التعطل عن التأليف بسبب الاعمال الاخرى والمرض استغرق اعداد هذا الكتاب أكثر من ثمانى عشرة سنة . اما انجلز الذى كان يعول أسرة ماركس فى تلك الاثناء ، فقد يئس من اكمال الكتاب ، وقال : «اليوم الذى تذهب فيه النسخة الخطية الى المطبعة ، سأسكر طينة » . كما اشار اليه هو وماركس بقولهما : « ذلك الكتاب اللعين» ، واعترف ماركس بأنه «كابوس حقيقى» .

كان اعظم حادث فى حياة ماركس ابان هذه السنين هو تأسيس أول جمعية دولية للعمال الرجال فى سنة ١٨٦٤ ، والتى تعرف الآن باسم الدولية الاولى . انها مجهود لضم الطبقات العاملة فى العالم كله معا فى جمعية دولية . هذا ، ورغم أن ماركس كان متقاعدا أمام الجمهور ، فقد كان القوة المحركة وراء العرش ، وكان يكتب معظم مستندات الجمعية وعناوينها ولوائحها وبرنامجها . غير ان العراك الداخلى والمنافسة على الرئاسة والنزاع الذى وقعت فيه الجمعية بعد فشل تمرد باريس فى سنة ١٨٧١ ، كل هذه ادت الى حل الجمعية . وبعد ذلك أعقبتها الجمعية الدولية الثانية ، وتمثل الجماعات الاشتراكية الغربية.

ثم الجمعية الدولية الثالثة أو الكومنترن Comintern للعالم الشيوعى .

واخيرا انتهت مدة تأليف كتاب «رأس المال» . ففى أواخر سنة ١٨٦٦ ، أرسلت النسخة الخطية للجزء الاول الى هامبورج Hamburg . وفى أوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الألمانية . ولم تكن هناك ترجمه انجليزية له الا بعد حوالى عشرين سنة . وأول ترجمة الى لغة أخرى على ضوء أحداث المستقبل — كانت باللغة الروسية فى سنة ١٨٧٢ .

كانت انجلترا فى عصر ماركس ، المعرض الأول لأعمال النظام الرأسمالى . وعلى ذلك اخذت الأمثلة الموضحة لنظرياته الاقتصادية ، كلها تقريبا ، من تلك المملكة . كانت الأمثلة المروعة كثيرة ، لأن تنظيم الرأسمالية فى منتصف العصر الفيكتورى كان فى اسوأ حال بها فكانت الأحوال الاجتماعية بين عمال المصانع سيئة بما يعجز عنه الوصف . واذ بنى ماركس أبحاثه على التقارير الرسمية لمفتشى الحكومة . فقدم الحقائق دقيقة فى كتاب « رأس المال » . قامت السيدات بجر القوارب فى الترع بالحبال المربوطة فى أكتافهن ، طوال الطريق . وربطت السيدات الى العربات كما تربط دواب الحمل ، لنقل الفحم الى خارج المناجم البريطانية . أما الأطفال فكانوا يعملون فى مصانع النسيج عندما يبلغون التاسعة أو العاشرة من العمر ، ولمدة خمس عشرة ساعة فى اليوم . ولما جاءت أدوار العمل ليلا ، كانت الأسرة التى ينام فيها الأطفال دافئة دائما لا تبرد اطلاقا ، اذ كانت تستعمل بالدور . وقد أنشب السل وغيره من أمراض الأماكن المزدحمة أظفاره فيهم وقتلهم فى نسب عالية .

لم تكن الاحتجاجات على هذه الأحوال الفظيعة قاصرة على

ماركس بحال ما ، فان الكتاب الرقيقى القلوب المختصين بالأمور الانسانية امثال تشارلز ديكنز وجون رسكين وثوماس كارليل ، كتبوا كثيرا فى حماس شديد ، يطلبون الاصلاح .. واثير البرلمان أخيرا الى اصدار تشريع اصلاحى .

زها ماركس كثيرا بشرحه العلمى للمسائل الاقتصادية والاجتماعية . وكما قال انجلز : « كما ان داروين اكتشف قانون التطور فى الطبيعة العضوية ، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور فى التاريخ الانسانى . » ذكر ماركس ان الظواهر الاقتصادية « يمكن ملاحظتها وتسجيلها بالدقة الملائمة للعلوم الطبيعية . » ويشير كثيرا الى مؤلفات علماء الاحياء والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) . ومن الجلى أنه كان يأمل فى أن يصير « داروين علم الاجتماع » أو ربما « نيوتن الاقتصاد » . وبالتحليل العلمى للمجتمع ، اعتقد ماركس أنه اكتشف كيف يمكن تحويل العالم الرأسمالى الى عالم اجتماعى .

أسهمت طريقة ماركس « العلمية » كثيرا فى تفهم الناس له على نطاق واسع ، لأن فكرة التطور فى جميع المجالات قد جذبت خيال القرن التاسع عشر . ويربط نظريته عن التنازع التاريخى بنظرية داروين عن النشوء أو التطور ، فأضفى الوقار على آرائه ، وفى الوقت نفسه جعلها ، حسب اعتقاده ، غير قابلة للدحض .

فى رأى ماركس واتباعه ، أن اسهامه البالغ فى دراسة الاقتصاد والتاريخ وغيرهما من العلوم الاجتماعية الأخرى ، كان تقدما لمبدأ أطلق عليه « المادية الجدلية » وهو مصطلح غامض عسير الفهم ، ولو أنه مشروح شرحا وافيا فى كتابات سابقة ، فان كتاب « رأس المال » يستخدم هذه النظرية بالتفصيل .

اخذ ماركس الطريقة الجدلية عن الفيلسوف الالمانى هيجيل Hegel ، وتقول فى جوهرها أن كل شىء فى الدنيا فى حالة تغير

مستمر . ويتحقق التقدم بتفاعل القوى المتعارضة ، كل مع الأخرى . فمثلا : بتعارض النظام الاستعمارى الانجليزى مع الثورة الامريكية نتجت عن ذلك الولايات المتحدة . وكما عبر عن ذلك لاسكى Laski بقوله : « قانون الحياة هو تجارب المتناقضات ، وينتج عنها النمو » .

قاد هذا التمهيد ماركس الى تكوين نظريته عن « المادية التاريخية » أو «التفسير الاقتصادى للتاريخ» قال ماركس وانجلز فى جدالهما : « ما تاريخ كل المجتمع الحاضر سوى تاريخ نضال الطبقات : الحر والعبد ، والنبلاء والعوام ، السيد والمسود ، رئيس المؤسسة وعامل المياومة ، وبالاختصار ، وقف الظالم والمظلوم ، كل منهما فى مواجهة الآخر ، ونشبت بينهما حرب مستمرة » .

قال انجلز وهو يقرظ ماركس :

« لقد اكتشف الحقيقة البسيطة المختبئة تحت «الأعشاب» الفكرية ، وهى أن الكائنات البشرية يجب أن تحصل على الطعام والشراب والملبس والمسكن ، أولا وقبل كل شيء ، وقبل أن تجد المتعة فى السياسة والعلوم والفن والدين ، وما الى ذلك . وهذا يتضمن أن انتاج اللوازم الضرورية للحياة ، وطور التقدم الاقتصادى الحالى لأمة أو لحقبة من الزمان ، تكون الأساس الذى بنت عليه الحكومة نظراتها القانونية والأفكار الفنية والدينية لأولئك المختصين » .

وقصارى القول ، ان التنازع من اجل الطعام والمأوى نزاع بالغ القوة ويقرر كل شيء آخر من الأمور البشرية .

وتاريخ البشرية ، تبعا لماركس ، هو أولا ، قصة استغلال طبقة لأخرى . وفى عصور ما قبل التاريخ ، كان هناك مجتمع

قبائلى أو مجتمع لا طبقى . أما فى العصـــور التـاريخية فيقول ماركس : « تكونت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية ، أولا عبيدا ثم خدما (الحالة الاقطاعية) ثم عبيدا بالأجر لا يمتلكون شيئا (العصر الرأسمالى) » . وبتطبيق نظرية « المادية الجدلية » ، اقتنع ماركس أن الخطوة الحتميـة بعـد ذلك هى تمرد العمـال و « دكتاتورية الطبقة العصامية » يتبعه الملكية الشيوعية والعودة الى نظام المجتمع اللاطبقى .

طور ماركس ، فى كتابه « راس المال » قضيته ضد النظام الرأسمالى ، ليبرهن ، فى تقديره ، على أن هلاكه أخيرا واختفاءه أمران لا مفر منهما. وهنا كون مايعتبره الشيوعيون عموما اسهامه الثانى البالغ الأهمية فى العلوم الاجتماعيـة ، وهى نظرية قيمـة العمل . كذلك لم تكن هذه أصلا نظرية من تفكير ماركس . فاذ سار على نهج علماء الاقتصاد الأكبر منه سنا ، وهما آدم سميث ودافيد ريكاردو ، اكد أن العمل مصدر كل القيم . وذكر ماركس فقرة من بنيـامين فرانكلين ، الذى لاحظ ، منـذ قرن مضى أن « التجارة ليست الا مبادلة عمل بعمل . وتقاس قيمة كل شىء بالعمل . » واخذ عن سميث تعريف راس المال بأنه « كمية معينة من العمل مكتلة ومحفوظة فى صورة احتياطى » كما أن ريكاردو اقترح أن ثمن أية سلعة وقيمتها يجب أن يقـدر بكميـة العمـل الداخلة فيها .

اتخذ ماركس هذه الأقوال كمقاييس بنى عليها نظريته عن « قيمة الفائض» . فذكرها أولا فى مقاله «نقد الاقتصاد السياسى» (سنة ١٨٥٩) ، ثم نقحها وذكر الصورة المنقحة فى كتابه « رأس المال » . ولما كان العامل لا يملك شيئا ، فليس لديه غير سـلعة واحـدة ليبيعها ــ وهى عمله . ولكى يتحاشى الموت جوعا ، يجب عليه أن يبيعها. وتبعا للنظام الاقتصادى السائد، يشترى صاحب

العمل هذه السلعة بأقل ثمن ممكن . اذا ، فالقيمة الفعلية للعمل تزيد كثيرا على الأجر المدفوع . فالعامل الذى يدفع له صاحب العمل أربعة شلنات فى اليوم ، يكسب هذا المبلغ فعلا فى ست ساعات ، ولكن يطلب منه أن يعمل عشر ساعات ، اذن فصاحب رأس المال يسرق من العامل تلك الساعات الاربع الزائدة . واذ فسر الأمر على هذا النحو ، فان الأرباح ، وفوائد المبالغ والاوراق المالية ، وايجار المساكن ونحوها ، مشتقة كلها من قيمة كد العمل الزائد المسروق من العمال . اذن ، يمكن أن نستنتج منطقيا أن نظام صاحب رأس المال ليس سوى طريقة شريرة وضعت لاستغلال طبقة العمال وسرقتهم .

ولو أن نظريات ماركس عن القيمة وقيمة الفائض كانت قيمة لأغراض الدعاية والتحريض على الثورة ، فان علماء الاقتصاد عموما يعتبرونها الآن غير صحيحة وعديمة الأهمية . ومن العوامل التى جعلتهم ينبذونها ، ازدياد استخدام الآلات التى تنتج أنواعا كثيرة جدا من كميات العمل المطلوب لمختلف السلع . وقال فريهوف Freehof ، « يكتشف الكيميائى اكتشافا واحدا عن خصوبة التربة ، فيضاعف مائة مرة انتاج عشرة ملايين من العمال الزراعيين . اذا ، فالكيميائى هو الذى خلق قوة الانتاج .» وقال ناقد آخر فى دحض هذه النظرية : « يغوص الناس من أجل اللآلىء لأنها عظيمة القيمة . وليست اللآلىء ذات قيمة عالية لأن الناس يغوصون من أجلها . » لم يعلن ماركس أن العلم أو التكنولوجيا أو الفن أو التنظيم ، يضيف شيئا الى القيم والأسعار .

والواقع ان علماء الاقتصاد لم يتفقوا أبدا على طريقة لقياس القيمة رغم قرنين من التفكير والكتابة عن هذا الموضوع . ويبدو أن الطلب والمنفعة هما المعايير الأكثر قبولا على نطاق واسع .

وكما علق بارزون Barzun : « حطم علم الاقتصاد الحديث نظرية ماركس ، ولكنه لم يقدم نظرية علمية لتحل محلها » .

اما نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادته الى الخطوة التالية فى فرضه . فلكى يقابل كل رأسمالى المنافسة الوحشية ، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى ، مثل : اطالة ساعات العمل ، أو تخفيض الأجور أو استخدام طريقة المد « Stretch out » ويستخدم مزيدا ومزيدا من الآلات لتقلل العمل وتسرع الانتاج . وباستخدام الآلات التى تحتاج فى ادارتها ، الى قوة بدنية أقل . ويمكن استبدال الرجال بعمل النساء والأطفال الأرخص اجرا . ويصف ماركس نتيجة ذلك ، هكذا :

انهم يشوهون العمل الى جزء من رجل ، وينزلونه الى مستوى قطعة زائدة بالآلة ، ويحطمون كل بقية من الجمال فى عمله ويحولونه الى كد مقيت . ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم فى ذلك العمل كقوة مستقلة . ويشوهون الظروف التى يعمل فيها ويعرضونه اثناء عملية العمل الى استبداد مقيت جدا لوضاعته ، ويحولون عمره الى وقت عمل ، ويجرون زوجته وطفله تحت عجلات تمثال رأس المال .

وهكذا يلح ماركس بأن استخدام الآلات لاسراع الانتاج وزيادته ، لا يفشل فقط فى تسهيل حظ العامل ، ولكن له آثارا ضارة ، مثل خلق البطالة ، وزيادة انتاج السلع على القدر المطلوب ، وقتل لذة العامل فى عمله ، ويستطرد ماركس قائلا :

« الآلات امضى سلاح لقمع الاضرابات التى هى التمرد الدورى للطبقة العاملة ضد السلطة المطلقة لرأس المال .. كانت الآلة البخارية ، منذ البداية ، خصما مكن الرأسمالى من أن يطأ تحت قدميه المطالب المتزايدة للعمال الذين هددوا نظام المصانع

المولود حديثا ، بأزمة . من الممكن كتابة تاريخ بأكمله عن المخترعات التى ظهرت منذ عام ١٨٣٠ لغرض وحيد هو تزويد راس المال بسلاح ضد تمردات طبقة العمال . »

وبتحريف نظرية مالثوس تحريفا معينا ، يقول ماركس ان زيادة عدد السكان يتبع دائما طريق الراسمالية . يحتاج هذا النظام الى « جيش صناعى احتياطى » لعصور امتداد الانتاج الضخم عند خلق صناعات جديدة أو احياء صناعات قديمة . وفى طبيعة الأشياء ، يجب على قوة العمل الفائض أن تتحمل مددا طويلة من البطالة بعد ذلك تظهر أعظم لعنة للرأسمالية : الكساد والذعر . فبما أن العمال يتقاضون أجورا لا تكاد تفى بما يسد الرمق ، فلا يستطيعون شراء جميع ما تنتجه المصانع ، فتكتظ الأسواق بالبضائع ، وتقل قوة العمل ، ويتبع ذلك كساد عنيف .

ولكى يبحث الرأسمالى عن مخارج للبضائع الكثيرة المكدسة فى مخازنه ، يتجه الى المجالات الأجنبية فيحاول ايجاد أسواق فى الدول المتخلفة فى الخارج ليشحن اليها السلع التى لا يستطيع عماله شراءها . وهذه المحاولة والبحث عن المواد الخام التى تمكن مصانعه من الاستمرار فى العمل بغير انقطاع، تؤدى الى الالتحامات الدولية والحروب الاستعمارية .

أعتقد ماركس ان النتيجة النهائية لنضال الراسمالى وشعبه هى زيادة التركيز والاحتكار، لأن «أحد الراسماليين يقتل الكثيرين دائما . » تختفى الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم . وأخيرا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين . وعندما يأتى ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم ، وتصف احدى فقرات كتاب «راس المال» الأكثر حيوية والجديرة بالتذكر ، الخطوات المؤدية الى حل المشكلة :

« بينما هناك انكماش مستمر فى عدد النبلاء الرأسماليين، فانه يقابله ازدياد فى عدد الفقراء وفى الظلم والاستعباد والانحلال والاستغلال . غير انه ، فى الوقت ذاته ، تزداد باطراد حدة غضب طبقة العمال ، تلك الطبقة التى يزداد عددها ، وهى مطيعة ومتحدة ومنظمة بنفس ميكانيكية طريقة الرأسمالى للانتاج . وان احتكار الراسماليين ليغدو قيداً يغل طريقة الانتاج التى ازدهرت به وحته . هذا ، وتصل مركزية وسائل الانتاج واشتراكية العمل ، الى نقطة تبرهنان عندها على عدم ملاءمتهما لبقاء الرأسمالية . ينفجر هذا ، ويدق ناقوس موت ممتلكات الرأسمالى الخاصة ، اذ أن المالكين السابقين صاروا مملوكين سابقين .

ينتهى صراع الطبقات بانتصار العصاميين .

لما استولى العصاميون على الحكومة ، ثبتوا دكتاتوريتهم . ومع ذلك ، فقد تنبأ ماركس بأن هذه المرحلة « ليست الا فترة انتقال الى الغاء جميع الطبقات ، وخلق مجتمع من الأحرار المتساوين . » لم يحدد الوقت اللازم لاستمرار الدكتاتورية — وهذه نقطة اعتبار ممتعة فى نظر الثمانى والثلاثين سنة فى روسيا السوفيتية التى ظلت فى القبضة الحديدية لنظام سلطة لا تبدى أية علامة على ارخاء تلك القبضة . والحقيقة ان ماركس غامض تماما فى وصف طبيعة مجتمع طبقاته . وبعد أن تقوم الدولة بدورها فى التعليم والتنظيم ، ستذبل الحكومة ، ولن يكون هناك أية قوة أو اتصال وسيسود السلام والرخاء لكل فرد . وسيكون الهدف الرئيسى للمجتمع هو : «التطور الكامل الحر لكل فرد .» وسيكون المبدأ المرشد هو ، « لكل شخص حسب مقدرته ، ولكل فرد حسب حاجاته » .

علق كثير من النقاد على تناقض هذا الحلم الخيالى الجميل، ذلك التناقض البراق وغير المطابق للحقبة السابقة ، حقبة حرب

الطبقات الدموية والوحشية . وعلى أية حال ، فكما كتب هاليت Hallett

ان « المجتمع اللاطبقى » لمـاركس ، مجتمع غامض غموض سماء الفكتوريين الارثوذكس ، ويوحى بقليل من الثقة وقليل من الحماس . فما ان تطـــرد الثورة العالمية الى الخلف ، حتى يكون من الصعب أن تجد شيئا فى عظام الماركســية الجافة ، يثير حماس الناس أو يسوقهم الى قوة احتمال جديدة ، أو محاولات جديدة .

ورغم هذا ، فالماركسية لها قوة الدين لمـلايين الشـيوعيين المناصرين للشيوعية . أما المادية الجـدلية فيمكن أن تكون عقيدة تفوق كل العقائد الأخرى . ويقول ماركس ان الديانات القديمة مثل المسـيحية ، تعلم ايمانا ايجابيا بنصيب الانســان المقسـوم له فى الحياة ، كما تمجد الاذعان والوداعة والهوان . اذن فهى تعمـل « كأفيون الناس » تعمى العصاميين وتقودهم الى حتفهم ، وتضع عقبات ضخمة فى طريق الثورة .

الى أى حد يصدق ماركس ؟ هذا سؤال شـغل الكثير من العلماء الاجتماعيين واللاهوتيين وغيرهم من الكتاب والمفكرين طوال القرن الماضى . ففى كثير من الأســاسيات ، أظهر الزمن أخطـــاء جوهرية فى نظرياته وتكهنـــاته ، وما عاد أى عالم اقتصـــادى غير ماركسى يأخذ ، بعين الجـد ، نظرياته عن العمـل فيما يختص بالقيمة وقيمة الفائض ، وهذه نقطة أساسية فى الفكر الماركسى . ولم يحـــدث ، فى أيـة دولة ، نزاع بين الطبقات أدى الى ثورة العصـــاميين ، كمـا تنبـأ ماركس . وأكد أحـد أتبـاع ماركس المشـــهورين ، وهــو ســيدنى هــوك Sidney Hook ، أن هذا المذهب أيضا ، أساسى للعقيدة الشيوعية ، لأنه كتب يقول :

« اذا أمكن اعتبار حقائق نزاع الطبقات بنجاح ، فان جميع الهيكل النظرى لماركس يتهدم ويسقط أرضا . » .

اتبع النظام الراسمالى طريقا مخالفا تماما ، على الاقل ، فى الأمم الأقل استنارة ، لما تنبأ به ماركس . فبدلا من البؤس والفقر والآلام بين طبقة العمال ، حــدث العكس تماما . قامت اتحادات عمل قوية ، وانظمة حكومية ، لتوقف فائض المنافسات الراسمالية ومنافسات المشاريع . ورغم احتقار ماركس « لعلماء الاقتصــاد والخيرين ، ومن يعطفون على الانسانية ، ومن يعملون على تحسين احوال طبقة العمال ، ومنظمى الصدقات ، وأعضاء جمعية الرفق بالحيوان ، والمتعصبين للاعتدال ، والمصلحين البــاحثين من كل نوع يطرا على المخيلة . » نجح امثال هؤلاء الناس فى تخفيف أسوأ شرور الراسمالية وجعلوا النظام يسير بسهولة معقولة يمــكن أن تتوقعها فى أية لحظة مؤسسة بالغة التعقيد من صنع الانسان . وكمــا علق تقرير حديث فى القرن العشرين كتبــه فنــد Fund « من بين جميع الأمم الصناعية العظمى ، ان الأمة التى تشبثت بالراسمالية الخاصة ، جاءت أقرب الى الهدف الاشتراكى الذى يوفر الرخاء للجميع فى مجتمع لا طبقى ، وهـــذا مســتوى من الرفاهية المادية فوق ما تدركه الغالبية العظمى لسكان العالم » .

علق ماركس آمالا قوية على اضعاف الروابط القــومية بين العصاميين بقصد أن يعــد لهم احســاسا بالتضــامن الدولى بين العمال فى كل مكان . وقد ثبت فشل الحصول على هذا الهــدف المرغوب فى حربين عالميتين ، وبواسطة الحماس القومى المتمثل فى منظر العالم الحالى – ليس أكثر وضوحا مما هو فى روسيا والصين وغيرهما من البلاد الشيوعية . وتبعا لحكم ماركس ، تحدث ثورة العصاميين أولا فى الأمم الاكثر تحولا الى صناعية ، مثــل انجلترا والمانيا والولايات المتحدة بينما روسيا اقل نضجا للتمرد – وهذا تكهن آخر لم تتمخض عنه الأحداث التالية .

اثرت الطريقة الجدلية التى استخدمها ماركس تأثيرا بالغ

القــوة على المؤرخين اللاحقين ، ولو انه كمـا علق وليم هنرى تشـمبرلين William Henry Chamberlin بقوله :

« تفشل طريقة المادية التاريخية لماركس فى أن تكون السبب فى الاختلافات الواضحة بين الناس الموجودين فى نفس مســتوى النمو الاقتصــادى . اهمل ماركس فى حســاب بعض العــوامل الحيوية مثل : الجنس والدين والجنسية . لم يحسب الأهمية العظمى للشخصية البشرية . ومن المشكوك فيه ما اذا كان يمكن تفسير حادث تاريخى واحد تفسيرا صــحيحا بمصــطلحات هذه النظرية » .

ومع ذلك ، فبينما ندرس المغــالطات فى افكار ماركس ، نجــد من الصعب التغلب على تأثيره فى عصرنا . وقد كان تأثيره على العالم الراســمالى مفيدا ، فى نواح معينة هامة . فبتأكيــد عيوب النظام الصناعى ، وبخداع خطر ثورة العمــال ، حدثت اصــلاحات أســاسية . وبالاختصــار اجبر تكرار الشــيوعيين والاشتراكيين المستمر لعيوب الراسمالية ، على تصحيح كثير من تلك الشرور . وبذا قلل كثيرا ، ان لم يمنع تماما ، امكان تمرد المصاميين الذى تنبأ به ماركس .

أما غزو الماركسية لروســيا والصين وغيرهما من المناطق الواسعة الأخرى ، جارفة فى طريقهــا حوالى تسـعمائة مليــون شخص ، فكان هو المشكلة الأكثر الحاحا فى العالم الحــديث . ومن قبيل التهكم : كان ماركس يضمر احتقــارا بالغــا للروس عموما ، وللثوريين خصــوصا . فان اســتنتاجاته فيما يختص بالحكم القيصرى فى عصره ، لتليق بروسيا الشيوعية : «سياسة روسيا لا تتغير . قد تتغير طرقها وتكتيكها ومناوراتها ، ولــكن النجم القبطى لسياستها (سيادة العالم) نجم ثابت » .

الواقع الآن ، ان روسيا تنفذ القليل من آراء ماركس ومثله عن الشيوعية . وكما لاحظ الرئيس ترومان Truman في عام ١٩٥٠ ، ليست روسيا دولة شيوعية ، ولم يكن ستالين Stalin شيوعيا احمر . فمثلا هناك دكتاتورية فى الحزب الشيوعى ، أو بالحرى ، سلطة كهنوتية ، أكثر منها دكتاتورية حقيقية للعصاميين .

يقول ماركس ، سرعان ما « ستذبل » الحالة السياسية ، ولكنها ازدادت قوة أكثر فأكثر بمرور الزمن . فابتداء من لنين Lenin ، وجد القادة الشيوعيون أن الوعظ بمبادىء ماركس اسهل من ممارستها . فبينما هم دائبون على ذكر الفلسفة الماركسية شفويا ، عدلوا العقيدة التى ورثوها عن ماركس تبعا لمقتضيات الأحوال السياسية والوسائل الملائمة . واذ رأى ماركس نشاط أتباعه ، قال ذات مرة : «لست ماركسيا» ويبدو من المحتمل أنه ربما خالجه شك فى استخدام نظرياته فى منتصف القرن العشرين . ومن الأمثال الاشتراكية المحبوبة : « لو عاش ماركس أثناء حكم ستالين لما عاش طويلا » .

لم ينشر فى حياة ماركس سوى الجزء الأول من « انجيل الطبقات العاملة » ، فبعد موته فى سنة ١٨٨٣ اخذ انجلز مذكرته الخطية غير الكاملة وغير المرتبة بنظام ، للجزءين الثانى والثالث. فظهر الجزء الثانى فى سنة ١٨٨٥ والثالث فى عام ١٨٩٤ قبل موت انجلز بعام واحد . ويضمان تنقيحات واستعمالات للنظريات الأساسية الخاصة « بتداول راس المال » و « عملية الانتاج الراسمالى ككل » . وترتكز شهرة ماركس على الجزء الاول اما الجزءان الآخران فلم يقرءا الا قليلا . ورغم هذا فان مؤلفا آخر عن « نظرية قيمة الفائض » التى كانت مخصصة للجزء الرابع من كتاب « راس المال » تعهد به كارل كاوتسكى

Karl Kautsky ، من مخطـــوطات ماركس ، ونشر فى المـــانيا (١٩٠٥ ـ ١٩١٠) .

حقيقة ، ان كتاب « رأس المال » صعب القراءة ، ويصـــفه الناقد بارزون بأنه « ردىء التأليف وسيىء الترتيب ويفتقر الى النظام والمنطق وتناسق المواد » . ويقـــول ناقد آخـــر (كروس Croce) انـــه لاحـــظ «التأليف الغـــريب لهـــذا الكتاب والخلط فى النظرية العامة ، والجدل والتهكم المريريين والصور التاريخية أو الانحرافات . » ويعتبر هـــذا المؤلف غير متماثل وســـيىء الترتيب ومعدوم التناسب . » بينما يقرر ناقد ثالث (ســـتاندين Standen) أن « خطة الأجزاء الثلاثة رائعة على نطاق واسع » ، نراه يقـــول « طريقة تقديم كتاب رأس المـــال مملة فى انحرافاته المطولة ، وبطئه المتعب » .

ومن المشكوك فيه وجود شخص فى التاريخ أوحى بآراء أكثر تناقضا عنيفا من كارل ماركس . فمن الناحية العلمية ، ليس به عرض وسط بين الرأى الذى يجعله « يهوديا أوحى اليه الشيطان فخطط لسقوط الحضارة » وبين صورته المضادة تماما «كقديس محبوب انكر ذاته وكرس نفســـه لطبقة العـــالم غير الموروثة فى القرن التاسع عشر . » وبدأ ناقد لاذع حديثه بقوله : « باســـم التقدم الانسانى ، أقرر أن ماركس قد سبب موتا وبؤسا وتدهورا ويأسا أكثر مما سببه أى شخص آخر عاش على ظهر البسيطة »

اذا ، فما هو السر فى نفوذه وقوته على الملايين من ســـكان الأرض ، وانجـــذابهم اليه ؟ واقترح نيل Neill أن ماركس هو القائد الرمزى لمن لا يملكون شيئا فى نضالهم ضد من يملكون ويعتقد بارزون أن « قوة ماركس هى بالضبط فى انه شـــارك المغبونين مشـــاعرهم . وان تعصب المســـاواة ليكمن فى أعماق كبـــده ، يرتبط به الطمـــوح والغيرة من الســـلطة وكلاهما على

استعداد لتحطيم النظام الأخلاقى الحاضر باسم نظام أسمى يراه هو . » ويأتى تفسير آخر من هارولد لاسكي : « العاطفة الرئيسية الكامنة فى اعماق نفسه ، والتى تحركه ، هى شغفه بالعدالة . ربما يكون قد مقت بشدة ، ولكنه كان غيورا وكان فخورا . ولكن المحرك الرئيسى لحياته هو أن يرفع عن كواهل الناس ذلك العبء الذى ظلمهم . » ويأتى تقدير تفهمى آخر من فريهوف ، اذ كتب يقول : « ان هدية كارل ماركس الانشائية العظمى الى المجتمع الحديث، سواء أكان اشتراكيا او رأسماليا، على حد سواء ، هى صورة ضرورة وجود مجتمع ينعدم فيه الفقر والمعاناة . صار هذا المثل الأعلى تحديا لكل نظام اجتماعى. وحتى اى نظام اجتماعى، مثل نظامنا، الذى ينبذ نظرياته الاقتصادية ، لابد ان يقبل ذلك المثل الأعلى بطريقته الخاصة . وهكذا ، فان ذلك الرجل الذى عاش هو نفسه فقيرا ، قد وهب العالم املا فى انعدام الفقر تماما . هذا هو انجاز كارل ماركس . وهذه هى الطريقة التى غير بها عقلية العالم الحديث » .

٨ ـ عملاق بحرى ضد فيل

الفريد ت . ماهان ALFRED T. MAHAN

اثر القوة البحرية على التاريخ

عندما وصف ناقد معاصر كتاب القائد البحرى الفريد ت . ماهان ، الذى عنوانه « اثر القوة البحرية على التاريخ » بأنه « كتاب مدهش ، ولكنه أعظم قنبلة حارقة ، فى العصور الحديثة . » اذ ابدى بصيرة رائعة . صور ماهان القوات البحرية الحديثة للعالم بأكثر مما صورها أى فرد آخر . » وأطلق على قلمه « الأقوى من أى اسطول » ، بينما كانت البوارج العاتية الضخمة أطفاله ، وليس قصف مدافع عيار ١٦ بوصة غير صدى صوته . » وبالتأكيد ، ما من مؤرخ آخر قد احدث بكتابته مثل ذلك التأثير المباشر الواسع النطاق ، مثلما فعل ماهان .

أوضح ماهان ، طوال التاريخ المسجل ، أن القوة البحرية هى العامل الحاسم فى السيطرة العالمية . فالسيطرة على البحر ضرورية لكل امة تصبو الى القيام بدور أعظم فى الشئون العالمية ،

وتحصـــل فى الوقت نفســـه على أكبر قدر من الرخاء والأمن فى وطنها . فالقوة البرية غير المتصلة بالبحر ، مهما كانت عظيمة ، فمصيرها الانهيار والزوال ، لأن البر ، كما أشار ماهان « هـــو تقريبا كل العقبات، بينما البحر هو تقريبا كل السهل المفتوح .» فالأمة القادرة على السيطرة على هذا السهل بقوتها البحرية ، والاحتفاظ بأسطول تجارى قوى ، يمـكنها اســـتغلال ثروة العالم » .

اى نوع من الرجال كان ذلك « القنبلة الحارقة ماهان » ؟ ربما كان آخر رجـل يختاره المرء كشـورى أو غير استقرارى من الطراز الاول ، أو مقلق للسم . ولد ماهان فى سنة ١٨٤٠ ، ابن مهنـــدس حـربى ومـدنى ، فى وسـت بوينت West Point وتخـرج فى جامعـة أنابوليس Annapolis ، وقضى مـدة طـويلة من حيـاته على وتيرة واحـدة كضـابط بحرى يتنـاوب العمـل بين البحر والبر ، باستثناء عمل محـدود ابان الحرب الأهليـة الامريكية .. لم يمارس قط اى التحام مسلح . واتسعت خبرته بالعمل فى البرازيل والشرق والرحلات خلال أوروبا .

مرت خمس عشرة سنة بعد تلك الرحلات دون أى عمـل مميز ، فيما عدا تأليف كتـاب صـغير عنـوانه « خليج الميـــاه الساحلية » ، خاص بالتـاريخ البحرى للحـرب الأهلية ، الذى عهد الى ماهان بكتابته فى سنة ١٨٨٣ . جاءت بعد ذلك الفترة التى أبرزت شهرته وأحدثت تغييرا متطرفا فى مستقبل حياته .. دعا القـــائد البحـرى ســـتيفن ب . لوس Stephen B. Luce ماهان ليحاضر عن التكتيك والتاريخ البحرى فى الكليـة الحربيـة المنشأة حديثا فى نيوبورت Newport

هذا بالضبط هو نوع الفرصة التى كان ماهان ينتظرها . واذ لم ينجح قط كضابط بحرى شهير ، ومل الروتين البحرى

ومازال برتبة كابتن (رقى الى قائد مؤخرة الأسطول بعد تقاعده) . بدا أن المهمة الجديدة مرسلة من عند الله . منح اجازة مدتها سنة للقراءة والتفكير قبل الذهاب الى نيوبورت . وبعد ذلك ، فى سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، بدأ سلسلة من المحاضرات فى مجموعة صغيرة من الضباط ، تلك المحاضرات التى قدر لها أن تنشر بعد ذلك بأربع سنوات فى صورة منقحة باسم « أثر القوة البحرية على التاريخ » (١٦٦٠ ـ ١٧٨٣) .

ذكر ماهان فى خطاب بعث به الى ناشره الانجليزى انه اختار المصطلح « القوة البحرية Sea power » كعنوان لكتابه كى « يجذب الانتباه ويحظى بالتداول ... وقال « لقد نبذت تماما الصفة (بحرية maritime) لضعفها فى جذب انتباه الناس أو الالتصاق بأذهانهم .» ومن الجلي أيضا أن كلمة « قوة power » تضرب على وتر حساس فى عصر البخار والكهرباء والقوة السياسية . اذن ، فقد اختير العنوان «أثر القوة البحرية» بعناية ليحدث انطباعا خاصا فى أذهان القراء . وان هذا الكتاب الشهير ، الذى تتوقف عليه ، قبل غيره ، شهرة ماهان ، هو فى جوهره سرد وتفسير لسمو وتقدم القوة البحرية البريطانية من منتصف القرن السابع عشر الى نهاية الحروب النابليونية .

يبدأ ماهان بتتبع تقدم وتدهور القوة البحرية العظمى فى خطوط عريضة ، مستعرضا بالتفصيل تلك العناصر اللازمة لأمة تهدف الى بلوغ القوة فى البحر . ويختصر ماهان هذه الظروف الى ستة ، هى : الموقع الجغرافى ، والملاءمة الطبيعية (ومنها الانتاج الطبيعى والجو) وامتداد الحدود ، وعدد السكان ، ونوع الشعب ، ونوع الحكومة .

أخذ ماهان يتناول « عناصر القوة البحرية » ، فأوضح فى كل مثال كيف تغلبت بريطانيا على خصومها . وتبعا لتفسيره ،

تكون القوة البحرية أوسع بكثير من « القوة الحربية البحرية »
اذ لا تتضمن الأولى الأسطول الحربى فحسب ، بل والسفن
التجارية وقاعدة قوية فى الوطن . فكتب ماهان يقول : « بينما
يضم تاريخ القوة البحرية فى اكتساحه العريض كل ما من شأنه
أن يجعل الأمة عظيمة فى البحر او بجانب البحر ، فهو فى أكثر
معانيه تاريخ حربى . » ومع ذلك ، فقد أكد دائما ، أن القوة
البحرية الحربية ، والحملات والمعارك ليست الا وسائل لتحقيق
هدف . لا يمكن أن تزدهر البحرية التجارية ، ولا تنجح البحرية
الحربية ، كل منهما بغير الأخرى . يتوقف الرخاء القومى على
المجموعة المكونة من الاثنتين معا .

وبدراسة الموقع الجغرافى ، وهو أمر ذو اهمية اولية ،
أكد ماهان على المزايا البالغةالكامنة لدى أمة ذات موقع «لايجبرها
على الدفاع عن نفسها برا ، ولايغريها على توسيع رقعة أرضها
عن طريق البر .. بالقياس الى أمة احد حدودها قارى . »
« ومن أمثلة ذلك انجلترا فى ناحية ، وفرنسا وهولندة فى الناحية
الاخرى . فمنذ وقت مبكر فى تاريخ هولندة الحديث ، انهكت
قواها لاضطرارها الى الاحتفاظ بجيش ضخم ليحارب من أجل
المحافظة على استقلالها . كما أن فرنسا ضعفت بتقسيم ثروتها
وقوتها البشرية بين بناء قوة حربية بحرية ، وبين مشاريع
التوسع . كذلك كان موقع فرنسا أكثر تعرضا للهجوم ، لوجود
سواحل لها على كل من المحيط والبحر المتوسط ، الأمر الذى
يمنعها استخدام اسطول موحد . فأشار ماهان الى ان موقع
الولايات المتحدة على محيطين ، يجعلها فى نفس المركز من الضعف.
وان المركز المتوسط ذا الموانىء القريبة من طرق التجارة العظمى،
واذا القواعد القوية للعمل ضد الأعداء الأقوياء ، راس مال
استراتيجى عظيم . ثم ان انجلترا ، بسيطرتها على طرقالتجارة

فى بحر المانش وفى البحر الشمالى تمكنت من أن تحظى بالسيادة البحرية .

حلل ماهان عنصره الثانى ، وهو الملاءمة الطبيعية ، فقرر ان « ساحل الدولة هو احدى جبهاتها . وكلما سهلت هذه الجبهة الوصول الى المنطقة التى وراءها ، وهى البحر فى هذه الحالة ، سهل اتصال هذه الدولة ببقية العالم ، بواسطة هذه الجبهة . » ورغم هذا ، فالمرافىء العديدة العميقة ذات أهمية حيوية لها . فاذا لم تعامل الطبيعة انجلترا وهولندة بسخاء من ناحية التربة والمناخ ، اضطرتا الى الاتجاه نحو البحر ، بينما حوبيت فرنسا « بأرض خصبة جميلة » . وكذلك بوركت الولايات المتحدة ، فلم تجدا مايغريهما شطر البحر .

والعنصر الثالث ، وهو آخر العناصر الطبيعية المؤثرة فى نمو الأمة كقوة بحرية ، هو امتداد الحدود .. لم يقصد ماهان بهذا المصطلح « عدد الأميال المربعة التى تتألف منها مساحة هذه الدولة ، ولكنه يقصد طول ساحلها ، وطبيعة مرافئها . » كذلك عدد سكان امة بالنسبة الى طول ساحلها ، ذو اهمية عظمى . ومثل لذلك من الحرب الأهلية الامريكية :

« لو كان عدد شعب الجنوب مثل مقدرته الحربية ، وكان لدى ذلك الجنوب قوة بحرية حربية تتناسب مع مواردها الأخرى ، لكان امتداد ساحلها البحرى العظيم ومداخله الكثيرة ، عنصرا عظيم الفوة ... أما الجنوب ، فليس فقط ، انه لا يملك بحرية حربية ، وليس فقط أنهم لم يكونوا قوما ملاحين ، ولكن .. لم يكن عدد سكانها متناسبا فى طول ساحلها البحرى ، الذى كان يجب على هؤلاء السكان أن يدافعوا عنه .

بعد أن استعرض ماهان الشروط الطبيعية الثلاثة المؤثرة

فى القوة البحرية ، وهى : الموقع الجغرافى والملاءمة الطبيعية وامتداد الحدود ، عرج على تناول السكان وحكومتهم . وهنا أكد على عدد السكان فى ناحية خاصة ، لأنه « ليس مجموع السكان الكبير هو الهام ، وانما عددهم المشتغل بالملاحة البحرية ، أو على الأقل ، الممكن استخدامه على ظهور السفن ، وفى صنع الأدوات البحرية . » واخذت الأمثلة التاريخية من انجلترا وفرنسا . كان عدد سكان فرنسا يزيد كثيرا على عدد سكان انجلترا ، ولكن ميول سكان الأخيرة نحو البحرية والتجارة كانت ميزة لها على سكان فرنسا ذوى الميول الزراعية . واستنتج ماهان أن « عدد السكان الكبير ، ذوى الميول البحرية هو الآن ، كما كان من قبل ، عنصرا عظيما فى القوة البحرية . » ووجد أن الولايات المتحدة « متخلفة فى هذا المضمار » .

أما النقطة الخامسة لماهان فهى تأثير الصفة القومية الملائمة ، على تكوين القوة البحرية . فكتب يقول ان التاريخ يبين أنه « بدون استثناء تقريبا ، صلاحية القوم للاغراض التجارية ، يجب أن تكون ظاهرة مميزة للامم التى كانت فى وقت ما عظيمة فى البحر » وعلى الرغم من أن الانجليز والهولنديين وصفوا كثيرا بأنهم « شعوب تجارية » فانهم حققوا مكاسب دائمة وأساسية من تجارتهم البحرية ، أكثر مما ربح الباحثون عن الذهب من الاسبان والبرتغاليين أما الفرنسيون المسرفون غير الراغبين فى المخاطرة باستثمار اموالهم فى التجارة الخارجية . وقد أبدى ماهان ملاحظته بأن « الميل الى التجارة ، ويشمل ضرورة انتاج شىء ما للمتاجرة به ، هو الصفة البالغة الأهمية فى تكوين القوة البحرية » .

اعتقد ماهان أن للذكاء أو النبوغ القومى أثرا أيضا بالقدرة على تكوين مستعمرات صحية . ففى هذا المجال يتفوق الانجليز

على الفرنسيين لأن «المستعمر الانجليزى يستقر طبيعيا ومباشرة فى وطنه الجديد ، ويربط مصالحه بمصالح ذلك الوطن ، ورغم انه يذكر بالخير دائما وطنه الأصلى ، فانه لا يشتاق الى العودة اليه . » أما الاسبان فلم يكونوا مستعمرين ماهرين ، لأنهم يهتمون أولا بالاستغلال السريع لثروة الدولة الجديدة أكثر من التنمية الكاملة لخيراتها .

وأخيرا ، يتناول ماهان نوع الحكومة واداراتها بالنسبة لنمو القوة البحرية . وقد اعتقد ماهان ان نوع الحكومة وصفة الحكام « لهما أثر عظيم على نمو القوة البحرية . » وبينما هو يفضل عمليات الحكومات الديمقراطية ، نراه يذكر ان « قوة الاستبداد المستخدمة فى حكمة وثبات قد تخلق فى وقت ما تجارة بحرية ضخمة وقوة بحرية حربية ، بقيادة أعظم مما تحققه العمليات الأبطأ للشعوب الحرة . والصعوبة .. هى ضمان المثابرة بعد موت المستبد . » ولما كانت انجلترا قد وصلت الى الذروة فى القوة البحرية ، فوق كل أمة حديثة ، فان ماهان يعتبر أن دراسة الحكومة هناك ملائمة بنوع خاص . ويتجه تأثير الحكومة الانجليزية على عدة دول ، نحو السيطرة على البحر . وبغض النظر عن الملك الحاكم ، أو عن الأحزاب السياسية ، أدرك الانجليز الأهمية الأساسية لاحتفاظ الأمة بالسيادة البحرية .

وبعد استعراض تاريخى مطول عن أعمال مختلف الحكومات فيما يختص بالحياة البحرية لشعوبها ، قرر ماهان أن نفوذ الحكومة يعمل بطريقتين : أولا ، فى أوقات السلم :

« تستطيع الحكومة بسياستها أن تحبذ النمو الطبيعى لصناعات الشعب وميوله الى السعى وراء المغامرة والربح عن طريق البحر ، أو يمكنها محاولة تنمية بعض الصناعات وبعض الميول نحو الابحار. واذا لم يوجد هذان طبيعيا، فان الحكومة ،

بنوع الخطأ ، توقف التقـدم الذى تركه الناس لأنفســهم ، او تفرض عليه القيود .

ثانيا ، فى أوقات الحرب ، تقدر البحرية بميل الحكومة الى خلق وتسليح أسطول ، والاحتفاظ «ببحرية من حجم يتناسب مع نمو سفنها واهمية الميل اليهـا» . وبالمثـل ، من الضرورى «الاحتفاظ بمحطات بحرية ملائمة ، فى تلك الاجـزاء النائيـة من العالم ، ويجب أن تتبع السفن المسلحة السفن التجارية الى تلك المحطات» . وقد وجد ماهان أن الولايات المتحدة كانت ضعيفة فى عدم وجود قواعد اجنبية لها ، اما ذات طابع استعمارى ، أو ذات طابع حربى .

وهكذا ، بعد أن فحص ماهان العوامل الستة الاساسـية المؤثرة على القوة البحرية ، وفكر فيها مليا ، صار على استعداد للانتقال الى التحليل التفصيلى للحروب البحرية الاوروبية فى المدة من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٧٨٣ وتبلغ بالتقريب قرنا وربع قرن. ثم خصص بقية كتابه الى هذا الاستعراض التاريخى . وكنقطة بداية ، وصف ماهان الظروف العامة السائدة فى أوروبا فى أواخر القرن السابع عشر ، مشيراً ، بنوع خاص ، الى أسبانيا وفرنسا وهولندة وانجلترا ــ وهى الدول الرئيسية التى يمكن أن تشتبك فى حروب بحرية مستقلة . وفى نظر ماهان ، كان تاريخ أوروبا ابان السنوات التالية الصاخبة سباقا بين القوى الغربية للسيطرة على البحر . فبدأ بحثه بالحرب الهولندية لشارلز الثانى ، وأكد على المدى الذى بلغته مصالح انجلترا التجارية فى حـرب السـيادة الاسبانية التى برزت منها انجلترا كقوة فى البحـر المتوسـط ، فاستولت على جبل طارق وميناء ماهون Port Mahon . وفى حـرب السـنوات السبع ، كان نجاح وولف Wolfe ممكنا بواسطة الاسطول الذى فتح السانت لورانس St. Lawrence ،

ومنع وصول النجدات من فرنسا . ومرة أخـرى ظهـر المعنى الرئيسى للقـوة البحـرية ابان الثورة الامريكية عنـدما فشـلت انجلترا بقوات بحرية مقسمة ، فى مواجهة القوة المتحدة لفرنسا واسبانيا ، وهـكذا استطاعت المسـتعمرات الامريكية أن تنـال حريتها .

كانت قضية ماهان الرئيسية طوال كتابه هى أن الحصار البحرى المسـتمر هو الحاسـم دائما بين القوة البحرية والقوة البرية ، أكثر من الجيش البرى الذى لايقهر .

وفى سرده تفاصيل تكتيك مختلف المعارك ، علق أهم كاتب لتاريخ حيـاته وهو الكابتين و . د . بولستون W.D. Puleston بقوله : «بذل ماهان كل جهد لتوخى الدقة . واذ اخذ أمثلته من عصر السفن الشراعية ، حاول جاهدا ان يلم بتكنولوجيا الابحـار والمعنى الدقيق المصـطلحات البحـرية القديمـة ، التى بطـل استعمالها فى عصره الملاحى» .

وفى ذكر ماهان لتاريخ حياته ، هو نفسه ، وصف الوسيلة الميكانيكية التى استخدمها ، مثل نماذج السفن الورقية ، لتمثيل واعادة تصوير المعارك البحرية للسفن الشراعية .

كان هدف ماهان الرئيسى من كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، كما أخبر هو القائد لوس ، الضابط الذى كان رئيسه السابق ، مايؤخذ من قوله : «هدفى أن أكتب تاريخا حربيا ناقدا عن الماضى البحرى ، وليس تاريخا للاحـداث البحرية» . وكان بوسعه أن يضيف أيضا ، أن من أهدافه أن يوضح العـلاقة بين التاريخ البحرى والتاريخ السـياسى اذا اقتنع تمـاما بأن القـوة الاقتصادية التى ذهبت مع السيطرة على البحـر ، منحت مالكها مركزا ثابتـا فى شئون العـالم . وهكذا ، كمـا لاحظ برات Pratt

«لان انجلترا كونت قوة بحرية ، بينما اهمل خصومها ذلك ، استطاعت احباط خطط لويس الرابع عشر ونابليون لاكتساحها. واعتقد ماهان اعتقادا راسخا ، أنها بذلك إنقذت الحضارة ممن ارادوا تدميرها» .

ذاعت شهرة كتاب «اثر القوة البحرية فى التاريخ» عالميا فور نشره مباشرة — ولو أن شهرته فى الخارج كانت اعظم بكثير من شهرته فى الولايات المتحدة . وبعد فترة وجيزة ، ظهرت تراجم هذا الكتاب الى الالمانية واليابانية والفرنسية والهندية والروسية والاسبانية . وفى كل مكان ، كان هذا الكتاب ذخيرة لعصر التوسع البحرى العظيم الجارى فى العالم ، وخصوصا فى بريطانيا العظمى والمانيا وامريكا .

وكما أبان عدة نقاد ، يبقى هناك دائما سؤال عما اذا كان كتاب ماهان ، لو ظهر فى عصر آخر وفى منطقة اخرى ، فهل كان يحظى بنفس ذلك الاثر البالغ ؟ لاريب فى أن عصره كان ملائما جدا وسقطت أقوال ماهان عن أهمية القوة البحرية الحربية ، على ارض خصبة ، فوافقت تماما الميول الى الحرب فى ذلك العصر . كانت القوى العظمى تستعرض عضلاتها لتصير دولا بحرية ساحقة وتقوم بغزو مستعمرات وممتلكات جديدة . اذن ، فمن الطبيعى أن تعتبر الامم ماهان نبيا . فبراهينه المدعمة بالمستندات القائلة بأن السيطرة على البحر هى المطلب الاساسى لمصالح أية امة ، قد أثبتت تلك البراهين صحة السياسات التى اعتنقت من قبل ، أو التى هى موضع الدراسة . وكما عبر عنها احد الكتاب البريطانيين ، كانت تعاليمه «مثل البترول يصب على لهب التوسع الاستعمارى الجارى فى كل مكان » .

قرظ النقاد البريطانيون كتاب ماهان ، فوصفوه بأنه « انجيل عظمة أنجلترا» . وقال بولستون : «ربما كتبه بناء على طلب من

الوزارة البريطانية . فقد دعم بوضوح كل جدالهم» . واكد احد القواد البحريين انه من أجل تحسين مركز البحرية الحربية البريطانية بعد سنة ١٩٠٠ فاننا «لاندين بالشكر للمحافظين ولا للاحرار ، وانما لماهان ولا لأى أحد سواه» . وتقديرا لماهان عند موته فى سنة ١٩١٤ ، كتبت جريدة لندن بوست London Post تقول : « ان بريطانيا لمدينة لذلك الامريكى العظيم بدين لا يمكن سداده ، لأنه كان أول من صاغ فلسفة القوة البحرية لبريطانيا فى دقة وبطريقة مفهومة» .

ستقدر هذه التعليقات تقديرا أكثر عندما ندرك أنه فى الوقت الذى كتب فيه ماهان كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» كانت البحرية الحربية الانجليزية «تعانى من اهمال مالى منذ مدة طويلة فاختصر موظفوها الى حجم الهيكل فحسب ، وسرعان ماتفوقت على قوتها السفن الفرنسية والايطالية الاكثر حداثة . ووصفت القوه البحرية الانجليزية بأنها تشبه «معرضا للسفن العتيقة ذات الاشكال المتنوعة الغريبة» . وكان أكثر من ثلثيها غير مسلح . اذا فقد جاءت نصيحة ماهان لتكوين أسطول انجليزى حديث قوى ، فى أوانها المناسب تماما ، فأسرعت كثيرا حركة اعادة تنظيم القوة البحرية الحربية وتقويتها .

اظهرت انجلترا اعجابها وتقديرها لماهان أثناء زيارتين قام بهما لبريطانيا فى سنة ١٨٩٣ وسنة ١٩٠٤ ، كان ضيف الشرف فى حفلات العشاء الرسمية التى أقامتها الملكة فكتوريا ورئيس الوزراء . وكان أول ضيف شرف أجنبى كرمه نادى الجيش والبحرية . ومنحته كل من جامعتى أكسفورد وكامبريدج درجات فخرية فى بحر أسبوع .

ولكن ، بما أن كتابه «اثر القوة البحرية على التاريخ» لم ينشر كما اقترح احد النقاد بلغة يفهمها الامريكيون والانجليز وحدهم ،

فان أثـره على الالمـــان واليابانيين كان يمثل قــوة اثره على البريطانيين . فقــال القيصر ولهلم الثـــانى Kaiser Wilhelm II «اننى لاأقرأ الآن كتاب الكابتن ماهان ، وانما التهمه . انه موجود على ظهر جميع سفنى .. يتوقف مستقبلنا على المياه ، ويجب أن يكون الرمح الثلاثى الشعاب فى قبضة يدنا» . وهكذا صار كتاب ماهان موحيا ببحرية المانية جديدة .. وقال احــد كتــاب تاريخ حياته (تايلور Taylor) : « هنــاك دليــل معقول على أنه فى الأشهر الـقليلة الأخيرة من حياة ماهان ، كان يعانى من اثمة عقلية عن الحرب (الحرب العالمية الاولى) والدور الذى لعبه ، ولو أنه لم يسبق أن فكر فيه من قبــل اطــلاقا ، فى اثارة نمو البحـــرية الالمانية» .

وكذلك الامر فى اليابان ، فقد زود كل ضابط بحرى ، وكل سفينة حربية بنسخة من كتاب ماهان ، وكجزء من الامتعة . وقد تلهف اليابانيون الى تعلم الطرق الغربية ، وبدءوا يســتجيبون لماهان ، على نطاق واسع ، فى بناء القوة البحرية الحربية ، وعيار المدافع وغير ذلك من الامور البحرية الاخرى . ورفض ماهان دعوة اليابان بأن يكون مستشــارها البحرى الرســمى . ورغم هــذا ، اتخذوا آراءه رائدة لهم ، وشرعوا يعملون ليصيروا القوة البحرية العظمى فى الشرق الاقصى .

من بين الدول العظمى التى تاق ماهان الى أن يؤثر عليها ، كانت الولايات المتحدة وحــدها هى البطيئة فى قبــول تعاليمه . واقتنع ماهان بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدخل فى منافسة عنيفة مع قوات اخرى فى أسواق أجنبية ، فتبنى بحرية حربيــة ضخمة ، وتكسب قواعد بحرية فى أعالى البحار ، وتتسع بامتلاك مستعمرات خارج نصف الكرة الغربى . واشار بأن جزيرة هاوائى Hawaii يجب أن تضــم وتســتعمل كقاعدة أمــريكية . كمــا

اشار الى أن البحر الكاريبى Caribbean ، يجب أن تكون علاقتنا به كعلاقة أوروبا بالبحر المتوسط ، وتزداد اهميته للولايات المتحدة باتمام قناة بناما . أولى ماهان طوال كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» انتباها خاصا الى الولايات المتحدة ، ولاحظ امكانياتها كقوة بحرية . وقال الكابتن بولستون : «ألف ماهان كتابه لاعادة اشعال حماس مواطنيه السابق ومتعتهم فى أن يصيروا قوة بحرية . اعتقد ان الامريكيين مشغولون بتطوير داخل القارة وبذا قذفوا بميراث عظيم بعيدا دون داع . لم يرغب ماهان فى أن يحذو وطنه حذو فرنسا ابان حكم لويس الرابع عشر ويصبح قوة برية قبل كل شىء» .

سببت حجج ماهان تحول اثنين فى المراكز الرئيسية ، هما: ثيودور روزفلت ، وهنرى كابوت لودج Henry Cabot Lodge تحمس روزفلت فى البيت الابيض ولودج فى مجلس الشيوخ لتكوين بحرية حربية أمريكية عظيمة . وجد روزفلت تعبيرا كاملا لفلسفته عن «العصا الغليظة» فيما كتبه ماهان . واستخدم نظريات القوة البحرية لتساعده فى كسب الرأى العام الامريكى نحو سياسة التوسع عبر البحار . وان اثر ماهان ، على البرنامج الضخم لاقامة بحرية حربية فى الولايات المتحدة ، الذى بدأ فى التسعينات من القرن التاسع عشر ، واضح وملحوظ .

جرى تلم ماهان الكثير التصانيف فى طريق نجاحه العظيم الشهير ، فأخرج سيلا من الكتب ومقالات المجلات فبلغ عدد مجلدات الكتب والمقالات التى جمعت ، حوالى عشرين ، يلحق بها عشرات من مقالات الصحف . وكانت اضافاته الى «سلسلة القوة البحرية» بالغة الاهمية ، ولاسيما «اثر القوة البحرية على الثورة والامبراطورية الفرنسيتين» فى سنة ١٧٩٣ ــ ١٨١٢ ، الذى اعتبره النقاد مؤلفا أكثر شمولا ومدعما بالمستندات بعناية أكثر

من «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، وتواريخ حياة فاراجوت Faraggut ويلسون ، والقوة البحرية فى علاقتها بحرب سنة ١٨١٢ » .

اعترف ماهان صراحة بأن آراءه عن القوة البحرية ليست أصيلة ، وأشار مثلا الى ما كتبه باكون Bacon ورالى Raleigh عن نفس الفكرة قبل ذلك بثلاثة قرون . وحتى قبل ذلك بوقت أطول عرف الاقدمون أمثال ثوكيديس Thucydides وكسيركسيس Xerxes وثيموستوكليس Themostocles ، أهمية هذه الفكرة . نجح ماهان، فى نطاق واسع ، أكثر من أى كاتب سابق فى موضوعه الخاص ، الذى كان كما قال هو حرفيا : « تحليلا للتاريخ فى محاولة لأبين سر الأحداث الجارية خلال سلسلة طويلة من السنين ، وبالضبط ، أثر السيطرة على البحر، فى أحداث معينة . واذ ترك هذا المجال شاغرا ، أعطانى فرصتى » . ورغم انه ، كما قال كثير من المعلقين ، كانت نظرة ماهان الى التاريخ ضيقة جدا ، فتجاهل الكثير من العوامل الحيوية ، وخلق نظرة جديدة الى السياسة والاقتصاد .

واذا سلمنا جدلا بأن مذاهب ماهان كانت سليمة منطقيا ، لعصره وللقرون السابقة ، فهل صارت بائدة بواسطة التقدم التكنولوجى للقرن العشرين ؟ وبنوع خاص ، هل تفوقت القوة البحرية فى عالم اليوم ؟ اختلف الخبراء فى آرائهم . ففى الحرب العالمية الثانية ، لعبت القوة البحرية دورا بارزا ، ولكن كان عليها أن تتعاون تماما مع القوة الجوية ، لان السفن التى لاتحرسها طائرات فى الجو ، عرضة جدا للدمار . وان التطور الذى حدث بعد الحرب وتمخض عن «قنبلة الجحيم» قد ألقى ظلا على مستقبل القوات البحرية . فبوسع هذه القنبلة أن تشل تماما قدرة اسطول

متكتل . ومع ذلك فان صنع روسيا السوفيتية لاسطول عظيم من الغواصات وتأييد أمريكا على حاملات الطائرات ، لدليل قاطع على أن القوة البحرية مازالت تحتفظ بمكانتها حتى فى عصر ذرى .

وفى رأى العلماء وحكمهم ، ان منزلة ماهان الدائمة كمؤرخ ، لن تتعادل مع شهرته المعاصرة . فنجـاحه البـاهر كان من قبيل الدعاية . وفى وقت وفاته بلغت الولايات المتحدة الاهـــداف التى رسمها لها ، وهى :

بناء بحرية حربية عظيمة ، وشق قناة بناما ، واقامة القواعد فى البحر الكاريبى والمحيط الهادى . لقد شاهد انتصار فلسفته القائلة بأن «من يحكم الامواج يحكم العالم» . هذا ، وان الدول العظمى لمشغولة فى سباق جنونى من أجل القوة البحـرية . وكما لاحظ ناقد لاذع :

« ما من شخص واحد قـد أثر مبـاشرة وبعمـق فى المذاهب البحرية والسياسة القومية لمثل هذه الامم الكثيرة» ، بينما قـرر خبير بحرى فرنسى ، أن ماهان «عدل تعديلا عميقا ، فى فترة حياته، عدل تاريخ العصر الذى عاش فيه» .

٩ ــ قلب القارة والجزيرة العالمية

السير هالفورد ج . ماكندر Sir Halford J. Mackinder

« المحور الجغرافي للتاريخ »

فى خلال فترة تزيد قليلا على عشر سنوات ، بعد أن برهن القائد البحرى ماهان ، بطريقة مقنعة ونهائية على عدم امكان قهر القوة البحرية عبر التاريخ . غير أن امكان استخدام مذاهبه فى المستقبل ، قد نسف بدرجة خطيرة ، ان لم يكن قد فند صحته ، وذلك بعاملين جديدين : الاول من المملكة المادية وهو أولى التجارب الناجحة للاخوين رايت Wright فى سنة ١٩٠٣ بطائرة قوية . وأما العامل الثانى ففى مملكة الافكار : ورقة علمية كتبها فى سنة ١٩٠٤ العالم الجغرافى الانجليزى هالفورد ماكندر ، الذى اشتهر بعد ذلك باللقب «أبو السياسة الجغرافية» .

لم يعرف العالم ، على الفور ، فى أية حالة من هاتين تقع الاهمية المثيرة لهذين الحادثين ، ومع ذلك ، فان وجه الكرة الارضية يجب أن يتغير بهما تغيرا مستديما .

لم يعد من غير المحتمل تفكك النظريات الثورية .. فى ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤ قرأ ماكندر ورقته المشهورة «المحور الجغرافى للتاريخ» ، فى اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . وتقع تلك الورقة فى ٢٤ صفحة مطبوعة ، أى أنها لاتزيد على نشرة عادية . غير ان تحليلها الرائع للعلاقة المتبادلة بين الجغرافيا والسياسة فى الماضى والحاضر خلال العالم كله ، كان أفكارا جديدة غزت تفكير القادة السياسيين الحربيين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا والمؤرخين فى كل مكان .

فى نهاية الحرب العالمية الاولى ، عدل ماكندر نظريته بتفصيل مطول جدا عن « المثل العليا الديمقراطية والحقيقية » .

ورغم أنه لم يقم بتعديل أساسى على قضيته الاصلية ، فهذا الكتاب وموضوعه السابق هما حجر الزاوية فى العلم الحديث للسياسة الجغرافية ، وهو ادماج الجغرافيا والعلوم السياسية معا .

كان ماكندر فى الرابعة والثلاثين عندما ألف محاضرته الشهيرة . كان ابوه طبيبا ريفيا أرسله الى كلية اسوم Epsom فى سنة ١٨٧٤ ، ومنها الى اكسفورد حيث كان سجل دراسته حافلا بالالمعية ، عين بعدها محاضرا متجولا لجامعة اكسفورد فى علم الجغرافيا لمدة سنتين ، ثم عين معيدا للجغرافيا فى اكسفورد حيث جذب اليه مئات الطلاب بطرق تعليمه الحركية . وكان لالحاحه على الجمعية الجغرافية الملكية أكبر الاثر فى تمويل هذه الجمعية لاول مدرسة بريطانية فى علم الجغرافيا بأكسفورد سنة ١٨٩٩ ، وجعلت ماكندر مديرها . كما وجد متسعا من الوقت فى تلك السنوات ليحظى بشهرة فى تسلق الجبال . فقام بأول مغامرة صعودا الى جبل كنيا Kenya بشرق أفريقيا . ومع استمراره فى منصبه بأكسفورد ، عمل معيدا للجغرافيا الاقتصادية فى جامعة

لندن ، ذلك المنصب الذى أدى الى تعيينه مديرا لمدرسة الاقتصاد بلندن فى سنة ١٩٠٣ . واذ أولع دائما بعلوم الاقتصاد ، انتخب ، لعدة مرات ، فى البرلمان من سنة ١٩١٠ ــ ١٩٢٢ . ومع ذلك ، كانت حياته العملية كلها ، أولا وقبل كل شيء ، فى الدوائر الاكاديمية . فكرس نفسه لتقدم الدراسة العلمية للجغرافيا ، وخصوصا الجغرافيا من حيث «وجهة النظر الانسانية» .

قدم ماكندر فى كتابه « المحور الجغرافى للتاريخ » ، الذى قدر له مثل رد الفعل الواسع ذاك . قدم أولا نظريته عن الفضاء المقفل ، وهى فكرة اشتهرت بعد ذلك بأربعين سنة بواسطة وندل ويلكى Wendell Willkie فى مقال «عالم واحد» . اعتقد ماكندر أن «الحقبة الكولومبية» وهى حقبة أربعة قرون من الاكتشاف والتوسع الجغرافيين ، قد انتهت عند بداية القرن العشرين . فكتب يقول : «تمت حدود خريطة العالم فى اربعمائة سنة ، بدقة تقريبية» .

تتبع ماكندر نفس الفكرة فى «المثل العليا الديمقراطية ، والديموقراطية » ، فقال :

« وصلنا أخيرا الى القطب الشمالى فوجدناه فى وسط بحر عميق ، والى القطب الجنوبى فوجدناه فوق هضبة عالية . وبهذين الاكتشافين الاخيرين ، ختم كتاب الرواد . لم تلق هذه المغامرة جزاءها بالعثور على سهل واسع من الارض الخصبة أو سلسلة جبال هامة ، أو نهر من الطراز الاول . وزيادة على ذلك ، ماكادت خريطة العالم ترسم قبل تمام ثبوت الملكيات السياسية لجميع أجزاء اليابسة .. سار مبعوث الارساليات والغازى والمزارع ومستغل المناجم ، وحديثا المهندس ، سار هؤلاء جميعا يتبعون من كثب خطى الرحالة ، حتى ان الدنيا فى أقصى حدودها قلما اكتشفت قبل أن تقرر ملكيتها الحقيقية الكاملة . فقلما توجد

منطقة فى اوروبا او فى آمريكا الشمالية أو فى امريكا الجنوبية ، أو فى افريقيا أو استراليا ، لم تثبت ملكيتها الا نتيجة لحرب بين القوى المتحضرة أو نصف المتحضرة» .

فى تسعينات القرن الثامن عشر ، عبر مؤرخ امريكى بارع اسمه فردريك جاكسون ترنز Frederick Jackson Turner عن فكرة مشابهة ، ولو أن ذلك كان بطريقة محدودة ، عن الفضاء المقفل ، بأن كتب عن الجبهة الماضية وأهميتها فى التاريخ الامريكى . والآن ، يقرر ماكندر أن تلك الجبهة قد اختفت خلال العالم .

وصف ماكندر الآثار المحتملة لتمهيد ترنر ، بقوله :

«من الآن فصاعدا ، سيكون علينا ثانية ، فى العصر بعد الكولومبى ، أن نتناول النظام السياسى المقفل ، وسيكون أحد المجالات العالمية . فكل انفجار فى القوى الاجتماعية ، بدلا من أن يذوب فى دائرة الفضاء غير المعروف المحيطة به ، وفى الفوضى البربرية ، فانه سيرتد بحدة من الجانب البعيد للكرة الارضية ، وستتحطم نتيجة لذلك ، تلك العناصر الضعيفة فى الكيانين السياسى والاقتصادى للعالم .. نحس الآن بكل صدمة وبكل كارثة أو فائض ، كما يحس بها من يعيشون فى الجزء المقابل لنا من الكرة الارضية . وقد ترتد الينا ممن يعيشون قبالنا .... وهكذا يرتد صدى كل فعل انسانى ، ويرجع صداه ثانية ... حول العالم .

وفى النظام المقفل الخاص بعصرنا ، وخفة الحركة غير المحدودة المصاحبة له برا وجوا ، نرى القوة البحرية السائدة ، قد انقضى عصرها ومضى ، تبعا لرأى ماكندر . ولو كان هذا حقيقيا ، اذن فقد جاء عصر قوة أرضية . فأين كان المركز الطبيعى للحقبة الجديدة ؟ كان ، بالطبع ، فى كتلة الأرض العظمى من

العالم ، اى فى تلك المساحة الشاسعة التى أطلق عليها ماكندر اسم «المنطقة المحورية لسياسات العالم» . ومن بين خمس خرائط لتوضيح قضيته استحقت الاخيرة أن تسمى «المراكز الطبيعية للقوى» ، وتصور «المنطقة المحورية» . صور ماكندر المحور الجغرافى فى شمال وداخل المنطقة الاوروبا آسيوية ، والممتدة من المنطقة القطبية الشمالية الى الصحارى الوسطى ، وغربا الى البرزخ العريض بين بحر البلطيق والبحر الاسود .

وتبعا للتحليل التاريخى الذى يخص به معظم مقاله ، فان أوروبا وبقية العالم ظلت لعدة قرون تحت ضغط مستمر من منطقة المحور .

« نالت أوروبا حضارتها تحت ضغط البربرية الخارجية اذن ، فأنا اطلب منكم أن تنظروا لحظة الى أوروبا والى التاريخ الاوروبى على أنهما تابعان لآسيا وللتاريخ الآسيوى ، لان الحضارة الاوروبية ، بمعنى حقيقى جدا ، كانت نتيجة نزاع دنيوى ضد الغزو الآسيوى . وأهم تناقض واضح فى الخريطة السياسية لاوروبا الحديثة هو الذى تمثله مساحة روسيا التى تشغل نصف مساحة القارة ، ومجموعة من الاراضى الصغيرة تسكنها القوى العربية» .

وبتتبع التقلص والامتداد فى التاريخ الاوروبى أكمل ماكندر حديثه بقوله :

« لمدة الف سنة ، برزت مجموعة من الشعوب راكبى الخيول من آسيا خلال الشقة العريضة الواقعة بين جبال أورال Oral وبحر قزوين Caspian Sea ، ساروا بخيولهم خلال المسافات المكشوفة لجنوب روسنا ، واستقروا فى المجر Hungary فى قلب شبه الجزيرة الاوروبية نفسه ، وكونوا ، بالمعارضة التى

قابلتهم بطبيعة الحال ، كونوا تاريخ كل من الشـــعوب العظمى المجاورة ـ الروس والالمان والفرنســيين والايطاليين والاغـارقة البيزنطيين »

ومن وجهة نظر التأثير الدائر ، تركت غزوات المغول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أعمق الاثر ، فاكتسحت كثيرا من أوروبا الوسطى وروسيا وفارس والهند والصين . جاءت تلك الغزوات مما أسماه ماكندر «منطقة المحور» و «كل الحدود المتفق عليها للعالم القديم ، أحست في الحال أو بعد وقت بالقوة الهائلة لتلك السلطة المتحركة التى نشأت في سهول الاستيبس Steppe ».

أسقط ماكندر أشعة تاريخـه على أزمنتنا ، فرأى منطقـة المحور تزيد من ثقلها في شئون العالم متمشية مع نموها في القوة الاقتصادية والحربية . ومن وجهة النظر التاريخية ، رأى بالادلة « الحاحا معينا للعلاقة الجغرافية » ، لأنه ـ

« أليست منطقة المحور لسياسة العالم هي تلك المســاحة الواسعة أوراز ـ آسيا ، التى لاتستطيع السفن أن تصل اليها ، ولكنها كانت ، في قديم الزمان ، مفتـوحة امام البــدو راكبى الخيول ، وعلى وشك أن تغطيها اليوم شبكة من السكك الحديدية؟ كانت ، ولاتزال هنا ظروف تحرك القوة العسكرية والاقتصادية من نوع يصل الى مدى بعيد ، ولكنه نوع محدود . فروسيا تحل محل الامبراطورية المغولية . وضغطها على فنلندة وعلى اسكنديناوة وعلى بولندة وعلى تركيا وفارس والهند والصين ، يحـل محـل غارات رجال الاستيبس الممتدة الى الخارج . انهـا تحتـل المركز الاستراتيجى المتوسط في العالم كله ، ذلك المركز الذى تحتله المانيا في أوروبا . يمكنها أن تضرب في جميع الجوانب ، وتضرب من جميع الجوانب أيضا ماعدا الشمال » .

يحدد ماكندر هلالين خارج منطقة المحور يضم الهلال الكبير الداخلى المانيا والنمسا والهند والصين بينما يضم الهلال الخارجى بريطانيا وجنوب أفريقا واستراليا والولايات المتحدة وكنده واليابان . والحقيقة أن قوة منطقة المحور لم تكن معادلة لدول الحافة الخارجية للهلالين .وهنا أبدى ماكندر خوفه العظيم بقوله: «قد يحدث هذا الا اذا تحالفت المانيا مع روسيا . وفى هذه الحالة ، يصبح بوسع دولة المحور أن تمتد فوق البلاد الساحلية للاورال — آسيا فتستعمل «موارد قارية هائلة لبناء أسطول . وعندئذ تكون امبراطورية العالم ظاهرة» .

اختتم ماكندر خطابه الشهير بالتأكيد بأنه تكلم بصفته عالما جغرافيا . واشار الى أن «التوازن الحقيقى للقوة السياسية فى أى وقت معين هو ، بالطبع ، حاصل ضرب الظروف الجغرافية، اقتصاديا واستراتيجيا ، فى العدد النسبى للرجولة الكاملة والمعدات وتنظيم الشعوب المتنافسة» وفى تقديره أن «الكميات الجغرافية فى هذا الحساب أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتا تقريبا، من الكميات البشرية» . لن تتغير الاهمية الجغرافية لموقع المحور اذا سكنه شعب آخر غير الشعب الروسى .

فمثلا اذا نظم اليابانيون الصينيين لهزيمة الامبراطورية الروسية واحتلال أراضيها ، فانهما تكونان الخطر الاصفر على حرية العالم لمجرد أنهما تضمان جبهة على المحيط الى مواردالقارة العظمى ، وهذه ميزة حرم منها الروس ساكنو منطقة المحور .

احس ماكندر ، وهو يكتب ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى : «أن الحرب دعمت آراءه السابقة بدلا من أن تهز كيانها» . ففى «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية» استمر فى مناقشة «منطقة المحور» التى أشار اليها عندئذ على أنها «قلب القارة» الواقعة فى وسط « الجزيرة العالمية » .

لم تكن أوروبا وآسيا وافريقيا ، كما رآها ماكندر ثلاث قارات ، بل قارة واحدة هى «الجزيرة العالمية» ، وبما أن البحر كان فيما مضى مسيطرا على تفكير الانسان ، فانه لم يعتبر تلك الرقعة الشاسعة جزيرة ، لانه كان من المستحيل الابحار حولها. فأشار ماكندر الى أنه «يطفو فوق بحر القطب الشمالى طبقة من الثلج عرضها ألفان من الاميال ، احدى حافاتها على الارض الضحلة فى شمال آسيا . اذن ، فليست القارة جزيرة من حيث غرض الابحار» . وباستثناء هذه الحقيقة ، ومساحتها الشاسعة، فانها لاتختلف عن الجزر الاخرى . وتطغى الجزيرة العالمية على بقية الارض فى كل من المسافة وعدد السكان . فمن ناحية الارض، لهذه الجزيرة الثلثان ، بينما الثلث الباقى للامريكتين الشمالية والجنوبية واستراليا والمناطق الصغرى الاخرى . وزيادة على ذلك ، فان سبعة أثمان سكان العالم يقيمون فى هذه الجزيرة ، بينما يقيم الثمن فقط فى بقية الاراضى الاخرى . اذا ، فقد لاحظ ماكندر أن الدنيا القديمة هى «الوحدة الجغرافية العظمى فى كرتنا الأرضية » .

وبعد أن أوضح ماكندر «نسب وعلاقات» الجزيرة العالمية ، استطرد يقول :

« وضعت ، كما هى ، على كاهل الارض بالنسبة الى القطب الشمالى . واذا قسنا المسافة من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ، بطول منتصف آسيا نجد أولا ١٠٠٠ ميل من البحر المغطى بالثلج حتى الشاطىء الشمالى لسيبريا ، ثم ٥٠٠٠ ميل من الارض الى الجزء الجنوبى من الهند ، ثم ٧٠٠٠ ميل من البحر الى الارض المغطاة بالثلج عند القطب الجنوبى . أما اذا قسنا بطول منتصف خليج البنغال أو البحر العربى فان آسيا تبلغ ٣٥٠٠ ميل فقط ، ومن باريس الى فلاديفوستك Vladivostok

٦٠٠٠ ميل ، ومن باريس الى رأس الرجاء الصالح مسافة مساوية للسابقة» .

قال ماكندر : «ليست الامريكتان واستراليا صغيرة نسبيا من حيث المساحة فحسب ، بل وان القوة البشرية والموارد الطبيعية التى فيها أقل بكثير مما فى «القارة العظمى» أو «الجزيرة العالمية» . ويسأل ماكندر : «ماذا لو أن القارة العظمى أو الجزيرة العالمية كلها ، أو الجزء الاكبر منها ، صارت فى وقت ما ، فى المستقبل ، قاعدة متحدة من القوة البحرية ؟» الا تتفوق على القواعد الجزيرية الاخرى من حيث السفن والرجال المديرة لها ؟» ، هذا ، ورغم أن المانيا هزمت ، فلايزال هناك احتمال أن جزءا كبيرا من القارة العظمى سيتحد فى يوم ما تحت امرة حكومة واحدة ، وتبنى عليها قوة بحرية عظمى لايمكن قهرها . وحذر ماكندر يقول : « لو كسبت المانيا الحرب لكونت قوتها البحرية على أساس أوسع من اية قوة فى التاريخ ، والحقيقة انها ستكون على أوسع قاعدة ممكنة » .

لقلب قارة ماكندر ، أساسا ، نفس حدود محوره السابقة. فقلب القارة هو المنطقة الوسطى فى أوروبا وآسيا النائية ، والبعيدة عن متناول سيطرة القوة البحرية . «وتشمل بحر البلطيق ووسط نهر الدانوب الصالح للملاحة ، وجزءه من ناحية المصب ، والبحر الاسود وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس والتبت ومنغوليا . اذن ، يضم قلب القارة فى داخله بروسيا براندنبرج Brandenburg Prussia والنمسا والمجر ، وكذلك روسيا — انها مثلثة الشكل ذات قوة بشرية عظيمة ، كان يفتقر اليها راكبو الخيول التاريخيون » .... ذكر ماكندر بحر البلطيق والبحر الاسود فى هذه المنطقة ، لانه ثبت ابان الحرب العالمية الاولى استحالة الوصول اليها أو السيطرة عليهما من الخارج بأية قوة بحرية .

أكمل ماكندر قوله بتعريف آخر لقلب القارة بأنه : «ظرف طبيعى هام واحد تربطه كله معا ، بيابيا ، عند حافة جبال فارس المطلة على أرض العراق Mesopotamia الشـديدة الحرارة ، تحت الثلج فى زمن الشتاء ...... وفى منتصف الشتاء كما نرى من القمر درع واسعة بيضاء وتظهر قلب القارة فى أضخم معابيه ... اقتنع ماكندر بأن هذه المساحة هى مفتاح الجزيرة العالمية. وتمتد اجمالا من جبال هيمالايا الى المحيط المتجمد الشمالى ، ومن نهـر الفولجـا Volga الى نهـر يانجتسى Yangtze وتمتـد مسـافة ٢٥٠٠ ميـل شـمالا وجنـوبا ومسـافة ٢٥٠٠ ميـل أخرى شرقا وغربا . ولما كانت بمأمن من القوة البحـرية بسبب موقعها داخل القارة ، ويمكن لقلب القارة هذا اذا نما نموا صحيحا ونظم عسكريا ، أن يصير مركز ومحـور قـوة عالمية ذات تأثير عظيم .

اختصر ماكندر حججه الى صيغة شـائعة على الالسن ، نصها :

« من يحكم شرق أوروبا يسيطر على قلب القارة ،

ومن يحكم قلب القارة يسيطر على الجزيرة العالمية ،

ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على الدنيا » .

ولكى يحال بين اية أمة واحدة ، وخصوصا روسـيا أو المانيا ، وبين التفوق فى قلب القارة ، اثر الحرب العالمية الاولى ، نصح ماكندر بتكوين حاجز من الدول يمتص التصـادم من بحـر البلطيق الى البحر الاسود . والدول المستقلة كما يراها ماكندر هى استوليا Esthonia ولتوانيا Lithuania وبوهيميـا العظمى Great Bohemia والمجر والصرب العظمى Great Serbia ورومانيـا العظمى وبلغاريا واليونان ــ وهـذه قائمة تختلف اختـلافا طفيفا

عما قرره مؤتمر السلام فى باريس . وعلى ضوء التاريخ الحديث ، اخطأ ماكندر خطأ فاحشا ، فلم تحقق منطقة امتصاص الصدام الغرض المطلوب منها . اذ اخترقت المانيا هذا الحاجز أولا ، ثم روسيا .

وابان الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٣ ، قبل موت ماكندر بأربع سنين ، اختبر نظرية قلب القارة للمرة الثالثة فى مقال عنوانه : «العالم المستدير وكسب السلام» ، فوجد فكرته « أكثر صحة ونفعا اليوم مما كانت عليه منذ عشرين أو أربعين سنة مضت» . واستطرد يتنبأ بأنه : «اذا هزم الاتحاد السوفيتى المانيا فى الحرب ، فلابد ان يكون أعظم دولة فى الدنيا . وزيادة على هذا ، سيكون القوة ذات المركز الاستراتيجى الاقوى فى ناحية الدفاع . فقلب القارة اعظم حصن طبيعى على ظهر البسيطة ، ولاول مرة فى التاريخ ، تسيطر عليه حامية كافية ، كما ونوعا .

لم تتشبث دولة ما بنظريات ماكندر مثلما فعلت المانيا النازية . وتبعا لتفسير كارل هوشوفر **Karl Haushofer** ، كاتب الموضوعات الجغرافية الكثير التصانيف ، فان فكرة ماكندر الاساسية عن قلب القارة الموجود فى جزيرة عالمية ، سادت الفكر السياسى الالمانى لمدة عشرين سنة ١٩٢٥ — ١٩٤٥ .

اشتهر هوشوفر فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٩٠٨ عندما اوفد الى اليابان كملاحظ حربى لموظفى القائد الألمانى . فركز اهتمامه على استيعاب شئون الشرق الاقصى ، صار معروفا كخبير وعن طريق موهبة استثنائية لحفظ اللغات ، تعلم التكلم بست لغات أجنبية منها الصينية واليابانية والكورية والروسية ، كما أنه توسع فى رحلاته ليلم ، من كثب ، بالشرقين الاوسط والاقصى . رقى هوشوفر فى الرتب العسكرية ابان الحرب العالمية الاولى ،

وتقاعد برتبة ماجور جنرال Major General وبعد استسلام المانيا ، وللمدة الباقية من حياته العملية ، شغل بالكتابة فى الجغرافيا السياسية وتعليمها ، والتاريخ الحربى فى جامعة ميونيخ Munich . فسطر قلمه عدة كتب وكتيبات ومقالات للتفسير فى المثل العليا النازية بكلمتى سر هما : السياسة الجغرافية ، وتتناول تحركات التغيرات السياسية فى العالم أو فضاء السكنى Lebenstraum ، ويقصد بها حاجة الشعب الى أراض للسكنى ، للتوسع والنمو .

لانعرف متى عثر هوشوفر على مؤلف ماكندر لاول مرة . وربما كان هذا فى أوائل عشرينات القرن العشرين . وعلى الفور ادرك هوشوفر أنه عثر على أستاذه ، فصرح من تلقاء نفسه بأنه مدين له . فمثلا ، كتب فى سنة ١٩٣٧ يصف ورقة ماكندر لسنة ١٩٠٤ بأنها ، «أعظم الآراء الجغرافية فى العالم كله » ثم أضاف «أنه لم ير فى حياته شيئا أعظم من تلك الصفحات القليلة لروائع السياسة الجغرافية» . وبعد ذلك بسنتين ناقش موضوع تحالف المانى روسى ، مشيراً الى أن ماكندر اتخذ وجهة النظر البريطانية عن الخوف من القوة التى ستكون لتلك الدولتين ان اتحدتا . وكثيرا ما أستشهد هوشوفر بحكمة أو فيد Ovid : » من الواجب أن نتعلم لغة العدو « ... أعاد طبع خريطة ماكندر لقلب القارة اربع مرات على الاقل فى مجلة Zeitschrift für Geopolitik واعترف ، بلا تردد ، بأن أفكاره مبنية على الاساس الذى قدمه ماكندر .

كان صديقهما رودلف هيس Rudolf Hess حلقة اتصال بين هوشوفر وهتلر . فبينما كان هتلر فى السجن بعد قضية خمارة بوتش Beer Hall Putsch الفاشلة لسنة ١٩٢٣ ، زاره هوشوفر عدة مرات ... أوضح هتلر فى عدة فقرات من

كتابه « كفاحى Mein Kampf » ، أنه استقى من هوشوفر بعض مذاهب السياسة الجغرافية . ولما انتصر النازيون بعد ذلك بعشر سنين كان هوشوفر فى مركز قيادى يخوله التأثير على سياسة المانيا . واذ عين رئيسا لمعهد السياسة الجغرافية النازى، جند عددا ضخما من الموظفين ليدرعوا الارض للحصول على معلومات عن الطبيعة والظروف المعيشية والاثر التهذيبى للشعوب، وغير ذلك من المعلومات الجغرافية ذات الاهمية الحربية القوية .

واذ أعجب هوشوفر بأفكار ماكندر ، تسلطت عليه فكرة أن المانيا لابد أن تسيطر على قلب القارة . فانتشرت رسومه عبر القارة من نهر الراين الى نهر يانجتسى ، وتركزت على خطته لحدوث تحالف عملاق بين المانيا واليابان والصين وروسيا والهند ضد الامبراطورية البريطانية .. وقد وافقت هيئة الموظفين الالمانية العامة على تعاليمه وأيدتها . وبدأ توقيع الميثاق النازى السوفيتى فى سنة ١٩٣٩ محققا لحلم هوشوفر ، غير أن سياسته كلها ذهبت ادراج الرياح عندما اقترف هتلر أعظم خطأ عجل بنهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما أمر قواده بأن يهاجموا الاتحاد السوفيتى. وبعد ما انتهت الحرب بفترة وجيزة ، انتحر هوشوفر وزوجته فى بيتهما البافارى .

وكما هو طبيعى ، اتهم النقاد هوشوفر بأنه هو الذى وضع أساس المذهب الحربى النازى ، بيد أن ماكندر دحض هذا الاتهام فى الخطبة التى ألقاها عام ١٩٤٤ ، اذ قال :

« علمت بسريان شائعات تقول اننى أوحيت الى هوشوفر الذى أوحى الى هيس ، فاقترح هذا بدوره على هتلر ، عندما كان يملى كتابه «كفاحى» ، ببعض أفكار السياسة الجغرافية ، يقال اننى مصدرها . انها ثلاث حلقات فى سلسلة ، ولكننى لا أعرف

شيئا عن الحلمتين الثانية والثالثة . ومع ذلك ، فانني أعرف بمن دليل قلمه ، ان كل مااقتبسه هوشوفر منى ، اخـذه من خطاب المحور الجغرافى للتاريخ) الذى القيته امام الجمعية الجغرافية الملكية منذ اربعين سنة خلت ، قبل وجود اى مسألة عن حزب نازى ، بزمن طويل .

لم يكن انتشار مذاهب السياسة الجغرافيـة ، بالطبـع ، قاصرا على المانيا وحدها . فقلما كان الروس أقل نشاطا من الالمان فهناك مكتب جغرافى مزدهر ، هـو معهـد موسـكو للاقتصـاد والسياسة العـالمية ، الذى اهتم منـذ وقت طـويل بالنزاع بين الولايات المتحدة والجزيرة العالمية التى يأمل الاتحاد السوفيتى فى السيطرة عليها . ومن الممتع فى هذا الخصوص أن نذكر رأىماكندر فى روسيا عام ١٩١٩ عندما كانت الحكومة الشيوعية فى حـداثة عهدها . كان مقتنعا بأن الفهد لايغير مناطقه أبدا . «يتعارض نوع الحكومة البريطانية والامريكية والمثل العليا لعصبة الامم ، مـع السياسة التى صيغت فى قالب الطغيان لشرق أوروبا وقلب القارة سـواء اكانت على نظـام الاسرات dynastic أو بولشـفية Bolshvik . قد تكون حالة الطغيـان البولشـفى رد فعـل أقصى للطغيان الاسرى . ولكن من الحقيقى أن السهول الروسية والبروسية والمجرية ، مع تناسق حالاتها الاجتماعية المتسعة على نطـاق عـريض ملائمـة لسـير العسكرية ودعاية النقابيـة Syndicalism » .

نوقشت صحة نظريات ماكندر الجغرافية نقاشـا طـويلا واحصيت جميع النقاط التى يحيط بها أى شك . ومن العيوب الواضحة ، اخفاق ماكندر فى أن يحسب حساب الامكانيات الهائلة التى للقوة الجوية . ولكنه اعترف فيما كتبه بعد ذلك ، بأن غزو الجو قد فرض على العالم نوعا من الوحدة . الا انه أصر على أن

هذا التقدم قد أيد «قلب القارة» ، نضال الجزيرة العالمية ، ولم يضعفها — ويصر النقاد على أن القوة الجوية قد غدت سلاحاً رهيبا الى درجة جعلت نظرية قلب القارة تفقد أهميتها الاستراتيجية . فالخطوط الجوية تعبر الآن المحيطات والقارات من جميع الجهات . وكما علق هريك Herrick :

الهواء عالمى مشاع للجميع . أنه طريق واسع فرد يقطع حسب الارادة فوق الارض أو البحر على حد سواء . لايصد القوة الجوية الا قوة جوية . وهى لاتعرف قلب القارة البعيدة عنها تمام البعد .. والقانون الاستراتيجى الآن ، قد يكون : «من يركب الطائرات يسيطر على القواعد ، ومن يسيطر على القواعد يسيطر على الجو ، ومن يسيطر على الجو يسيطر على العالم» .

يدعم وجهة النظر هذه فحص كرة أرضية حيث يرى المرء مايجاور قلب القارة وأمريكا الشمالية «مرئية من أمريكا الشمالية» وبمصطلحات وسائل المواصلات الحديثة . ويقول وايجرت Weigert : « ماعادت أستحالة الوصول ولا بعد الشقة يحجب عنا قلب القارة . لم تعد تقع خلف سور موقع منيع لايمكن النفاذ اليه . اذ قهرت الطائرات الحديثة البعيدة المدى مناطق القطب الشمالى فى الخمسين سنة بعد أن ألقى ماكندر تحذيراته المشئومة . وزيادة على ذلك ، فان نفس حجم قلب القارة عقبة كئود لقوة الدفاع . فذلك الطول العظيم لاراضي روسيا السوفيتية وسواحل البحار ، مثلا ، تزيد من امكان اصابة الطائرات المعادية، وتخلق مشكلة دفاع بالغة التعقيد . وبحسب الفاظ ماكندر ، «بينما يمكن أن تضرب من جميع الجهات ، يمكن أيضا ضربها من جميع الجهات» .

هناك نقطة هامة ، وأخرى عمي عنها ماكندر ، اذ فشل فى ادراك المركز القوى الذى تحتله الامريكتان . وفى أثناء كتابته «المثل

العليا الديمقراطية والحقيقة» . شاهد منذ فترة وجيزة فى الحرب العالمية الاولى ، استعراضا لقوة امريكا وعنفها . ويبدو أنه كان مشغولا بفكرة قلب القارة والجزيرة العالمية فى نظرته الى الارض. وعلى ذلك لم ير الدنيا الجديدة الا منطقة ساحلية و «مجرد تابع للقارة القديمة » .

ورغم مساوىء ماكندر التنبؤية فهناك ادلة قوية تؤيد آراءه ... اقام الاتحاد السوفيتى حكما جديدا على قلب القارة ، وعن طريق التقدم الزراعى والصناعى واستغلال المعادن والسكك الحديدية وانشاءات المجال الجوى ، جعلت المنطقة من أقوى المناطق فى العالم اقتصاديا وحربيا . ومن ناحية أخرى ، فعلى الرغم من أنها بدات عددا من الخطط الخمسية فى العشرين سنة الماضية ، فلم تبلغ تلك المنطقة المقدرة الانتاجية التى للولايات المتحدة ، هذا وبرغم أن الاتحاد السوفيتى يحكم قلب القارة فانه لايزال بعيدا عن هدفه من السيطرة على الجزيرة العالمية ، فما بالك بالعالم .

كشف النقد ضعف بعض تفاصيل آراء ماكندر ، ولكنه لايفند الاسس الاصلية . ربما أن «الرأى الاول يمدنا بفكرة عالمية من الدنيا وشئونها» . وتنص عبارة جون ك . واينانت John C. Winant على أننا سنتذكره لمدة طويلة . وقال ماكندر : « لاتوجد منطقة جغرافية كاملة أصغر من سطح الارض ولا اكبر منه» . كان آليا فى الحصول على تصديق واسع للنظرية التى عبر عنها فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٨٩ وتقول : «ان باب الجغرافيا السياسية هو الباب المتوج للجغرافيا » . كان جل اهتمامه أن يحث مواطنيه وشعوب الديمقراطيات الاخرى على

الايمان بأن الحقائق الجغرافية ذات أهمية اساسية فى نمو الشعوب والدول . كان يؤمن ويعلم أن الدنيا لن تعيش فى سلام للديمقراطية الا اذا فهمت الحقائق الجغرافية فهما تاما . لقد وضعت أسس الجغرافيا الحديثة على آراء ماكندر عن العالم ومناطقه .

١٠ ـ دراسة فى جنون العظمة

أدولف هتلر Adolf Hitler

«كفاحى» Mein Kampf

كانت كومة الحريق التى التهمت جثتى ادولت هـتلر وايفا براون Eva Braun ، فى العـاشر من ابريل سنة ١٩٤٥ ، محكمة في برلين القائمة على عمق كبير تحت الأرض ، كانت هذه الكومة خاتمة المطافالتى كان يمكن أن يفكر فيها « هتلر ، مؤلفالاوبرا ، أعظم من اعجب به النـاس اعجابا حماسـيا فاتخذه ريتشـاورد واجنر Richard Wagner موضـوعا لأوبرا جـديدة عنـوانها Gütterdämmerung ، أو شفق الآلهة » ... جلجل المنظر أسـفل الستار عن رواية شجوية عظمى ، افتتحت قبـل ذلك بجيـل عندما بدأ فوهرر Führer المستقبل سيره نحو السلطة والقوة .

وعندما قبض الحزب النازى ، بقيـادة هتلر ، على زمـام الحكومة فى سنة ١٩٣٣ بعد اضطرابات دامت أكثر من عشر سنوات

مقترنة بأعمال العنف ، روع العالم بتلك الاعمال . كان نظام الحكم متهورا فى تثبيت رقابته ، فتركت جميع انظمة الحكومة الديمقراطية ، واوقفت الآراء المعارضة فى غير رحمة ، واضطهدت الكنائس والجمعيات الاخوية واتحادات العمال او ضمت . وقتل اليهود فى أعداد ضخمة ، ووجهت التهديدات علنا الى الامم الصديقة المجاورة عن طريق موجات من الدعاية .

ومع ذلك ، فلو أتعب غير الالمانيين انفسهم وقرءوا بامعان مجلدا ضخما عنوانه « Mein Kampf » اى «كفاحى» ، لوجدوا البرنامج كله موضحا امامهم بكل تفاصيله المخجلة . شكرا للرقابة الدولية على المطبوعات ، فقد نجح مؤلفه فى أن تقتصر القصة كلها على الطبقة الالمانية الاصلية . وحتى لو ترجم النص الموبوء ، وفاز بحرية التداول بالانجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الاخرى ، لاعتبره كثير من الناس « حلما خياليا لرجل خيالى مخبول» ـ بدا بالغ الاتساع فى مداه ، وطموحا بدرجة لايصدقها العقل لقد سمى «كفاحى» بحق أروع ماأخرجته الدعاية فى هذا العصر » . ولننظر اليه من ناحية وجهة نظر قاضى المحكمة على انه «أعظم الكتب اجراما فى القرن العشرين» . انساقت أمة عظيمة وحلفاؤها لتنفيذ الآراء الخيالية التى تضمنها ذلك الكتاب . فعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، وزع منه فى المانيا وحدها خمسة ملايين نسخة .

واذ نما هتلر وتربى فى فينا (مثل شخص آخر اسمه سيجموند فرويد Sigmund Freud ، كون وهو فى حداثة سنه انطباعات وتعصبات وأحقادا قيض لها أن تحكمه طيلة بقية حياته . صب كل شىء فى كتابه «كفاحى» . وتبين الابواب الافتتاحية صورة موجزة هامة من تلك السنوات الاولى . ولد فى سنة ١٨٨٩ فى براونو Braunau بالنمسا على الساحل

المواجه للحدود الالمانية ، ولذا كان يشعر دائما بأنه المانى أكثر منه نمساوى . وكان يحتقر ، بنوع خاص ، شعب فينا المتنعم وتبعا لرواية هتلر ، هو نفسه ، كانت أولى سنى حياته مليئة بالحرمان والآلام والاخفاق وعدم التوفيق وسوء التنظيم . توقفت دراسته الشكلية فى المدارس وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ومات والداه وهو فى حوالى تلك السن ، فكافح فى فينا ليكون مصورا ، واذ اخفق فى هذا المضمار حاول أن يشتغل بالمعمار ، بيد أن افتقاره الى التعليم والى الموهبة لم يساعده على نيل مأربه .

يدعى هتلر أنه أثناء وجوده فى فينا ، قرأ الكثير ولاسيما التاريخ . وتأثرت أفكاره ، بنوع خاص بكتاب عن الحرب الفرنسية البروسية التى أوحت اليه بأن يفخر كثيرا بالجنس الالمانى ، فاقتنع بالمصير الذى كتبه الله لذلك الشعب . وفى الوقت نفسه بدأ يكون كراهية حادة نحو اليهود واحتقارا شديدا للسلافيين Slavs وغير الآريين جميعا ، قرر أن اليهود ، أولا وقبل كل شىء جامعو أموال وانتهازيون دوليون ، وعادة مايكونون اشتراكيين او شيوعيين بينما السلاف جنس أقل من الجنس الالمانى وليس لديهم ثقافة خاصة بهم .

كان لاختلاط هتلر بالديمقراطيين الاجتماعيين فى فينا أن جعله يمقت الدعاية الاشتراكية والشيوعية . ورغم انه كان تلميذا مجدا فى خطط الحرب ، فقد لازمته كراهيته للماركسية طول حياته . ورغم شراهته للقراءة فليس هناك اى دليل على أنه فتح كتابه «كفاحى» . كما كان يبغض الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية اشد البغض . وبدأت هذه البغضاء عندما كان يحضر جلسات الرايخسرات Reichsrath النمساوى فى فينا ولاحظ ما اعتبره طرقا غير فعالة .

واخيرا ، اذ لم يعد يحتمل استنشاق هواء العاصمة فينا

المقيت ، استقر فى سنة ١٩١٢ فى ميونيخ التى كان يطلق عليها «مدينة المانية تماما» . وبعد ذلك سره اندلاع نار الحرب العالمية الاولى ، فتقدم للتجنيد فى كتيبة بافارية . وقبل ان تضع الحرب أوزارها ، جرح وتسمم بالغازات السامة ، وزين صدره مرتين بالنياشين ، ورقى الى رتبة جاويش . وحزن لهزيمة المانيا وثارت ثائرة غضبه اذ اعتقد أن سبب هذه الهزيمة هم اليهود والماركسيون وانصار السلام . كما أغضبه واثار حفيظته قيام حكومة ديمقراطية فى المانيا بعد الحرب . عندئذ عزم على الاشتغال بالسياسة .

بدأ اشتغال هتلر بالسياسة بعد عودته الى ميونيخ . فعمل، لوقت ما ، مخبرا سياسيا للجيش أو Wehrmacht (القوات المسلحة) . ودعى لان يكون عضوا فى جماعة صغيرة تسمى «حزب العمال الالمانى» فقبل به ، وسرعان ماغير اسم ذلك الحزب الى «حزب العمال الاشتراكى القومى الالمانى» ، وهو نواة الحزب النازى Nazi . وبعد فترة قصيرة ، وبمناورة داخلية ، قبض هتلر على زمام ذلك التنظيم ، وأبطل العادة القديمة العديمة المعنى لاصدار قرارات الحزب بأخذ أصوات الاعضاء . فصمم برنامج الحزب وتطور بأمر هتلر ، لارضاء طبقات العمال ، واستأصل شأفة «القاتلين بالسم الدوليين» والغى الهيئات التشريعية ، واقر مبدأ الطاعة العمياء للقائد Führer دون توجيه اية اسئلة .

واذ كان بذلك الحزب ٢٧٠٠٠ عضو فى سنة ١٩٢٣ ، وتؤيد هتلر عصبة عسكرية تحت أمرة القائد لودندورف Ludendorff بينما بدأت حكومة سترسمان Stresemann تترنح ، أدرك هتلر أن الفرصة سانحة ليقبض على السلطة . كان له اتباعه ، فدبر التمرد الشهير لحانة البيرة بوتش Putsch فى ميونيخ،

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، وقتل فيها ستة عشر من اتباع هتلر فى الطريق ، وقبض على هتلر نفسه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، خفضت فيما بعد الى سنة واحدة .

بينما كان هتلر سجينا فى القلعة البافارية فى لانبدزبرج Landsberg ، وجد متسعا من الوقت ، لاول مرة ، ليكتب تاريخ حياته . والواقع أن كتاب «كفاحى» كان كتابا شفويا أكثر منه مكتوبا . وقد قاسم هتلر سجنه تلميذه الوفى رودلف هيس Rudolph Hess ، فأملى هتلر الكتاب على هيس الذى كتبه على الآلة الكاتبة مباشرة ، وبذا تم الجزء الاول . واذ كان اهداؤه الى الستة عشر شهيدا الذين سقطوا صرعى فىمعركة تمرد ميونيخ، كان العنوان الاصلى لذلك الكتاب هو «أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والحماقة والجبن » . وتم الجزء الثانى فى سنة ١٩٢٦ فى برختسجادين Berchtesgarden .

وصف أوتو توليسخوس Otto Tolischus مادة كتاب «كفاحى» بأنها : « ١٠٪ تاريخ حياة المؤلف ، ٩٠٪ عقيدة ، ١٠٠٪ دعاية » — وهنا تحليل عادل . ويبدو من غير المصدق اليوم ، أن يستولى مثل هذا الكتاب الركيك المطول والردىء الكتابة والملىء بالمتناقضات والتكرار ، على عواطف أمة ذات ثقافة عالية . بيد أن الموقف كان يسير على نظام موضوع . وهناك تعليقات لودويج لور Ludwig Lore عليه ، التى تنير كل غامض :

« كان الشعب الالمانى فى عام ١٩٣٣ فى حالة تأثر خطرة بالنظام الفاشيستى . حاولوا ايجاد طريق للعودة الى الحياة العادية واحترام الذات النفسى ، فوجدوا الطريق مسدودا بالتعصب وسوء الفهم الاعمى . ولم تهتم الدول العظمى بشىء ما غير التعويضات . وانقسمت أحزاب العمال الالمانية ، التى كان من

الممكن أن تمد يد العون ، الى ستة معسكرات متصارعة . حدث كل هذا امام خلفية ملونة بقومية عالية الضغط . وصل الشعب الالمانى الى نقطة يبدو أن النظام والامن فيها كانا أهم من الحرية السياسة التى صارت مرادفة للعراك وسفك الدماء . فأدرك هتلر هذه الامور جيدا واستغلها لاغراضه تساعده مقدرته الهائلة على التنظيم والدعاية ، واستعداد كبار رجال الصناعة الالمان لتمويل حملاته . فما ان استقر حتى سهل الاحترام الفطرى الالمانى للسلطة استقرار القيادة الفاشستية» .

ولحن خطة «كفاحى» الذى يكرره المرة بعد المرة هو الجنس، ونقاء الجنس ، وتفوق الجنس وسيادته ـ رغم أن هتلر لم يعرف الجنس فى اى موضع من كتابه ، ولكنه قال ان الجنس البشرى ينقسم الى ثلاث مجموعات هى : خالقو الثقافة الذين لهم مثال واحد هو الآريون أو النورديون (اى الالمان على وجه التحديد) ، وحاملو الثقافة مثل اليابانيين ، ومحطمو الثقافة مثل اليهود والزنوج . ويؤكد هتلر على ان الطبيعة لم تقصد قط أن يتساوى جميع الاجناس ، كما لايتساوى كل الافراد ، فقد خلق البعض متفوقين على البعض الآخر . ولما كان الالمان أقوى جنس فى العالم، وجب أن يحكموا أجناس البشر الاقل منهم . وتبين بضع فقرات من كتاب «كفاحى» وجهة نظر هتلر فى الاجناس الاقل .

كتب هتلر عن الامبراطورية النمساوية يقول :

« طردت تلك الامبراطورية بسبب تكتل الأجناس التى رايتها فى العاصمة ، طردت بسبب كل ذلك الخليط من التشيكيين والبولنديين والمجريين والروثانيين والصربيين والكرواتيين ، كما يوجد فى كل مكان ذلك التطفل الابدى للجنس البشرى ، الا وهو : اليهود ، ومزيد من اليهود» .

وكتب عن الأفريقيين :

« ... من الجنون الاجرامى أن يستمر النـاس فى تدريب نصف قرد بالفطرة الى أن يظنوا انهم خلقوا منه محاميا ، بينـما يبقى الملايين من أفراد الجنس الاسمى ثقافة فى مراكز لاتليق بهم على الاطلاق .. انها لخطيئة اى خطيئة ضـد ارادة الخـالق السرمدى ، اذا ترك المئات ومئات الالوف من كائناته الموهـوبة افضل المواهب ، يهلكون وسط مستنقع طبقة الفقراء ، بينما يدرب الهوتنتوت والزولو والكفيرللمهن العقلية .

أما الهنود القوميون : «فأدهشـونى دائمـا ، فردا فردا ، بثرثرتهم وتعاظمهم دون سند حقيقى من الماضى . وأما البولنديون والتشيكيون واليهود والزنوج والآسيويون فجمعوا فى قراب واحد على انهم غير جديرين بالجنسية الالمانية حتى ولو كانوا مولودين فى المانيا ويتكلمون اللغة الالمانية» .

وخص فرنسا باحتقار خاص :

« ... من ناحية الجنس ... انها تحرز تقدما عظيما فى التحـول الى زنوج ، حتى ليمكننا أن نتحـدث عن دولة أفريقية نشأت فوق أرض أوروبية . لايمكن مقارنة السياسة الاستعمارية لفرنسا الحالية بسياسة المانيا فى الماضى . واذا استمرت فرنسا فى نمط تقدمها الحالى لمدة ثلثمائة عام ، غاصت آخـر بقية من الدم الفرنسى فى الدولة الخلاسية الملونة المكونة من الافـريقيين والاوروبيين» .

يبلغ تعصب هتلر للجنس أوجه فى الهجوم الجنـونى على اليهود ، كما فى هذه الفقرة ، مثلا :

« جميع أفكار اليهود فى كل هذا واضحة : بلشفة المانيا — اى استئصال الاذكياء القوميين الباحثين عن اليهـود — ليصـير بالامكان جعل طبقة العمال الالمان ترزح تحت نير جمـع اليهـود

للاموال . لاتتخذ هذه البلشفة الا كاجراء أولى لمدر هـذه الميول اليهودية لغزو العالم ، الى مسافة أبعد . وكما حدث كثيرا فى التاريخ ، فان المانيا هى المحور العظيم فى النضال الجبار . فاذا وقع شعبنا ودولتنا فريسة لأولئـك الطغـاة اليهـود الشرهين والمتعطشين للدماء فى الأمم ، فان الأرض كلها ستقع فى قبضة ذلك الاخطبوط . واذا خلصت المانيا نفسها من قبضته ، اعتبر ذلك الخطر الاعظم «على الامم ، محطما أمام العالم قاطبة ...»

وعلى العموم ، سيحارب اليهود داخـل مختلف الهيئـات القومية ، بتلك الاسلحة التى تبدو ،تبعا لعقلية تلك الامم المعروفة، أعظم فاعلية وتبشر بأعظم نجاح . ففى هيئتنا القومية الممزقة من حيث الدم ، تنخر تلك الافكار العالمية التصورية الناشئة من هذه الحقيقة ، أى الميول الدولية التى تستخدم فى نضالها القوة .. حتى تهدم دولة وراء أخرى وتحولها الى كومة من الانقاض يمكنها ان تبنى فوقها عظمة الامبراطورية اليهودية الخالدة» .

وللاحتفاظ بالنقاء الفطـرى للآريين ، أى الجنس الالمـانى السيد ، يجب الا يختلط به جنس أقل . واكد هتلر أن انحطاط الامم العظيمة فى الزمن الماضى قد نتج عن اختلاط الدم وفقدان نقاء الجنس . ولتحاشى مثل هذه الكارثة ، من واجب الدولة أن تتدخل : وحتى اذا احتج الجبناء والضعفاء عن غزو حقوقهم ، وجب على الدولة أن «تحافظ على بقاء دم الامة نقيا حتى تصـل البشرية الى ذروة تقدمها . ينبغى للدولة أن تنتشل الزواج من هوة عار الجنس وتقدسه كوسيلة لانتاج أشباه آلهة ، بدلا من خلق كائنات بين الانسان والقرد » .

كان هتلر يؤمن فى تعصب بالتفوق الفطرى للجنس الآرى على سائر الاجناس ، فأخذ يعلن أنه من واجب الجنس السيد وامتيازه ، أن يهزم الاجناس الاخرى . ويستغلها ويطردها أو

يبيدها من أجل مصلحته هو . وبما أن المانيا مزدحمة بالاهلين وتحتاج الى مزيد من الارض ليعيش فيها قومها ، فمن حقها بصفتها القوة النوردية العظمى ، أن تستولى على أرض سلافية، فتنزع السلاف من أرضها وتضع فيها الالمان . وبذا ، سوف تنتفع البشرية كلها ، على مر العصور الطويلة ، من عادة امتداد الجنس الاعلى واتحاد الشعوب الالمانية المشتتة ، تحت حكم واحد «لن يضمن لأية أمة حرية البقاء الا مساحة واسعة مناسبة .. فاما أن تكون المانيا قوة عالمية ، واما الا تكون هناك المانيا اطلاقا » .

أما الامتداد الشاسع الذى يصوره هتلر فيتم أساسا على حساب روسيا . نظر الى الشرق بنهم وتطلع الى مايمكن تنفيذه: «فاذا ضمت جبال أورال بموادها الخام الهائلة ، وأوكرانيا ذات حقول القمح التى يخطئها القياس ، الى حدود المانيا ، كان ذلك انسب . » فمن واجب المانيا انقاذ الشعب الروسى من القيادة البولشفيك . واستطرد يقول : «اذا تحدثنا عن الارض فى أوروبا اليوم ، فلن يطرأ على بالنا ، بصفة مبدئية غير روسيا وولاياتها الواقعة على الحدود . يبدو أن الحظ هنا يشير علينا ، فبتسليم روسيا الى البلشفية ، نسلب الامة الروسية ذلك الذكاء الذى سبق أن حقق وضمن بقاءها كدولة .. نضجت الامبراطورية العظمى فى الشرق ليصيبها الانهيار » .

كذلك قال هتلر ، القوة هى تحقيق الغزو ... ما من شعب على ظهر البسيطة يملك شيئا مثل ياردة مربعة من الارض أكثر من رغبة أعلى أو حق أسمى .. فحدود الدول يصنعها الانسان ويغيرها الانسان . فاذا نجحت أمة فى الاستيلاء على قدر من الارض لا حق لها فيه ، فلايكون هذا سببا فى التزام أمة أعلى منها بأن تعترف به الى الابد . فعلى أكثر تقدير ، يبرهن هذا على قوة الغازى وضعف الامم الاخرى . وفى هذه الحالة يكون الحق للقوة وحدها .

اعترف هتلر بأنه كانت هناك حلول اخرى غير التوسع فى رقعة الارض لمعالجة الزيادة السريعة فى عدد سكان المانيا . ومن هذه الحلول تحديد النسل ، وهذا مرفوض لأنه لا يتفق ونظرية الجنس السيد . وهناك حل آخر لجأ اليه حكام المانيا قبل الحرب العالمية الاولى ، وهو التوسع فى انتاج المصنوعات للاسواق الخارجية ، أى زيادة التصنيع . وهذا حل لايعجب هتلر لانه أراد أن تغذى المانيا نفسها بنفسها وتعتمد على الاكتفاء الذاتى . وزيادة على ذلك فقد لقى معارضة عنيفة لانه يخلق طبقة عمال ويفيين ضخمة نتيجة للنظام الصناعى الضخم . والحل الثالث هو زيادة انتاج الارض الموجودة حاليا . ولكن هتلر اعترض على هذا بقوله انه حل جزئى ومؤقت ، واستنتج ان الحل أو العلاج الحقيقى الوحيد هو أن تستولى المانيا على اراض جديدة وراء الحدود الحالية ، وبذا يتمكن الكثير من الالمان أن يعيشوا عليها .

وتلخص الفقرة التالية ملخص أهداف هتلر البعيدة المدى فيما يختص بعدد سكان الارض .

... لدينا الآن ٨٠ مليون المانى فى أوروبا ! وهذه السياسة الخارجية لاتكون صحيحة الا اذا كان عدد السكان بعد حوالى مائة عام ٢٥٠ مليون المانى فى هذه القارة ، ولايعيشون محشورين كعمال مصانع من أجل بقية سكان العالم ، وانما كفلاحين وعمال يضمن كل منهم معاش الآخر بعمله .

وبالاختصار ، تنبأ هتلر بأن سكان المانيا سيكونون أكثر من ثلاثة أضعاف سكانها الحاليين ، فى المائة سنة التالية ، وأن كل شخص سيملك رقعة من الارض ضعف ماكان يملك الفرد من قبل . كذلك راقت هتلر فكرة السكان ذوى الرقعة الفسيحة من الارض لاسباب «جغرافية عسكرية» ، اذ تكون اقل سهولة على العدو (ظلال ماكندر هوشوفر Shades of Mackinder Haushofer)

ولكى يحقق هتلر الاهداف التى رسمها طموحه المحلق عاليا، اقترح استخدام ثلاث طرق . الدعاية والدبلوماسية والقوة ... لم يكشف المؤلف عن نفسه وعن خططه فى أى موضع من كتاب «كفاحى» اكثر مما كشف فى مناقشته لطرق الدعاية التى اعتقد انها أحد أسلحة النازى الفظيعة والاعظم فعالية . وقال ماكس لرنر Max Lerner عن هتلر : « ربما كان أعظم استاذ فى الدعاية والتنظيم ، فى التاريخ الحديث » . ثم استطرد يقول : «ولكى نجد له ندا ، يجب أن يعود المرء الى لويالا Loyala واليسوعيين» . ولكى يصل هتلر بفن الدعاية الى درجة الكمال ، درس طرق الماركسيين فى الدعاية ، وتنظيم وطرق الكنيسة الكاثوليكية ، والدعاية البريطانية للحرب العالمية الاولى ، والاعلان الامريكى ، وعلم النفس لفرويد Freud ، فكتب يقول :

«ليست وظيفة الدعاية ... أن تزن وتتأمل فى حقوق مختلف الناس ، ولكن لتؤكد الحق الوحيد الذى أعدته لتناقشه وليس عملها القيام بدراسة موضوعية للحقيقة طالما كانت فى صالح العدو ، ثم تضعها أمام الجماهير بعدالة علمية ، وانما عملها هو خدمة حقوقنا نحن ، دائما وبغير تردد . كان من الخطأ التام مناقشة جرائم الحرب من وجهة النظر التى لايمكن أن تكون المانيا وحدها هى المسئولة عن اندلاع نار تلك الكارثة . ولكن من الصواب وضع عبء اللوم كله على أكتاف العدو ، حتى اذا كان هذا لايتفق والوقائع الحقيقية ، كما حدث فعلا .. ليس الغرض من الدعاية تزويد الشبان المتحمسين بما يلهيهم ، ويقنعهم ، وما أعنيه هو اقناع الجماهير» .

واكد هتلر على أهمية التركيز والتكرار فقال :

« ان قبول الجماهير لما يسمعونه محدود جدا ، وذكاءهم بسيط ، ولكن قدرتهم على النسيان هائلة . ونتيجة لهذه الحقائق

يجب أن تكون كل الدعاية الفعالة قاصرة على بضع نقط قليلة ، ويجب أن تضرب على وتر هذه الصيحات باستمرار حتى يفهم الجمهور ماتريد منه أن يفهمه بصيحتك ، وبمجرد الانتهاء من صيحتك هذه ومحاولة أن تكون متعدد النواحى ، يخبو الاثر لان الحشود لاتستطيع هضم المواد المقدمة اليها ولا أن تحتفظ بها . وبهذه الطريقة تضعف النتيجة حتى تنمحى تماما فى النهاية» .

يتضح ايمان هتلر بالدعاية باعترافه أنه «يمكن بالدعاية اللبقة والقاطعة جعل الجمهور يؤمن بأن الفردوس هو الجحيم ، وأن الجحيم هو الفردوس» . فيجب أن تلائم الدعاية ، بأعظم طاقتها ، أقل ذكاء محدود . «وتهدف دائما وأساسا الى العواطف، وقليلا جدا الى عقل الانسان المناسب» . لايجب على الدعاية أن «تعمل بالدقة العلمية ، مثلما يجب على ملصقات الحوائط الا تعمل بفن ... فلما كانت جموع الجماهير التى تصل اليها ضخمة ، وجب أن يكون مستوى ذكائهم منخفضا» .

كذلك مما يفيد الدعاية بعض حيل سيكولوجية معينة . فمثلا يجب الا يحاول الانسان ، فى الصباح ، تحويل فكرالجمهور الى وجهة نظر مخالفة . فالانوار الخافتة مفيدة ، وفى المساء عندما يكون الناس متعبين وانخفضت قدرتهم على المقاومة . فانه «يسهل نسبيا الحصول على استجابتهم العاطفية الكاملة» . وهناك أداة قوية أخرى وهى طلب اقتراح الجماهير عندما تكون لدى الرعاع فرصة الاشتراك فى المواضيع والمظاهرات المتنوعة التى هى من خصائص النظام النازى . وكما عبر عن ذلك هتلر :

« ... مظاهرات الجموع الضخمة التى يسير فيها مئات الالوف من الرجال لتثبت فى الفرد الصغير الحقير روح الزهو بأنه رغم كونه دودة حقيرة ، فهو جزء من تنين عملاق تحرق

أنفاسه النارية ، فى يوم ما ، تلك الطبقة المتوسطة البغيضة ، وبذا تحتفل دكتاتورية العمال بانتصارها النهائى» .

يبدى هتلر ، ثانية ، أقصى احتقار للجموع ، ثم ثالثة ، وهكذا ، فى مثل هذه العبارات : «قطيع من الاغنام ذوات الرءوس الخاوية» ، «نجسد الغباوة» وفى اعتقاده الراسخ ، الذى يعبر عنه كثيرا ، بأن البشرية فى حالة الجموع عبارة عن حشد كسلان جبان وأنثوى وعاطفى وغير جدير بالتفكير المعقول .

وآخر ما فى طرق الدعاية الهتلرية ، مبدأ الكذبة الكبرى ، فيقول : «هذه النظرية صحيحة تماما ، فان عظم الكذبة عامل قوى يجعل الناس يصدقونها ... فمع السذاجة البدائية للجموع تكون الكذبة العظمى أكثر تأثيرا من الكذبة الصغيرة ، لانهم كثيرا مايكذبون فى امور تافهة ، ولكنهم يخجلون جدا من النطق بكذبة كبيرة ضخمة . اذن فلن تشتبه الجموع الكبيرة فى كذبة جسيمة، ولاتستطيع تلك الجموع اطلاقا أن تكون لها الوقاحة أن تفند الحقيقة الى مثل ذلك الحد» . وبالاختصار كلما عظمت الكذبة كانت أكثر تصديقا لدى الجماهير .

وهناك مبدأ دعاية عظيم آخر وهو مبدأ الشيطان الفرد . لاتربك الجمهور بتقديم عدد كبير من الاعداء وتطلب منهم أن يمقتوهم فى وقت واحد . اقتصر على خصم واحد ، وركز كراهية الجموع على هذا العدو . كان اليهود فى عرف هتلر هم الاعداء العالميون . نغض النظر عما اذا كان يتحدث ضد الديمقراطية أو الماركسية أو معاهدة فرساى أو فرنسا أو اى هدف آخر ، فانه يذكر اليهود دائما بالتآمر والتخطيط ويحاولون بعبقرية شيطانية أن يهدموا المانيا ويحطموا الثقافة الآرية . ومن امثلة هذا ، تلك الصيحة الهستيرية التى يقول فيها :

« ... ان فرنسا اكبر عدو فظيع ، وستبقى كذلك . فهذا الشعب الذى يتحول باطراد الى زنوج ، ويوطد روابطه بأهداف السيادة اليهودية على العالم ، خطر داهم على بقاء الجنس الابيض فى أوروبا . لان التلوث بالـدم الزنجى على نهـر الراين فى قلب أوروبا يحافظ على التعطش السادى للانتقام من هـذا العدو الوراثى لشعبنا مثل حساب اليهود الشديد البرودة ، وهـكذا يبدأ فى تلويث القارة الاوروبية فى قلبها نفسه ، ويجرد الجنس الابيض من اسس بقاء الملكية عن طـريق العـدوى بالانسـانية الاقل» .

وقال هتلر : « سهل عمل الدعاية باشراف الحكومة على التعليم . فالتعليم الكثير فى الكتب خطأ ، ويجب أن يحتل التعليم البدنى والصحة البدنية المقام الاول . وثانيا تنمية الشـخصية ولاسيما بالفضائل العسكرية والطاعة والوفاء وقوة الارادة وضبط النفس والقدرة على التضحية ، والزهو بالمسئولية . وفى المقـام الثـالث يأتى النشـاط الذهنى . ويجب أن يكون تعليم البنات اعدادا للامومة . كان هتلر يشمئز من فكرة تعليم الجميع ووصفه بأنه سم مفكك ابتدعته الاباحية لتحطيمها هى نفسها . فلكل طبقة ولكل قسم من كل طبقـة تعليم واحـد ممكن» . وكان يعتقد أن جموع الشعب العظمى يجب أن تتمتع بنعمة الامية .

يجب أن يكون تعليم المجموعة الاخيرة قاصرا على «بث الافكار العامة التى تنقش بالتكرار فى قلوب النـاس وذاكرتهم» . وليكن المبدأ الرائد هو أن الطفل ملك للدولة ، والهدف الوحيد من التعليم هو تدريب آلات للدولة .

تتمشى آراء هتلر فى التعليم الشعبى مع آرائه فى الديمقراطية عموما . ففى كل مناسبة ، كان يسخر من عدم صلاحية الدولة الديمقراطية :

« الديمقراطية الغربية اليوم مقدمة للماركسية التى بدونها لايمكن التفكير فيها . انها تمد الوباء العالمى بالمزرعة التى تستطيع جراثيمها ان تنتشر فيها . وقد خلق مبدأ البرلمان ، فى اقصى صوره ، «شذوذا من الزوائد والنار» ، كما يحزننا ان نقول ، تبدو النار لى على الفور ، انها انطفأت ... لان هناك شيئا يجب الا ننساه ، وفى هذا ايضا ، لايمكن أن تحمل الغالبية محل الفرد ، ليس ممثلا للغباء فحسب ، بل وللجبن ايضا . وماعاد مائة راس خاو تكون رجلا عاقلا واحدا ، ولايأتى قرار بطولى من مائة جبان» .

راى هتلر ان الديمقراطية هى «النظرية الخداعة التى سيلوح بها اليهود ـ اى النظرية القائلة بأن جميع الناس خلقوا متساوين ، بينما اى مذهب ذى أجماع عالمى وحقوق متساوية ، ضار ومدمر » .

استبدل هتلر مبدأ الديمقراطية بالمبدأ الرائد . ركز على الجموع التى يتوقع منها الطاعة العمياء دون توجيه أسئلة .

كان الفوهرر فوق الجميع ، يتحمل مسئولية كل مايعمل وكل مالم يستطع عمله .

واذ رسم هتلر خطته لالمانيا وللعالم فى كتابه «كفاحى» ، تمسك به تماما الا فى انحراف واحد هام ، هو الميثاق النازى السوفيتى لعام ١٩٣٩ . كان يشق عليه أن يستسيغ الاتفاق الروسى ، كما يتضح من هذا الحديث فى «كفاحى» :

«لاتنس أن حكام روسيا اليوم مجرمون عاديون ملوثون بالدماء . انهم حثالة البشرية الذين حبتهم الظروف فاكتسحوا دولة عظمى فى ساعة مأساة ،فقتلوا وأبادوا الوفا من روادهاالاذكياء فى وحشية متعطشة للدماء ... »

بما ان هتلر أوضح نواياه بجلاء فى «كفاحى» قبل أن يتبوأ مركز الحكم فى ألمانيا ، وقبل بدء الحرب العالمية الثانية بأكثر من عشر سنوات . فلماذا لم يهتم سياسيو العالم بتحذيراته ؟ يرجع بعض تجاهلهم أياه الى جو الصلح العام والتفكير المفعم بالآمال والرغبة فى السلم السائد وقتذاك بأى ثمن . وهناك عامل آخر هو القصة المدهشة للرقابة الدولية . ولما رفض هتلر التصريح بترجمة كاملة لكتابه «كفاحى» ، لم تتوفر باللغة الانجليزية الا طبعة معدلة حذف منها ماأراد حذفه ، حتى سنة ١٩٣٩ . وفى تلك السنة والحرب وشيكة الاندلاع ، قام ناشران أمريكيان احدهما يحمل موافقة هتلر ، والثانى لايحمل أية موافقة ، قاما باصدار طبعتين لم تتدخل فيهما الرقابة . وفى فرنسا ، فى سنة ١٩٣٦ ، عن طريق ناشر هتلر ، أقام هتلر دعوى لنشر ترجمة كاملة دون تصريح منه ، الذى فيه مخالفة لقوانين حقوق التأليف العالمية . كما نشرت فى لندن طبعة مكثفة حذفت فيها معظم الفقرات المهاجمة لفرنسا ، كما حذف فيها قسم يحبذ الحرب ، وبذا خففت من حدة نغمة الكتاب ليصير زائفا ومضللا .

فى تلك الاثناء كانت ملايين النسخ من كتاب «كفاحى» الكامل تباع وتتداول فى المانيا نفسها . وقدمت نسخة منه هدية لكل عروسين جديدين ، بينما كان المفروض فى كل عضو بالحزب النازى وكل موظف مدنى أن يكون لديه نسخة منه . والطبعات التى ظهرت فى المانيا بعد ذلك حذفت الهجوم على روسيا وفرنسا لاخفاء أغراض هتلر وتهدئة الاعداء الاقوياء الى حالة نوم .

اذا نظرالى كتاب «كفاحى» من حيث الماضى ، يقرر المؤرخون أن هتلر لم يفهم شيئا فى التاريخ . ويقول علماء الاجناس البشرية، ان آراء هتلر فى الاجناس هراء ، ويقول علماء التربية ان آراءه ونظرياته عن التعليم ترجع كلها الى العصور الوسطى ، وهى فى

جملتها رجعية . ويحتج علماء السياسة على مذاهبه الحكومية التسلطية وسوء تصوره للديمقراطية ، بينما يقرر خبراء الادب أنه لايعرف كيف يكتب فقرة أو ينظم بابا . ولخص ويجرت Weigert هذا بقوله :

كان هتلر نصف المتعلم خليطا من عدة تأثيرات : فن ماكيافيلى فى ادارة شئون الدولة ادارة تتنافى مع الاخلاق ، والقومية والرومانتيكية التصوفية لواجنر Wagner ، والتطور العضوى لداروين ، والتعصب الزائد لجنس بعينه لجوبينو Gobineau وهاوستون ستيوارت تشمبرلن Houston Stewart Chamberlain والمركب المسيحى لفيخت Fichte وهيجل Hegel ؛ والزهو الحربى الطنان لتريتخك Treitechke وبرنهاردى Bernhardi ، والتآمر المالى للنبيل البروسى المنبوذ ... أما هوشوفر فكان حلقة اتحاد بين النظريات والعمل ورغم كل هذه العيوب الواضحة، فان كتاب «كفاحى» كما وصفه أحد النقاد اللاذعين واسمه هندريك وليم فان لون Hendrik Willen van Loon

« هو احدى الوثائق التاريخية الخارقة للعصر كله ، فيضم سذاجة جان جاك روسو ، مع الغضب الجنونى لأحد أنبياء العهد القديم » . وأطلق عليه نورمان كزنز Norman Cousins : «هو أعظم كتب القرن العشرين تأثيرا ... ولكل كلمة فى «كفاحى» يجب أن يفقد ١٢٥ نفسا ولكل صفحة منه ٤٧٠٠ نفس ، ولكل باب اكثر من ١٫٢٠٠٫٠٠٠ نفس» . وبالطبع انبعثت قوته من كونه انجيلا سياسيا للشعب الالمانى ، وقاد سياسة الرايخ الثالث من سنة ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

من سوء حظ العالم أن آراء هتلر لم تمت معه فمازال أتباعها

كثيرين فى المانيا ، بينما استعارت الحكومات الشيوعية كثيرا من تلك الآراء ومافتئت تستعملها على نطـاق واســع . وســيظل الدكتاتوريون فى كل مكان يجدون مصدر مادة أولية لاغراضــهم الشريرة فى كتاب «كفاحى» بنفس الطريقة التى ظلوا ، فى القرون الأربعة الماضية ، يعملون بآراء ماكيافيلى .

دنيا العلوم

١١ ـ الانقلاب السماوى

نيقولاوس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus

انقلاب فى الافلاك السماوية

منـــذ العصـــور البدائية والانسان يدهش لمنظر الاجسام السماوية ـ الشمس والقمر والكواكب والنجـوم وحـــركاتها الدائبة . ولم يكن شروق الشمس وغروبها ، وتزايد رقعة القمـر وتناقصها ، وتعاقب الفصول وتقدم الكواكب وتأخرها ، لم تكن هذه كلها حقائق ملحوظة ، بل كانت لها أمور عديدة تؤثـر على البشر وعلى حياتهم اليومية . اذن فليس من الغريب أن تنشـأ حول الظواهر السماوية أعداد ضخمة من الاساطير والديانات .

وبتقدم الحضارة حاول الفلاسفة تفسير حركة الاجســام السماوية بمصطلحات معقولة . واكثر قــدامى العلماء والمفكرين تقدما فيما يختص بأمور علم الفلك ، هــم الاغــارقة ابتــداء من فيثاغورث Pythagoras في القــرن الخــامس ، وأريســـــطو Aristotle فى القــرن الــرابع قبل الميلاد . وكان كلاوديــوس

بطليمـــــوس Claudius Ptolomy المصرى الذى كان يعيش فى الاسكندرية ، بتنظيم وتبويب الدراسة الكلاسيكية الخاصة بـه وبالعصور السابقة فى مجموعة من النظريات الســهلة الفهـم .
فوضع النظام البطليموسى الذى أطلق عليه « الأعظم Almagest » والذى سيطر على عقول الناس لمدة حوالى ١٥٠٠ سنة ، واعتبره العالم الفكرة الحقيقية عن الكون .

بنيت نظرية بطليموس على فكرة ان الارض كتلة ثابتة خاملة عديمة الحركة ، تقع فى وسط الكون وتدور حولها جميع الاجرام السماوية ومنها الشمس والنجوم الثابتة . كان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الأرض مركز مجموعة من الكرات شدت اليها الكواكب شدا وثيقا . اما النجوم فكانت مشدودة الى كرة أخرى خارج هذه المجموعة ، ويدور الجميع دورة واحدة كل أربع وعشرين ساعة .
فسرت هذه الافكار المعقدة عن الكواكب ، بالدوران حول محيط دائرة عظمى ، بينما تدور كرات الكواكب فى الاتجاه المضاد لدائرة النجوم ، الا أن هناك قوة أعظم تجـذبها . واعتبر زحل أبعـــد الكواكب عنا وأقربها الى فضاء النجوم ، ولذا يســتغرق مـــدة أطول لاتمام دورته . ولما كان القمر أقرب الكواكب الى المركز ، فــانه يتم دورتــه فى أقصر وقت . ويصــف روزين Rosen الفكرة البطليموسية فى هذه العبارات :

«يقول المذهب المتوارث ان الكواكب التى تدور نحو الشرق فى معظم الاوقات ، تبطىء فى دورانها بين وقت وآخر حتى تقف تماما ، ثم تعكس اتجاه دورانها مرة أخرى ، وتستأنف رحلتها نحو الشرق ، وتكرر دورات التغير بصفة لا نهائية» .

وهكذا كان الكون ، حسب نظريته ، فضاء مغلقا يحده غلاف كروى . ولم يكن هناك شىء بعد ذلك الكون .

ساعد عاملان على القبول العام لنظريات بطليموس ، كلاهما

من تفكير الطبيعة البشرية : فأولا : اعتمد هذا النظام على المظاهر الطبيعية ، اعتمد على الاشياء كما يراها اى شخص بنظرة عابرة . وثانيا : اشبعت هذه فضول الانسان ، فما امتع ان يعتقد المرء ان الارض مركز الكون ، وان الكواكب والنجوم تدور حولها . فيبدو ان الكون كله مصنوع من اجل الانسان .

بقى هذا النظام الجميل سليما فى أساسه حتى مجىء العصر العظيم ، عصر اليقظة الذهبية فى أوروبا المسمى بالنهضة . وكان تحطيم ذلك النظام من عمل نيقولاوس كوبرنيكوس» الكاهن والمصور والشاعر والطبيب . وهو واحد من «الرجال العالميين» ، اشتهرت من اجله النهضة .

كانت فترة السبعين سنة لحياة كوبرنيكوس (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣) من اعظم الفترات اثارة ومغامرة فى تاريخ أوروبا . ففيها اكتشف كولمبوس قارات جديدة ، وفيها أبحر ماجلان حول الأرض ، وقام فاسكودي جاما بأولى الرحلات البحرية الى الهند . واعلن مارتن لوثر Martin Luther اصلاحه البروتستانتى وخلق ميشيل انجلو Michelangelo عالما جديدا من الفن ، ووضع باراكلسوس Paracelsus وفيساليوس Vesalius أساس التطبيب الحديث ، وازدهر ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci « ذلك النابغة العالمى العظيم » كمصور ونحات ومهندس ومعمارى وعالم طبيعى وأستاذ فى علم الاحياء وفيلسوف . ياله من عصر موات لذهن المعى آخر هو كوبرنيكوس ليقدم للعالم نظاما جديدا للكون .

ولد نيقولاوس كوبرنيكوس على شاطىء نهر الفستولا Vistula ببلدة تور Torun فى بولندة ، وهى بلدة تابعة لرابطة التجارة Hanseatic League . وكان عمه لوكاس واتزلرود Lucas Watzelrode ، الذى صار فيما بعد أسقفا حاكما لمقاطعة

ارميلاند Ermeland ، ذا تأثير كبير فى مستقبل حياته الأولى . بدأ تعليم نيقولاوس طويلا ومتنوعا بالمدرسة الاعدادية فى تورون ، ثم فى سنة ١٤٩١ بجامعة كراكاو Krakow . ذهب الى هذا المعهد بناء على شهرته كأحد المراكز الاوروبية الاولى للرياضيات والفلك. وبعد ذلك بخمس سنوات ، سافر الى ايطاليا ليكمل دراسته فى بولونيا Bologna فى جامعة من أقدم وأشهر الجامعات الاوروبية . فشغلت دراسة القانون الكنسى والفلك وقته . ثم أمضى سنة فى روما يلقى المحاضرات فى الرياضيات وعلم الفلك . ومكث حوالى خمس سنوات فى بادوا Padua وفيرارا Ferrara يدرس الطب وقانون الكنيسة ، وبذا اتم منهجه العلمى وتسلم الدكتوراه فى القانون الكنسي من فيرارا سنة ١٥٠٣ .

عين كوبرنيكون ، بوساطة عمه ، رئيسا قانونيا فى كنيسة فرونبورج Frauenburg حيث قضى السبع والثلاثين سنة الباقية من عمره بعد عودته من ايطاليا فى سنة ١٥٠٦ .

كانت واجبات كوبر نيكوس الكنسية متعددة النواحى فقام بدور طبى فعال بين زملائه بالكنيسة ، وكذلك للشعب ، وساعد فى الدفاع عن مدينته فى الحرب بين البولنديين والبروسيين والفرسان التيوتونيك Teutonic واشتراك فى مؤتمر الصلح الذى تبع ذلك ، وقدم مشورته لاصلاح سك النقود والأوراق النقدية وأشرف على الاجزاء النائية من الدوقية . ولكى يرفه عن نفسه قام بالتصوير ، وترجم الشعر الاغريقى الى اللغة اللاتينية .

كان علم الفلك وقتئذ أحد الأنشطة الكثيرة التى مارسها كوبر نيكوس المتعدد الميول والمعلومات . ولكنه صار تدريجيا متعته الاولى بعد أن طور آراءه عن الظواهر الفلكية ــ تلك الآراء

التى من الجلى أنها جاءته منذ زمن مبكر فى حياته ، وقواها عنده دراسته فى كراكاو وفى ايطاليا ـ فقام بأبحاثه منفردا فى هدوء دون مساعدة أو استشارة أحد . اتخذ لنفسه مرصدا من سور واق مبنى حول الكنيسة .

كانت الادوات الفلكية التى استطاع كوبرنيكوس الحصول عليها بدائية وغير دقيقة . باشر عمله ذلك قبل اختراع التلسكوب بحوالى قرن . فاستخدم لاغراض القياسات مزولة وجهاز ربعية (عبارة عن قطعة خشبية ذات ثلاثة جوانب) صنعه بنفسه لقياس زوايا ارتفاع النجوم والكواكب ، كما اتخذ اسطرلابا من كرة داخل حلقة عمودية وأخرى أفقية . وعلاوة على ذلك ، كان الجو غير ملائم للارصاد الفلكية . فمجاورته لبحر البلطيق والانهار الموجودة هناك أحدثت الضباب والسحب وكانت الايام والليالى الكاملة الصحو ، نادرة . ورغم هذا ، ظل كوبرنيكوس يعمل فى كل فرصة ممكنة ، سنة بعد أخرى ، فى حساباته الفلكية .

كانت النظرية الثورية التى حاول كوبرنيكوس اثبات صحتها أو خطئها ، مناقضة تماما للنظام البطليموسى الذى ظل مدة طويله يحظى بالاحترام والتقدير . كانت تلك النظرية ، باختصار ، هى ان الارض ليست ثابتة وانما تدور حول محورها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، وتدور حول الشمس مرة كل سنة . كانت تلك الفكرة غريبة على القرن السادس عشر حتى ان كوبرنيكوس لم يجرؤ على تقديمها الا بعد اقتناعه تماما بأن لديه من المعلومات مالايمكن دحضه ومن ثم مضت ثلاثون سنة قبل اظهار نظرية كوبرنيكوس الى العالم .

والواقع ان بعض قدامى الفلكيين الاغريق اقترحوا أن عالمنا قد يكون عالما مركزه الشمس بدلا من أن تكون الارض مركز الكون. فمثلا علل اريستارخوس Aristarchus (كوبرنيكوس

القديم) فى القرن الثالث قبل الميلاد ، شروق الشمس وغروبها ، بضرورة دوران الارض حول محورها . غير أن هـذا الفرض واشباهه من فروض الفلكيين الآخرين ذوى الآراء المماثلة ، قد نبذها اريسطو وبطليموس من أجل نظرية الكون الذى مركزه الارض . وقد عرف كوبرنيكوس هذه النظريات المبكرة من قراءته للادب الكلاسيكى ، وربما أوحت اليه باعادة فحص هذه المسألة. واعتقد كوبرنيكوس ان اريستارخوس ، الذى عاش قبله بمدة ١٨٠٠ سنة ، قدم تفسيرا لحركات الاجسام السماوية ابسط كثيرا مما فى النظام البطليموسى المعقد .

ربما كتب كوبرنيكوس شرحا عاما موجزا لنظريته الجديدة فى عصر مبكر قد يرجع الى عام ١٥١٠ . واذ كان عنوان ذلك المقال هو « التعليق الصغير « Commentariolus » » ، فلم ينشر ابان حياته ، غير أن عددا من النسخ الخطية تداوله طلبة علم الفلك ولاتزال لدينا نسختان خطيتان ، على الاقل ، باقيتين الى الآن . واشار كوبرنيكوس ، فى «التعليق الصغير» الى انه بدأ ابحاثه لما بدا له نظريات بطليموس عن الكون معقدة جدا وغير معقولة على الاطلاق ، ولم تقدم تفسيرا مقبولا للظواهر السماوية . والنتيجة الرئيسية التى توصل اليها كوبرنيكوس تقول : ليست الارض مركز المجموعة الشمسية ، ولكنها فقط مركز مدار القمر ، وان جميع الكواكب تدور حول الشمس . وقد كان ذلك «التعليق الصغير» مرحلة واضحة فى تطور آراء ذلك الفلكى العظيم .

من المعلوم تماما ، أن اروع مؤلف لكوبرنيكوس ، وهو الذى ظل يعمل فيه جاهدا مدة ثلاثين سنة ، ماكان له أن يصل الى المطبعة ، وبالتالى يفقد ، لولا جهود عالم المانى شاب . ففى صيف عام ١٥٣٩ جاء الى فراونبورج لزيارة كوبرنيكوس استاذ للرياضيات من جامعة وتنبرج ، ويبلغ من العمر خمسا وعشرين

سنه ، واسمة جورج يواقيم رتيكوس George Joachim Rheticus
فـــاذ جـــذبته شـــــهرة كـــوبرنيكوس المطـردة النمـــو ،
جاء ليتحقق أولا من القدر الحقيقى لسمعته . كان يتوقع البقاء
معه لبضعة أسابيع فحسب ، ولكن كوبرنيكوس رحب به ترحيبا
حارا جعله يمكث معه اكثر من ســـنتين . اقتنـــع رتيكوس بأن
مضيفه نابغة من الطراز الاول . ظل يدرس مخطوطات كوبرنيكوس
لمدة ثلاثة أشهر ، وناقشها مع مؤلفها . ثم كتب رتيكوس تقريرا
عن آراء كوبرنيكوس وارسله فى صورة خطاب الى أستاذه السابق
يوحنا سكونر Johann Schöner فى نورمبرج Nuremberg
فطبع ذلك الخطاب فى دانزج Danzig سنة ١٥٤٠ باســـم
«التقرير الاول Narratio Prema . كان ذلك « التقرير الأول »
لكاتبه رتيكوس ، أول حقيقة نشرت عن نظـريات العـــالم الفلكى
البولندى التى هــزت العـــالم . والواقع أن ذلك الكتيب تنـــاول
بالتفصيل جزءاً فقط من نظرية كوبرنيكوس ، وهو الجزء الخاص
بحركات الارض . وتوقع رتيكوس أن يتبع تقريره الاول بتقارير
أخرى ، الا انه لم تكن ثمة حاجة اطلاقا الى هذه التقارير . وأبدى
اعجابه الذى كاد يبلغ حد التملق بالثناء الحار الذى أضفاه طوال
نصوص ذلك المقال على «سيده الدكتور» .

الى هذا الحد تردد كوبرنيكوس تماما فى نشر مؤلفه الكامل .
كان من عادته الوصول بأبحاثه الي درجة الكمال . وشعر بضرورة
التأكد واعادة التأكد من كل ملاحظة . وتمدنا النســـخة الخطبة
الاصلية التى اكتشفت فى براغ Prague فى منتصف القرن
التاسع عشر بعد ضياعها مدة ثلثمائة عام ، تمدنا بدليل على ست
مراجعات مفصلة . وبالاضافة الى هـــذه الترددات ، قـــد يكون
كوبرنيكوس قد عاقه عدم موافقة الكنيسة القوي ، وجعل الاصلاح
البروتستانتى والنضوج الذهنى للنهضة ، الدوائر الدينية تشـــك
فى نظرية دوران الأرض ، كما تشك فى اية آراء تسبب الأبتعاد عن

التعاليم الاصلية . ولما كان كوبرنيكوس رجل كنيسة مؤمنا ، فلم يرض القيام بدور الهرطوقى أو بدور الشهيد .

واذ قوبل «التقرير الاول» بالترحيب ، وتوسل رتيكوس وغيره والحوا على كوبرنيكوس كى يسمح بالنشر الكامل ، رضخ هذا أخيرا وعهد بالنسخة الخطية الى رتيكوس ليحملها الى نورمبرج ويشرف على طباعتها . بيد أنه قبل أن يتم ذلك العمل عين رتيكوس أستاذا بجامعة ليبزيج Leipzig كاهنا لوثريا فى تلك المدينة فعهد بدوره بتلك المسئولية الى أندرياس أوسلاندر Andreas Oslander

من الجلى أن القلق ساور أوسلاندر من أجل الآراء المتطرفة التى كتبها كوبرنيكوس . فحذف مقدمة كوبرنيكوس للجزء الاول، بغير استئذان ، واستبدلها بمقدمة من عنده دون أن يذكر اسمه ، وانما ذكر فقط أن الكتاب يضم مجرد فروض تهم علماء الفلك ، وانه لم يكن من الضرورى أو حقيقيا أو محتملا أن الارض تدور ، أو بمعنى آخر ، انه لايلزم أن يؤخذ ذلك الكتاب مأخذ الجد . لاشك فى أن أوسلاندر كان حسن النية فى محاولته تحاشى النقد العدائى ، وكما ذكر ميتسوا Mizwa : «ربما أن أوسلاندر قد أسدى ، عن غير قصد ، خدمة جليلة لكوبرنيكوس ، أعظم مما كان يدرك ، للمحافظة على ذلك المؤلف الهام . وبسبب هذه المقدمة الزائفة والمثبطة للعزائم والمكتوبة بمهارة كما لو كانت باسم المؤلف الى قارىء نظريات ذلك المؤلف ، غفلت الكنيسة عن الاهمية الثورية لذلك «الانقلاب» ، ولم تدرجه فى القائمة حتى سنة ١٦١٦» .

وقبل الانتهاء من الطباعة ، أصيب كوبرنيكوس بصدمة شديدة . فيقول مصدر موثوق به : فى احدى لحظات التاريخ الدرامية ، قدم رسول الى فراونبرج يحمل من نورمبرج النسخة الاولى من أروع مؤلفات كوبرنيكوس ، ووضعها بين يديه قبل أن

يلفظ آخر انفاسه ببضع ساعات . كان ذلك فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٣ ، وكان عنوان الكتاب «فيما يختص بانقلاب الكـرات السـماوية De Revolutionibus Orbium Coetestium » وكبقية المؤلفات العلميـة فى ذلك الوقت ، كان مكتـوبا باللغـة اللاتينية .

أبدى كوبرنيكوس حكمة وحسن سياسة عندما أهدى ذلك المؤلف الى البابا بولس الثالث . ويتضح من اسلوب الاهـداء ان كوبرنيكوس كان يتوقع بعض الصعاب :

« يحق لى أن أعتقد تماما ، أيها الاب الكلى القداسـة ، ان بعض الناس عندما يسمعون عن نسبتى الحركة للارض ، فى كتبى هذه ، سيقررون على الفور وجوب نبذ مثل هذا الرأى . والآن لاتسرنى كثيرا نظرياتى ، انا نفسى ، فلا أهتم بحـكم الآخـرين عليها . وبناء على هذا ، عندما بدات أفكر فى أولئك الاشـخاص المؤمنين بثبات الارض لانه مدعم بآراء عدة قرون . وسـيقولون عندما أقرر أن الارض تتحرك ، اننى ترددت لمدة طويلة ، هل أنشر ماكتبته للبـرهنة على حركتها ، أو احذو حـذو أتباع فيثاغورث الذين دابوا على الافضاء بأسرارهم الفلسفية لاقاربهم وأصـدقائهم شفويا . وعندما تأملت فى هذا كثيرا ، كدت أضع هذا العمل الكامل جانبا بسبب الازدراء الذى يحق لى أن أتوقعه لكون نظريتى جديدة وعلى نقيض مايقبله العقل .

ومع ذلك ، حثنى أصدقائى على ترك مااعتزمته ، ونصحونى بأنه يجب على أن أنشر كتابى القابع فى حـوزتى مختفيـا ، ليس لتسع سنين فحسب ، بل ولاربعة أمثال هذه المدة . وطلب منى عدد غير قليل من الرجال المبرزين فى العلم أن أعمل نفس الشىء الذى نصحنى به الآخرون ، وأخبرونى بأنه ينبغى لى الا أهتم

بقلقي والا أمنع مؤلفي عن الظهور أكثر من ذلك ، وانما أنشره ليكون في خدمة علماء الرياضة ..

لاشك في أن الماهرين والعلماء من الناس سيتفقون معي اذا رغبوا تماما في فهم واستيعاب البراهين التي أقدمهـا في ذلك الكتاب امامنا . ومع ذلك ، فلكي يعرف العلماء وغير العلماء أنني لا أهاب حكم أي شخص ،رايت اهداء أعمالي الليلية هذه لقداستكم وليس لأي فرد آخـر ، لانكم ، حتى وأنتم في ركنكـم القصي من الارض ، حيث أعيش أنا ، معروفون بأنكم أعظم المولعين بجميع فروع العلوم والرياضيات ، وبذا يمكنكم ، عن طـريق مـركزكم وحكمكم ، دحض لدغات الوشاة ، رغم أن المثل يقول انه لا عـلاج ضد لدغة الواشي . وقد يحدث أيضـا أن يدعي بعض الثرثارين الذين يجهلون الرياضيات ، بأن لهم الحق في اصـدار حكم على مؤلفي ، مستندين الى فقرة معينة في الكتاب المقدس يؤولونهـا حسب أهوائهم . فاذا تجاسر أمثال هؤلاء على نقد مشروعي والنيل منه ، فلن أكترث لهم ، وانظر الى حكمهم على انه تهور جـدير بالاحتقار » .

لخص كوبرنيكوس فكرته عن الكون في هذه العبارات :

« ابعد الاجرام السماوية جميعا دائرة النجوم الثابتة المحتوية على جميع الاشياء ، ولهذا السبب نفسـه لاتتحـرك ، وهي في الحقيقة اطار الكون الذي تتعلق به حركة ومركز جميع النجوم الاخرى ، ورغم أن بعض الناس يظنونه يتحرك بطريقة ما ، فاننا نذكر سببا آخر لكونه يبدو كذلك في نظريتنا عن حركة الارض . فمن الاجسام المتحركة ، يأتي أولا زحل الذي يتم دورته في ثلاثين سنة ثم المريخ الذي يتم دورته في سنتين . والرابعة في الترتيب وتكمل دورتها في سنة واحـدة هي الارض ذات الفلك القمـري حولها . وتأتي الزهرة في المرتبة الخامسة وتتم دورتها في تسعة

شهور ثم عطارد فى المركز السادس يدور فى الفضاء فى ثمانين يوما ، وتقع الشمس فى وسط الجميع ، تلك التى تضع المشعل فى هذا المعبد البالغ الجمال فى مكان لايعادله اى مكان آخر اذ تستطيع منه ان تضيء على الجميع فى وقت واحد ... اذن نجد فى النظام العجيب تماثلا رائعا فى الكون ونسبة محددة للتناسق فى حركة هذه الافلاك ومداها بطريقة لايمكن الحصول عليها بأية طريقة اخرى» .

تتلخص محتويات مؤلف كوبرنيكوس «الانقلاب فى الافلاك السماوية » فى خطة تطور نظرية هذه الافلاك . فيبدأ بمقدمة الاهداء الى البابا بولس الثالث ، فالمقدمة الزائفة التى كتبها أوسلاندر ، وبعدهما ينقسم هذا المؤلف الى ستة أجزاء أو أقسام رئيسية ، ينقسم كل منها بدوره الى أبواب . فيضم الجزء الاول آراء كوبرنيكوس عن الكون والادلة المدعمة لنظريته القائلة بأن الشمس هى مركز الكون ، وفكرة دوران الارض حول الشمس كبقية الكواكب الاخرى ، ومناقشة الفصول . ويتكون من عدة ابواب . وفى نهاية هذا الجزء كتاب علمى عن حساب المثلثات . استخدم نظريات هذا الفرع من الرياضيات فى الاجزاء التالية من مؤلفه .

ويتناول الجزء الثانى حركات الأجرام السماوية محسوبة رياضيا ، ويختتمه بقائمة للنجوم تبين موقع كل منها فى السماء وهى قائمة اخذ معظمها من مؤلف بطليموس مع بعض التصحيحات.

وتضم الأجزاء الأربعة الباقية شرحا مفصلا لحركات الأرض والقمر والكواكب ، ويصحب الشرح فى كل حالة أشكال هندسية تبين المسار الذى تتبعه الكرات على أساس حسابات كوبر نيكوس.

يقول احد الأسباب المقدمة ضد نظرية الأرض المتحركة ،

وهو ما ذكره بطليموس ، أن الأرض يجب أن تبقى ثابتة والا فأن اى جسم سابح فى الفضاء يبتعد عن الأرض وهى تتحرك . وأى جسم يقذف فى الهواء ينزل مسافة بعيدة جدا الى الغرب ، وأقوى هذه الأسباب جميعا أنه اذا كانت الأرض تتحرك بهذه السرعة البالغة فانها سرعان ماتتفتت الى اجزاء صغيرة تقذف فى الفضاء. وقبل اكتشاف جاليليو Galileo لنظريات المكيانيكا الخاصة بذلك ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، كان من الصعب دحض هذه الادلة البطليموسية . وقد أجاب كوبرنيكوس عليها باقتراحه أن الهواء المحيط بالارض يدور معها ، وانه من المعقول اكثر افتراض أن الارض هى التى تدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الارض لاتدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الأرض لاتدور فان السماء هى التى تدور لاحداث الليل والنهار . ودعم الدفاع عن قوله هذا بتأمل فلسفى : ليست الطبيعة مما يحطم نفسه بنفسه ، ولم يخلق الله الكون لمجرد أن يحطم هذا الكون نفسه بنفسه .

يعتقد كوبرنيكوس أن الشمس لاتتحرك وانها ايجابية وثابتة وسط الكواكب الدوارة . وهذا الاعتقاد يشبه فكرة بطليموس عن الارض . اعتقد كوبرنيكوس أن الوظيفة الوحيدة للشمس هى امداد الكون بالضوء والحرارة ، وأن الكون محدود جدا . وتقول تعاليم بطليموس انه لايوجد فضاء خارج نطاق النجوم . ومن المحتمل أن الفضاء اللانهائى لم يكن معروفا لدى كوبرنيكوس ، كما لم يكن معروفا لبطليموس قبله بمدة ١٤٠٠ سنة ، وكذلك ، لم يستخلص من نظام بطليموس عن الفلك المحيط بأفلاك الاجسام السماوية . كان هناك مركز لكل فلك من الافلاك المختلفة ، وأن الشمس لم تكن بالضبط فى مركز أفلاك الكواكب . وقد صحح علماء الفلك اللاحقون هذه الظواهر فى نظام كوبرنيكوس .

كان قبول نظام كوبرنيكوس بطيئا لدى كل من العلماء وعامة

الشعب . كانت هناك آراء معاصرة ، مع بعض الاستثناءات ، تعارض بعنف ذلك النظام . فتبعا لاحدى القصص ، هاجم طلبة الجامعة المكان الذى كان كتاب كوبرنيكوس يطبع فيه ، وحاولوا تحطيم المطبعة وتمزيق النسخة الخطية الاصلية ، الا أن عمال المطبعة وضعوا حاجزا بينهم وبين المهاجمين حتى أتموا العمل. وقامت فرقة من الممثلين الجائلين باخراج مسرحية هزلية للسخرية من كوبرنيكوس ، مصورين ذلك الفلكى يبيع نفسه للشيطان .

اما رد الفعل لدى المنظمات الكنسية فكان اكثر جدية وأشد قوة . فهذه النظريات الجديدة تناقض المعتقدات الفلسفية والدينية القائمة فى العصور الوسطى . فلو كانت نظريات كوبرنيكوس صحيحة لما شغل الانسان مكانا مركزيا فى العالم ، ولانتقل هو من المكان الواقف عليه ، ولانتقل بيته الى واحد من الكواكب العديدة .

ولكن ، بما أن مؤلف كوبرنيكوس كان مليئا بأشياء أخرى . وبسبب مقدمة أوسلاندر المضللة لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية اجراء فوريا ضده ، غير أن قادة الاصلاح كانوا أقل اعاقة . فقام مارتن لوثر Martin Luther بنقد كوبرنيكوس بعنف فى كثير من المناسبات . وكان يشير اليه بقوله : «الفلكى الجديد الذى يريد البرهنة على أن الارض هى التى تدور وليست السماء والشمس والقمر ، كما لو أن شخصا ما يجلس فى عربة متحركة او فى سفينة سائرة ، ويظن نفسه ثابتا والارض والاشجار هى التى تتحرك مارة به . ولكن هذه هى الحال فى هذه الايام فكل شخص يريد أن يكون بارعا يجب عليه ابتكار شيء من عندياته يعتبره خير شيء لانه هو الذى ابتكره ! يريد ذلك الاحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسا على عقب . ولكن ، كما يقرر الكتاب المقدس ، ان الشمس نفسها وليست الارض ، هى التى امرها يوشع بأن

تقف» . وكذلك سخر ميلانكثون Melanchthon تلميذ لوثر المخلص ، من كوبرنيكوس بقوله : «انه أوقف الشمس وجعل الارض تتحرك» .

واكد جون كلفين John Calvin ، مستشهدا بالمزمور ٩٣ : « كذلك ثبتت المسكونة لاتتزعزع » . وسأل باحتقار : «من ذا الذى يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس ؟»

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية اجراءات حاسمة ضد مؤلف كوبرنيكوس حتى سنة ١٦١٥ ، وكان كل ماعملته هو الانتقام من انصار نظريات كوبرنيكوس إمثال : جاليليو وبرونو Bruno وكان التصرف فى مذهب كوبرنيكوس على النحو التالى :

« الاقتراح الاول القائل بأن الشمس هى المركز وانها لاتدور حول الارض ، حماقة وسخافة وزيف فى علم اللاهوت ، وهرطقة لانه يناقض على طول الخط ماجاء فى الكتاب المقدس . واما الاقتراح الثانى القائل ان الارض تدور حول الشمس وليست فى المركز ، فسخيف وزائف فلسفيا ، ومن الناحية اللاهوتية يعارض، على الاقل ، العقيدة الحقيقية» .

وفى السنة التالية ١٦١٦ ، وضع مؤلف كوبرنيكوس فى قائمة الكتب المحرمة ، «حتى يصحح» ، وفى الوقت نفسه ، أدينت «جميع الكتابات التى تؤيد حركة الارض» . فظل كوبرنيكوس فى القائمة السوداء لمدة تزيد على القرنين . وأخيرا أزيلت تلك اللعنة فى سنة ١٨٣٥ .

منع المصير الذى لقيه جاليليو وبرونو ، غيرهما من اعتناق نظريات كوبرنيكوس . وقد ذهب جوردانو برونو Giordano Bruno الى أبعد من الآخرين اذ أن النظرية القائلة بأن الفضاء غير محدود،

وبأن الشمس وكواكبها ليست سوى واحدة من عدة مجموعات مشابهة . واقترح ، زيادة على ذلك ، أنه قد يكون هناك عوالم مسكونة اخرى تضم مخلوقات عاقلة تمتاز عنا . فحوكم برونو على مثل هذا التجديف أمام محكمة التفتيش الدينى وأدين فأحرق مربوطا الى عمود فى فبراير سنة ١٦٠٠ . أما الحكم الذى نزل بالعالم الفلكى الايطالى جاليليو فكان أخف من ذلك ، فقد مثل أمام محكمة التفتيش الدينى فى سنة ١٦٣٢ ، فهددته بالتعذيب والقتل وأجبرته على أن يجثوا على ركبتيه ويدحض جميع معتقداته ونظريات كوبرنيكوس ، وحكم عليه بالسجن بقية أيام حياته .

حذا الفلاسفة والعلماء حذو اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت فى ترددهم لقبول النظرية الكوبرنيكية . فمثلا ، حاول احد مؤسسى الطرق العلمية الحديثة ، ويدعى فرنسيس باكون Francis Bacon دحض فكرة دوران الارض حول الشمس فى فلك وهكذا ظلت سيطرة أريسطو وبطليموس على الجامعات الاوروبية قائمة لم تتكسر لمدة طويلة بعد نشر كتاب « الانقلاب فى الافلاك السماوية » .

والواقع أنه ، كما ذكر ستبنز Stebbins : « كان قبول نظرية كوبرنيكوس بطيئا فى جميع الدول . ففى أمريكا ، كانوا يدرسون النظريتين البطليموسية والكوبرنيكية فى وقت واحد ، فى جامعتى هارفارد Harvard وييل Yale » .

ومع ذلك ، فشيئا فشيئا أخذت نظرية كوبرنيكوس تحظى بقبول محتم . واستمرت الابحاث على يد العلماء الغيورين أمثال جوردانو برونو وتيكو براهى Tycho Brahe ويوحنا كبلر وجاليليو جاليلى Galileo Galilei واسحق نيوتن ، ابان عشرات السنين التالية . فكونوا هرما من البراهين التى لاتقبل الدحض أو الجدل . وحذفوا عيوب النظرية الكوبرنيكية بناء على

الابحاث الحديثة لهؤلاء وغيرهم من الباحثين ، وساعدهم على ذلك تحسين آلات الرصد الى درجة الكمال ، وانه كان بوسع كل باحث ان يبنى على ابحاث سابقيه .

اعظم عالم فلكي جاء بعد كوبرنيكوس مباشرة هو العـــالم الدانمركي تيكو براهي . لم يزد تيكو شـــيئا على نظـرية دوران الارض حول الشمس ، ولكنه استطاع بواســطة الآلات الجيدة التى زود بها ملك الدانمرك ، القيام بأرصــاد وقياســات فلكية افضل بكثير مما قام به كوبرنيكوس . وعلى اساس هذه المعلومات امكنه مساعدة العالم الالماني يوحنا كبلر بعد موت تيكو ، على ان يصوغ قوانينه الثلاثة الشهيرة : (أ) أن الكواكب تسير فى أفـلاك اهليلجية وليست دوائر ، وأن الشمس موجودة فى بؤرة واحدة . (ب) بما أن الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس فى أفلاك اهليلجية ، فانها لاتدور بسرعة منتظمة ، ولكن بطريقة أن سرعة دورانها تزيد عندما تكون أقرب الى الشمس . (جـ) يتناسب بعد الكواكب عن الشمس مع مدد دورانها حول الشمس .

كان جاليليو أول راصد أمد علم الفلك بالتلسكوب ، وقـد اثبت كثير من اكتشافاته التسلكوبية صحة ماوجده كوبرنيكوس. قدم جاليليو أساسا علميا عندما قدم المبـادىء الاساســية لعلم الديناميكا ، أو علم الحركة . وقدم السير اسحق نيوتن البراهين القاطعة على صحة نظرية كوبرنيكوس باكتشافه قانون الجـاذبية وصياغته للقوانين التى تتحرك بمقتضاها الكواكب . واميط اللثام عن بعض غوامض الكون البـاقية بواســطة نظـــرية أينشــتين Einstein عن النسبية التى ظهرت فى القرن العشرين .

وعلى ضوء التعديلات الكثيرة التى قام بها العلماء فى القرون التالية ، نشأ هذا السؤال المعقول والمطروح كثيرا : هل نظـرية كوبونيكوس صحيحة ؟ لسنا ننكر ان كوبرنيكوس ترك نظرية غــير

كاملة وغير دقيقة فى عدة نقاط . فقد أثبت العلماء خطأ فكرته عن دوران الاجرام السماوية فى فلك دائرى تماما ، اذ انها تدور فى افلاك اهليلجية . وقد نظر كوبرنيكوس الى الكون على أنه محدود جدا على نقيض النظرية الحديثة القائلة بوجود عدد غير محدود من المجموعات الشمسية . وكذلك فى التفاصيل الاخرى ، تختلف النظريات التى قدمها كوبرنيكوس منذ أكثر من أربعة قرون خلت، تختلف عن معارفنا الحاضرة اليوم . ولكن فى أساسها ــ وهو أن الشمس مركز مجموعات الكواكب ــ اكتشف كوبرنيكوس حقيقة أساسية وقدم أساسا لعلم الفلك الحديث .

رسخ الى الابد مركز كوبرنيكوس فى تاريخ العلوم ويخوله نفوذه على معاصريه وعلى جميع الفكر اللاحق مكانة ممتازة . وكما كتب جيتيه Goethe :

« لم يحدث أى اكتشاف او راى ، من جميع الاكتشافات والآراء ، أثرا على الروح البشرية أعظم مما احدثته نظرية كوبرنيكوس . من النادر أن الناس كانوا سيعرفون أن العالم مستدير وكامل الاستدارة فى حد ذاته اذا طلب من هذا العالم أن يتنازل عن كونه مركز الكون .. ربما لم يطلب من البشرية شىء أعظم من هذا ــ لانه بهذا الاعتراف اختفت أمور كثيرة فى الضباب والدخان ! الى اى شىء صارت جنتنا ، عالمنا ، عالم البرابرة والتقوى والشعر ، دليل المشاعر ، أتهام عقيدة شاعرية ودينية ؟ لا عجب فى ان معاصريه لم يرغبوا فى أن يتركوا كل هذا يمر ،وقاموا بكل مقاومة ممكنة لمذهب خول لكل المهتدين به حرية الراى وعظمة التفكير اللتين لم تعرفا حتى ذلك الوقت ، والحقيقة انه لم يحلم بهما قط» .

وأخيرا ، فلنتأمل حكم ثلاثة من مشاهير العلماء الامريكيين الموجودين على قيد الحياة . فقد علق فانيفار بوش .

Vannevar Bush بقوله : «خلق نشر مؤلف كوبرنيكوس الرائع ... نقطة تحول عظيمة الاهمية لتأثيره على كل ناحية من نواحى الفكر البشرى . قدم مثلا بارزا لتأثير الحقيقة العلمية لتحرير ذهن الانسان وجلاء بصيرته للغزوات المستقبلة للجهل والتخاذل» وأكد هارولد ك . اورى Harold C. Urey الفائزة بجائزة نوبل ، قائلا : «يخفق كل بيان عندما يصف مؤلف نيقولاوس كوبرنيكوس . لقد حطم فكرة عن المجموعة الشمسية ظلت قائمة مدة الف عام وقدم فكرة مخالفة لها تماما ، عن نسبة الكواكب الى الشمس . وبهذا العمل كان أول من قدم الطريقة الحديثة كلها للفكر العلمى ، وعدل تفكيرنا عن جميع نواحى الحياة البشرية» .

واخيرا ، هناك رأى العالم الفلكى المبرز هارلان تروستاتسون Harlan True Stetson :

«من المحير دائما دراسة القائمة الطويلة لمشاهير الرجال الحقيقيين فى تاريخ العالم ، الذين أسهموا فى تقديم العلوم ، ثم تحديد عدد قليل منهم على أنهم المبرزون المتفوقون . ومع ذلك، فلو طلب منى اختيار ثلاثة أسماء منهم ، لقلت فى غير ماتردد طويل، كوبرنيكوس ونيوتن وداروين . فيشترك هؤلاء الثلاثة فى خصائص تجعلهم غير منفصلين فى مجال انتصار التقدم . وهذه الخصائص هى الخيال والجرأة والعبقرية وطرافة اظهار التفهم الخارق للافكار . وبالنظر الى جميع الاعتبارات لاختيار اعظم هؤلاء الثلاثة ، أعتقد ان أكاليل الغار يجب أن تكون من نصيب كوبرنيكوس ، لانه هو الذى وضع أسس علم الفلك الحديث التى بدونها ماكان لنيوتن أن يبنى قانونه عن الجاذبية ، وهو الذى فتح الابواب لنوع من التفكير الثورى يتحدى المبدأ الذى يجب ان يأخذ مكانه قبل أن يثبت مذهب النشوء قدمه فى تفكيرنا» .

١٢ ـ فجر الطب العلمى

وليام هارفى William Harvey

حركة القلب De Motu Cordis

لم تتقدم علوم الاحياء وابحاثها فى أوائل القرن السابع عشر الا قليلا عن دراسة علم الفلك قبل كوبرنيكوس . ومازال الأطباء ومدارس الطب يمارسون ويعلمون نظريات التشريح ووظائف الاعضاء الخاصة بالقلب والشرايين والأوردة والدم التى تلقوها عن الطبيب الاغريقى الآسيوى العظيم جالين Galen الذى عاش فى القرن الثانى .

لم تحدث اضافات هامة لمدة تزيد على الالف سنة الى معارف الانسان عن الدورة الدموية ووظائف القلب . كان أريسطو يعلم أن الدم ينشأ فى الكبد ومنه يذهب الى القلب ، ثم خلال الجسم الى الاوردة . كان يعتقد أن القلب هو أيضا مصدر حرارة الجسم ومقر الذكاء . واعتقد أرازيستراتوس Erasistratus خريج مدرسة الاسكندرية أن الشرايين تحمل نوعا هادئا من الهواء أو الروح .

فصحح جالين هـذه الفكرة اذ اكتشف أن الشرايين تحمل دمـا وليس هواء • غير أنه لعدة قرون بعد عصره ، كان الأطباء مقتنعين بأن روحا أو نحوه يلعب دورا فى جهـاز الدم ، وربمـا كان ذلك لانعاش القلب .

لم يجرؤ على مناقشة السابقات والمعتقـدات الموروثة عن القدماء سوى أعظم العلماء جـراة . كانوا يعتبرون ماكتبه جالين من اصل مقدس ـ لايمكن أن يتطرق اليه الجدل او الشك . وتبعا لجالين ايضا ، كان الكبد مركز الجهاز الدموى . فقال ان الطعام المهضوم يحمل الى الكبد حيث يتحول الى دم مع اضافة «روح طبيعى» . وان الدم يسير فى الجسم الى الامام والى الخلف عن طريق كل من الاوردة والشرايين كما يفعل المد والجزر فى البحر. يختلف الدم الشريانى الآتى من أحـــد جـوانب القلب مع الدم الوريدى من الجانب الآخر خلال مسام دقيقة .

وعلى مر القرون ، أضيفت الى تلك الحقائق الطبيعية كثير من الخرافات عن الدم . كان للدم صفة مقدسة أكثر من أى جزء آخر فى الجسم كما يتضح من اســتخدامه فى الذبائح الدينية ، وسكب الدم على مذابح الآلهة .

عندما جاء عام ١٦٠٠ كان التغير فى الجو قد عم كل مكان . لم تعمل النهضة فى اوروبا على احياء الادب فحسب ، بل وشملت ايقاظا ذهنيا أثر على العـلوم الطبيعية . كان ذلك العصر عصر جـاليلبو وكبـلر وهارفى وباكـون وديكـارت Decartes . وفى ايطاليا ، قبل ذلك بخمسين سنة ، أثبت أندرياس فيســاليوس Andres Vesalius عـدم وجـود المســام التى وصـفها جالين . ولم تكن هناك اية علاقة مباشرة بين حجرتى القلب . وفى حوالى نفس الوقت ، أبدى سرفيتوس Servetus الذى احـــرقه جـــون كالفين John Calvin فيما بعد ، أبدى اعتقاده بأن الدم

يدور خلال الرئتين ، ولكنه لم يعترف بأن القلب عضو ضاخ . وكذلك اقترح ريالدو وكولومبو Realdo Colombo ، أستاذ التشريح فى روما ، فكرة الدورة الدموية فى الرئتين . وفى سنة ١٦٠٣ زود فابريكيوس البارواني Fabricius of Padua ، العلم بحلقة أخرى عندما اكتشف أن للاوردة صمامات ، ولو انه لم يفهم الغرض منها ، بل استنتج فقط أنها كانت لمجرد العمل على بطء سير الدم الى الاطراف .

وهكذا كان لهؤلاء ولنفوس جريئة أخرى أن تتهور وتلقى شكا على العقيدة القديمة التى عرقلت التقدم الطبى خلال العصور الوسطى . ومن ناحية أخرى لم يستطع احد الوصول الى الحقيقة الكاملة . فأسهم كل واحد بقدر كبير نحو كشف اللثام عن الدورة الدموية ووظائف القلب ، ولكنه توقف فى كل حالة بجواب جزئى او غير كامل . أما اكتشاف وصياغة مجموعة منتظمة ومبوبة من النظريات ، فتقدمه العقل اللامع الحاد للطبيب الانجليزى وليم هارفى .

وصلت النهضة العلمية الى انجلترا متأخرة عن وصولها الى القارة الاوروبية ، وخصوصا ايطاليا . ولكن فى العصر الذى ولد فيه هارفى (سنة ١٥٧٨) كانت الامة تدخل فى فترة من أعظم الفترات . فابان القرن التالى ، حكمت بريطانيا الملكة اليزابيث Elizabeth ، وتوطدت قوة بريطانيا البحرية بهزيمة أسطول الارمادا Armada الاسبانى ، وفتح المكتشفون الانجليز أراضى جديدة ، وازدهر شكسبير Shakespeare ودون Donne وسبنسر Spenser ودرادن Dryden وملتون Milton وجونسون Johnson وباكون Bacon فى عالم الادب وبذا كبح جماح الفكر الخاص بالقرون السابقة . بدأ التفكير السابق ينقضى وتحررت عقول الناس داخل حدود معينة لتخلق أفكارا جديدة وتفتح آفاقا لم تفتح من قبل .

لكي يدرس هارفي الطب ، كان من الطبيعي ان يذهب الى ايطاليا . وسميت جامعة بادوا الشهيرة : «الأم مربية النهضة»، وظلت لعدة أجيال المركز الطبي لأوروبا . فبعد ان تخرج هارفي الشاب في كامبريدج قضى أربع سنوات معظمها تحت قيادة المدرس الشهير الكفء فابريكيوس مكتشف صمامات الاوردة . فتعلم كيف يشرح ويجري التجارب على شتى أنواع الحيوان ، وربما كان الفضل لنظريات فابريكيوس في متعته بالدورة الدموية التي لازمته طوال حياته .

لما عاد هارفي الى انجلترا في سنة ١٦٠٢ بدأ منهج حياة قدر له أن يستمر مدة الخمسين سنة التالية كطبيب ومحاضر وكاتب. تزوج ابنة طبيب الملكة اليزابيث الخاص . وبعد ذلك عمل كزميل في الكليـة الملكية للاطبـاء ، وكطبيب في مستشفى بارثولوميو Bartholomew ، وكطبيب لجيمس الاول وشارل الاول .

رغم هذا ، أولع هارفي طول حياته بالابحاث الطبية والتجارب اكثر من ولعه بممارسة الطب . فبدأ في سنة ١٦١٦ يلقي المحاضرات عن الدورة الدموية أمام كلية الاطباء . ولاتزال النسخة الخطيـة لمحـاضرته موجـودة ، مكتوبة بخليط من اللاتينية والأنجليزية بخط يكاد تتعذر قراءته . وقد شرح بعض تجاربه في مذكراته وأوضح أنه في ذلك التاريخ اقتنع تماما بصحة نظرياته الشهيرة عن الدورة الدموية ، فكتب يقول : «يتحرك الدم في دائرة مستمرة بدفع من ضربات القلب» .

انصرمت اثنتا عشرة سنة قبل أن يستعد هارفي لنشر النتائج التي توصل اليها . لماذا هذا التأخر في اعلان مثل ذلك الاكتشاف العظيم الى العالم ؟ هنـاك عـدة تخمينات في ذلك الخصوص . فاقترح السـير وليم أوسـلر William Osler بقوله : «ربمـا كان باعثه في ذلك هو نفس باعث كوبرنيكوس الذي خشي تعصب

البشر حتى قيل انه باعث كوبرنيكوس الذى خشى تعصب البشر حتى قيل انه احتجز رسالته الثورية فى خزانته لمدة ثلاثين عاما . وبنفس الفاظ هارفى ، ان نظريته عن الدورة الدموية العامة : « جديدة ومن نوع لم يسمع به حتى اننى لا اخاف فقط ايذاء شخص نتيجة حسد القليلين ، بل وارتجف لجعل البشر جميعا اعدائى . بوسع العادات والتقاليد أن تفعل الكثير اذا تحولت الى طبيعة اخرى ، وأن النظريات التى غرست وتغلغلت جـــذورها واستقر منذ القدم ، ذات تأثير بالغ على جميع الناس » .

كذلك ، ماكان هارفى بالرجل المتهور الذى يندفع بسهولة الى المطبعة لينشر نظرياته اذ يرى : «ليست جموع كاتبى الخزعبلات الاغبياء بأقل من أسراب الذباب فى عز الصيف ، وانهم ليهددون بحماقاتهم وتوافه كتاباتهم وانتاجهم الخاوى ، بأن يخنقونا عنـدما ندخن » .

واخيرا ، بعد سنوات من التجارب والملاحظة ، قرر هارفى أن الوقت قــد حان . وفى ســـنة ١٦٢٨ ظهــر فى فرانكفورت Frankfurt بألمانيا كتيب من ٧٢ صـفحة اعتبره كثير من أعـلام الطب أهم كتاب طبى وضع حتى ذلك الوقت ، وبطبيعة الحال ، كان ذلك الكتيب باللغة اللاتينية وهى اللغة العلمية العالمية . كان عنوانه الكامل : « Exercitatio Anatomica de Motu Cordis et Sanguinis in Animalibus » ، اى « تمرينـات تشريحية على حركة القلب والدم فى الحيوانات» . ولسنا نعرف بالضبط السبب فى صدور هذا الكتيب فى المانيا بالذات ـ ربما كان ذلك لان سوق الكتاب الســنوية التى تعقـد فى فرانكفورت تضمن سرعة نشره وتداوله بين علماء القارة الاوروبية . ولاشك

فى ان خط هارفى الردىء هو المسئول عن العديد من الأخطاء المطبعية .

بارك اهداءان كتيب «حركة القلب» : الاول الى شارل الاول حيث يشبه الملك فى مملكته القلب فى الجسم ، ويتبع ذلك خطابا الى الدكتور أرجنت Argent عميد الكلية الملكية و « سائر الاطباء والدكاترة زملائه العظيمى القدر» . وفى الاهداء الثانى عبر هارفى عن رأيه بوجوب قبول الحقيقة ، بغض النظر عن مصدرها ، وأن الحقيقة أكثر قيمة من التقاليد القديمة . فقال : «اقرر اننى أتعلم وأعلم التشريح ، ليس من الكتب وانما من التشريح العملى ، ليس من مكان الفلاسفة بل من نسيج الطبيعة» امسك هارفى بهذه العبارة بهدف وبروح البحث العلمى الحديث .

يتألف الكتاب فى جوهره من مقدمة وسبعة عشر بابا تعطى وصفا واضحا متصلا لعمل القلب وحركة الدم الدائرية خلال الجسم كله . وتستعرض المقدمة نظريات جالين وفابريكيوس وريالدو كولومب Realdo Colomb وغيرهم من قدامى الكتاب مبينا اخطاءهم فى دقة وايضاح .

ذكر هارفى فى الباب الاول بعض المشاكل التى واجهته فى ابحاثه ، فكتب يقول :

« عندما وطدت العزم أولا على الاتجاه نحو تشريح الحيوانات الحية كوسيلة لاكتشاف حركات القلب ووظائفه ، وحاولت اكتشاف هذه من الفحص الفعلى ، وليس مما كتبه غيرى ، وجدت هذا العمل شاقا وملوثا بالمواد البرازية ، وزاخرا بالصعاب حتى كدت أميل الى الاعتقاد مع فراكاستوريوس Fracastorius ان حركة القلب لايمكن أن يعلمها غير الله وحده . فلم ادرك أولا متى يحدث الانقباض ومتى يحدث التمدد ، لا متى ولا أين

يحدثان بسبب سرعة حركتيهما التى تتم فى كثير من الحيوانات فى لمح البصر ، تجىء وتذهب فى سرعة البرق الخاطف» .

واخيرا اقتنع هارفى بانه بالامكان دراسة حـــركات القلب بصعوبة أقل فى الحيوانات ذوات الدم البارد كالعلاجيم والضفادع والثعابين وصفار السمك وسرطان البحـر والجمبرى والقـواقع والمحاريات ، أقل مما فى الحيوانات ذوات الدم الدافىء . فراى فى ذوات الدم البارد ان الحركات «أبطأ وأندر» . كما كانت هـذه الظواهر أسهل ملاحظة فى الحيوانات ذوات الدم الدافىء عنـــد الاحتضار لما يكون عمل القلب آخذا فى البطء .

لاحظ هارفى ، نتيجة لتجاربه ، أن انقباض القلب يدفـع الدم خارجا ، وعندما ينقبض تتمدد الشرايين لاستقبال الدم . ولما كان القلب عضلة تؤدى وظيفة نوع من المضخات ، يجبر الدم على الاندفاع فى دوران مستمر . وعند اجبار الدم على السريان داخل الشرايين ، فانـه يسبب النبض ، «مثلما ينفـخ المرء فى قفاز» . وعلى نقيض نظرية المد والجـزر القديمـة فان الدورة الدموية تكون فى اتجاه واحد . اوضـح هارفى أن الدم يمـر من الجانب الايسر للقلب خلال الشرايين الى النهايات ثم يعود عن طريق الاوردة الى الجانب الايمن للقلب . عرفت حركة الدورة بربط أربطـة حـول الشرايين والاوردة . فى نقط مختلفـــة . وبالاختصار ، اكتشف أن نفس الدم الذى تحمـله الشرايين ، تعود به الأوردة مكونة دورة كاملة .

وهكذا نرى وصف هارفى الرائع لهذه العملية اذ يقول :

« تحدث هاتان الحركتان ، حركة البطينين وحركة الأذينين على التعاقب ولكن بطريقة فيها تناسق وايقاع بين الحـركتين . تحدثان بحيث تكون حركة واحدة هى الظاهرة وخصـــوصا فى الحيوانات ذوات الدم الدافىء التى تكون فيها الحركتان سريعتين.

تحدث الحركتان كما لو كانتا فى قطعة من آلة ، فعلى الرغم من أن احدى عجلاتها تدير الاخرى فان جميع العجلات تبدو تتحرك فى وقت واحد . أو كأجهزة الاسلحة النارية حيث يلمس الزناد فينزل القداح ويضرب الصلب فيحدث شرارة تقع بين البارود فيشتعل ويحدث اللهب ويدخل أنبوبة القذافة ويسبب الانفجار فيرسل القذيفة التى تصيب الهدف — وبسبب السرعة التى تحدث بها كل هذه الحركات ، تبدو كأنها تقع فى لمح البصر» .

عندما فكر هارفى فى أن حركة الدم دائرية ، يجوز انه تأثر بقدامى الفلاسفة أمثال اريسطو الذى كان يعلم أن الحركة الدائرية كاملة ، وهى أمثل الحركات جميعا . اما العالم الفلكى جوردانو برونو معاصر هارفى ، فاستنتج أن الدائرة هى «الشعار والنمط الاساسيين لجميع الحياة والاعمال فى الكون» . وجدير بالملاحظة أن هارفى استخدم فى مقاله عبارات مثل «حركة كأنها فى دائرة» و «يجوز لنا أن نسمى حركة الدم دائرية» .

كانت طريقة هارفى دقيقة فى البرهنة على الدورة الدموية ؟ نعم كانت فى مجملها دقيقة بدرجة رائعة ، غير أنه كانت هناك حلقة واحدة مفقودة . كيف يذهب الدم من الشرايين الى الأوردة ؟ كان هارفى يعرف أن الدم يذهب الى الشرايين من الجانب الايسر للقلب ويعود من الأوردة الى جانب القلب الايمن . ومع ذلك ، قال : «لم أنجح قط فى تتبع أية علاقة بين الشرايين والاوردة بالانفتاح المباشر بين فتحاتها» . واذ كان ينقصه الميكروسكوب لم ير الأوعية الشعرية ، وهى الأوعية الدقيقة التى تمر بداخلها كريات الدم من الشرايين الى الأوردة ، رغم اقتناعه بضرورة وجود مثل هذه المجارى . وقد حل هذا اللغز بعد موت هارفى ببضع سنين، حله مارسيلو مالبيجى Marcello Malpighi استاذ التشريح بجامعة بولونيا . فعندما كان يفحص ضفدعة بميكروسكوب حديث

الاختراع راى شبكة الشعيرات الدموية تصل الشرايين بالأوردة كما تنبأ هارفى تماما . وهكذا كملت الخطوة الاخيرة فى البرهنة على الدورة الدموية .

لكى يتغلب هارفى على الوساوس ، قدم مزيدا من البراهين على الدورة الدموية ، ومنها استعمال مايعرفه علماء الطبيعة بطريقة الكم . برهن على أن القلب يضخ فى مدة ساعة ، فى ضرباته البالغة حوالى أربعة آلاف ضربة ، كمية تربو كثيرا على جميع كمية الدم الموجودة فى الجسم . فاذا قيس الدم الذى يرسله القلب فى يوم واحد ، وجد أن كميته تزيد كثيرا على جميع الطعام المأكول والمهضوم — وبذا برهن على خطأ نظرية جالين القديمة . فكتب هارفى يقول : « بالأختصار ، لايمكن توريد الدم بطريقة أخرى غير عمل دورة والعودة» .

هناك براهين اخرى على الدورة الدموية تأتى من تأثير السموم على الجسم :

«نرى فى حالة الامراض المعدية وفى الجروح المسممة ولدغات الثعابين وعضات الكلاب المسعورة والزهرى وما اشبه ، أن الجسم كله يتسمم بينما تكاد أماكن الاصابة أن تخلو من الاذى أو تشفى .... لاشك فى أن العدوى التى أصابت أولا بقعة معينة ، نقلها الدم العائد الى القلب ومنه انتشرت بعد ذلك فى جميع اجزاء الجسم ... قد يفسر هذا ايضا السبب فى أن العقاقير الطبية المستعملة فوق الجلد ، يحدث لها نفس الاثر كما لو كانت قد اخذت عن طريق الفم» .

كان استعمال هارفى للحيوانات فى اغراض التجارب أمرا جديدا ، وكان يعتقد : «من رايى انه لو كان علماء التشريح خبراء فى تشريح الحيوانات الدنيا كما هم خبراء فى جسم الانسان لزالت

الامور التى حيرتهم ولنزعت عنهم الشكوك ، ولقضت على كل ماقابلهم من صعاب». يمكن اعتبار هارفى بحق واحدا من مؤسسى علم التشريح المقارن . فيذكر مثلا ، تجارب على الاغنام والكلاب والغزلان والخنازير والطيور والكتاكيت فى البيض والافاعى والاسماك وثعابين السمك والعلاجم والضفادع والقواقع والجمبرى وسرطان البحر والمحاريات والاصداف والاسفنج والديدان والنحل والزنابير واليعاسيب والجنادب والذباب والقمل .

« لاحظت وجود قلب لجميع الحيوانات تقريبا ، ليس فقط فى الحيوانات الكبيرة ذوات الدم كما يقرر اريسطو ، بل وكذلك فى الحيوانات الصغرى عديمة الدم ، كالقواقع ذوات المحار والقواقع عديمة المحار وسرطان البحر والجمبرى وكثير غير هذه . وحتى فى الزنابير واليعاسيب والذباب فقد استخدمت عدسة فرأيت قلبا نابضا فى الجزء العلوى مما يسمى بالذنب واطلعت غيرى عليها حية . ففى هذه الحيوانات عديمة الدم ، ينبض القلب ببطء ، منقبضا فى بطء كما فى الحيوانات الراقية المحتضرة . يرى هذا بسهولة فى القوقعة حيث يقع القلب فى قاع الفتحة الواقعة على الجانب الايمن ، والتى تبدو تفتح وتقفل عند اخراج اللعاب ... يوجد نوع من السمك الصغير المستخدم طعما لسرطان البحر ، يصاد من البحر ومن نهر الثيمس Thames ، كل جسمه شفاف . وضعت ذلك المخلوق فى الماء واطلعت بعض أصدقائى عدة مرات على حركات قلبه بوضوح تام» .

وعلاوة على اكتشافات هارفى الشهيرة هذه ، كان أعظم اسهام له فى خدمة العلم والابحاث الطبية هو الطرق العملية أو التجارب. فقد وضع الاساس الذى بنى عليه علم وظائف الاعضاء والطب لمدة تزيد على ثلاثة قرون . كان الاساس ، كما قرر هارفى نفسه :

«أن أبحث وادرس أسرار الطبيعة عن طريق التجارب» . كان للطب تاريخ يرجع الى آلاف السنين قبل مولد هارفى . تعلم الاطباء أن يدركوا ويصفوا بدقة الامراض الرئيسية التى تصيب الانسان . وإن الملاحظة ، رغم أهميتها ليست كافية ، وكثيرا ماتقود الى استنتاجات كلها خطأ . كان هذا هو اعظم فرق بين هارفى واسلافه . وتخطى هارفى الملاحظة السطحية ، مقيدا قليلا بالخرافات أو باحترام النظريات القديمة ، فوضع فروضا وفحصها بالتجارب . كان أول من استخدم الطريقة العلمية للتجربة من أجل حل المسائل البيولوجية . وقد حذا حذوه جميع خلفه منذ عام ١٦٢٨ .

من الممتع قبول معاصرى هارفى لاكتشافاته . لم يكن كتابه موضوعا ادبيا ، وربما لم يدرك هارفى نفسه عمق ماتضمنه . ونشأ شيء من المعارضة من المحافظين والمتعصبين . وقد كتب معاصره ولتروينشيل ، جون اوبرى Walter Winchell, John Aubrey يقول انه : «سمع هارفى يقول انه بعد ظهور كتابه عن الدورة الدموية أخذ يجرى التجارب بجد ، فقد ظنه العوام والسخفاء معتوها ، وكان جميع الاطباء ضده» .

عبر السير وليام تمبل William Temple عن شعور احد الاذكياء فى ذلك العصر ، فكتب عن مؤلفى كوبرنيكوس وهارفى ، يقول :

«من المتنازع فيه ما اذا كان هذان اكتشافين حديثين او مقتبسين من اسس قديمة . وهل هما حقيقيان أو غير حقيقيين . فرغم أن العقل قد يحبذهما اكثر من الآراء المضادة ، فقلما يقبلهما العقل . ولكى يقنعا البشر ، يجب عليهما أن يتحدا ، ولكن اذا كان هذان الاكتشافان العظيمان حقيقيين فانهما لم يحدثا تغييرا

فى نتائج علم الفلك ولا فى ممارسة الطب ، وهكذا كانا قليلى النفع للعالم ولو أنهما جلبا الشرف العظيم لمؤلفيهما» .

تجاهل هارفى ناقديه فى معظم الحالات . غير أن عداء مدرسة طب جامعة باريس حثه أخيرا على الخروج عن صمته . وقام جون ريولان John Riolan استاذ التشريح بمدرسة باريس يحث الكلية على تحريم تدريس نظرية هارفى . فحاول هارفى التغلب على معارضته ، فأرسل الى ريولان بحثين فى التشريح مدعمين بالادلة القاطعة فيما يختص بالدورة الدموية ، ونشر هذين البحثين فى كتيب سنة ١٦٤٩ ، اى بعد صدور كتاب «حركة القلب» باحدى وعشرين سنة ، رد فيهما هارفى بالتفصيل على من تعرضوا لمؤلفه .

يبدى هارفى حزنه فى البحث الثانى بقوله :

«قلما يمر يوم او ساعة منذ مولد الدورة الدموية ، لا اسمع فيهما شيئا طيبا او شريرا يقال عن اكتشافى هذا . يذمه البعض فيقولون انه يشبه طفلا رضيعا ضعيفا غير جدير بأن يرى النور ، ويظن البعض أن هذا الطفل يستحق الحب والعناية . فيعارضه هؤلاء بعناد شديد ، ويحميه أولئك بكثير من التوصية . يقرر احد الطرفين اننى برهنت تماما على الدورة الدموية بالتجارب والملاحظات والفحص العينى ضد كل قوى الجدل . ويظن الطرف الآخر اننى لم أوضحها بما فيه الكفاية ، ولم اسلم من جميع المعارضات . كما أن هناك بعضا آخر يقول اننى ابديت ، فى غرور ، ولعا بالغا بتشريح الكائنات الحية ، ويسخرون من تقديم الضفادع والثعابين والذباب وغيرها من الحيوانات الدنيا على المسرح ... ولكى أرد على الاقوال الشريرة بأقوال شريرة مثلها اقرر اننى لست جديرا بالفلسفة والبحث وراء الحقيقة . واعتقد كذلك أنه من الخير والاصح لى اننى اذا التقيت بالكثير من امثال

هذه المعارضات والنوايا السيئة ، أن أقابلها فى ضوء الملاحظات الاكيدة والامينة والقاطعة» .

ولحسن الحظ ، عاش هارفى ليرى القبول العام لنظرياته بين الاكفاء ليحكموا عليها . وان تعيينه عميدا لكلية الطب فى سنة ١٦٥٤ ، قبل وفاته بثلاث سنوات ، لدليل على سمو منزلته بين زملائه فى المهنة .

كذلك العبارة اللاتينية المكتوبة على قبر هارفى تدل بوضوح على رأى معاصريه فيه :

« وليم هارفى ، الذى تقوم جميع الاكاديميات احتراما لاسمه الموقر ، كان الاول بعد عدة آلاف من السنين ، الذى اكتشف حركة الدم اليومية ، وبذا جلب الصحة للعالم والخلود لنفسه ، ذلك الشخص الوحيد الذى خلص أصل الحيوان وأجياله من الفلسفة الكاذبة ، والذى يدين له الجنس البشرى باكتسابه المعارف ، ويدين له الطب بوجوده ، الطبيب الاول وصديق صاحبى الجلالة جيمس وشارل ، ملكى الجزر البريطانية ، والاستاذ النشيط البالغ النجاح للتشريح والجراحة بجامعة طب لندن — من اجلهما بنى مكتبة شهيرة زودها بنفائس الكتب من ميراثه الخاص . وأخيرا بعد الجهود المظفرة فى الملاحظة والعلاج والاكتشاف ، وبعد اقامة عدة تماثيل من أجله ، فى وطنه وفى الخارج ، عندما طاف الدائرة الكاملة لحياته مدرسا للطب وطبيبا ، مات دون ولد فى الثالث من يونية من السنة المباركة ١٦٥٧ ، فى الثمانين من عمره الزاخر بالاعمال وبالشهرة » .

اضيف القليل ذو الصفة الجوهرية لاكتشاف هارفى للدورة الدموية ، ولو أن كمية ضخمة من المعلومات كدست فيما يختص بالقلب وبالاوعية الدموية والرئتين . يعرف الكثير الآن عن تركيب

القلب ووظيفته فى الصحة والمرض وحركاته المعقدة ووظائف الدم التى لم تكن لنتخيل فى عصر هارفى نفسه .

ومع ذلك ، فكما علق كلجور Kilgour :

« من الجلى الواضح أن اسهام اكتشـاف هارفى فى الطب والجراحة ، يفوق كل وصف . انه أساس جميع الأعمال الخاصة باصلاح الاوعية الدموية التالفة أو المريضة والعـلاج الجـراحى لضغط الدم العالى والمرض التاجى وعملية « الرضيع الأزرق » المعروفة جيدا ، وهلم جرا . وزيادة على ذلك ، فان علم وظائف الاعضاء العام هو المدين له أكثر من غيره ، لان حركة الدم الدوار هى أساس معارفنا الحالية لبيئة الجسم الداخلية ، الذاتيـة الاتزان . يلعب هذا السائل ، الذى اكتشف هارفى دورته بثاقب بصيرته العظيمة ، اهم دور فى ديناميكا أجهزة جسم الانسان» .

ربما لم يلخص احد معنى حيـاة هارفى فى تقـدم الطب ، تلخيصا أفضل مما فعل رائد الطب فى عصرنا . ففى ذكرى هارفى السنوية ، القى السير وليم أوسلر خطابا فى كلية الاطباء الملكية بلندن ، عن حركة القلب ، يقول فيه .

« ... انه يتميز بكسر الروح الحديثة للتقاليد القديمة . ماعاد هناك أناس يقنعون بالملاحظة الدقيقة والوصف الشامل ، ماعاد هناك أناس يكتفون بالنظريات الحسنة السبك والاحـلام الجيدة الصياغة ، التى تقوم بوظيفة عذر عام للجهل ، ولكن يوجد هنا ، للمرة الاولى ، مسألة فسيولوجية عظمى نتناولها من الجانب المدعم بالتجارب العملية التى قام بها رجل ذو عقل علمى حديث ، استطاع أن يزن البراهين ولايذهب بعيدا عنها ، ومكنه ادراكه من أن يترك النتائج تبرز طبيعيا وبثبات من الملاحظات . فذلك العصر ، عصر السامعين ، الذى سمع فيه الناس ، وسمعوا فقط ، قد

تلاه عصر العين الذى رأى فيه الناس وقنعوا بمجرد الرؤية فقط، ثم جاء أخيرا عصر اليد ـ اليد المفكرة والمصممة ، اليــد العاملة كأداة للعقل ، تقدم الآن ثانية للعالم فى كتيب متواضــع قوامــه اثنتان وسبعون صفحة ، نجرؤ على أن نبــدأ منهــا تأريخ بداية الطب التجريبى » .

١٣ ـ نظام العالم

السير اسحق نيوتن Sir Isaac Newton

النظريات الرياضية Principia Mathematica

كان « كتاب النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية
Philosophiae Naturalis Principia Mathematica
للسير اسحق نيوتن أشهر جميع الكتب ذات التأثير العميق على أمور البشر كما أنه ما من كتاب من تلك قرأه أشخاص أقل ممن قرءوا ذلك الكتاب . فقد كتبه مؤلفه ، فى تؤدة ، باللغة اللاتينية الفنية البالغة الغموض والموضحة بالكثير من الاشكال الهندسية المعقدة . وبذا اقتصرت قراءته على علماء الفلك والرياضيات والطبيعة الواسعى الاطلاع .

وقال واحد من أشهر كتاب حياة نيوتن ، انه عندما نشر كتاب مبادىء الرياضيات فى الربع الاخير من القرن السابع عشر ، لم يكن هناك على قيد الحياة من استطاع فهمه ، أكثر من ثلاثة أو أربعة رجال . وزاد كاتب آخر هذا العدد الى عشرة أو اثنى عشر .

وقد اعترف نيوتن نفسه بأنه «كتاب صعب» ، ولكنه لم يبد أية أعذار لكونه صممه على ذلك النحو ولم يجعل به أية تسهيلات للاميين رياضيا .

ورغم هذا ، يقرر مشاهير رجال العلوم ان نيوتن من أعظم الشخصيات الفكرية فى العصر كله . فوصف لابلاس Laplace العالم الفلكى الفرنسى الالمعى ، كتاب النظريات الرياضية بأنه «المتفوق على جميع ماانتجته العبقرية البشرية» . واكد لاجرانج Lagrange عالم الرياضيات الذائع الصيت ، أن نيوتن اعظم نابغة عاش على وجه الارض . وصف بوليزمان Boltzmann رائد العلوم الطبيعية والرياضية الحديثة ، ذلك الكتاب بأنه أول واعظم كتاب الف فى العلوم الطبيعية الرياضية ، فى العالم كله . وابدى العالم الفلكى الامريكى الشهير كامبل W.W. Campbell ملاحظته قائلا : « الجلى لى أن السير اسحق نيوتن الجدير بحق بأن يكون أعظم رجل فى العلوم الطبيعبة الرياضية فى جميع عصور التاريخ ، يتمتع بمكانة فريدة بأنه الرائد العظيم فى العلوم الطبيعية الفلكية» . وكذلك كتبت تعليقات رواد علوم الطبيعة فى القرنين ونصف القرن الماضية ، بمثل ذلك الثناء والاجلال والتمييز . ويجب على العلمانيين أن يتقبلوا حكم هؤلاء على هذه الحقائق المبنية على النتائج .

ولد نبوتن بعد وفاة كوبرنيكوس بمدة قرن بالضبط ، وفى نفس السنة التى مات فيها جاليليو ، كون هذان العملاقان فى عالم الفلك ومعهما يوحنا كبلر ، الاسس التى بنى نيوتن نظرياته عليها .

كان نيوتن ساحرا رياضيا فى عصر علماء الرياضيات الموهوبين . وكما أشار مارفين Marvin : كان القرن السابع عشر عصر ازدهار الرياضيات ، كما كان القرن الثامن عشر

عصر ازدهار الكيمياء ، والقرن التاسع عشر عصر ازدهار علوم الاحياء ، ورأت الاربعون سنة الاخيرة من القرن السابع عشر خطوات تقدمية أكثر من أية فترة فى التاريخ كله» . فقد جمع نيوتن فى نفسه أعظم العلوم الطبيعية ـ الرياضيات والكيمياء والطبيعة والفلك ـ اذ كان بوسع العالم ، فى القرن السابع عشر ، قبل عصر التخصص ، أن يستوعب كافة المجالات .

واذ ولد نيوتن فى يوم عيد الميلاد لسنة ١٦٤٢ راى فى أوليات سنى حياته سقوط حكومة الكومنولث لرئيسها أوليفر كروموبل Oliver Cromwell ، والحريق العظيم الذى دمر لندن عن آخرها ، والطاعون المستشرى الذى قضى على ثلث سكان تلك المدينة . وبعد ١٨ سنة قضاها نيوتن فى قرية وولثورب Woolsthorpe الصغيرة ، أرسل الى جامعة كامبريدج حيث ساعده الحظ بأن وضعه تحت ارشاد مدرس عبقرى كفء هو اسحق بارو Isaac Barrow أستاذ الرياضيات الذى أطلق عليه اسم «الاب العقلى» لنيوتن . لمس بارو النبوغ فى نيوتن الشاب ، فشجع ذلك النبوغ النامى وحفزه . وبينما كان نيوتن مازال طالبا فى الكلية اكتشف نظرية ذات الحدين .

أقفلت جامعة كامبريدج أبوابها سنة ١٦٦٥ بسبب الطاعون، فعاد نيوتن الى الريف . ظل معظم السنتين التاليتين معزولا عن العالم ، فكرس نفسه للتجارب العلمية والتفكير ، فكانت النتائج مدهشة . فقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره قام بثلاثة اكتشافات اعلت قدره ووضعته فى مصاف العقول العلمية الفذة لجميع العصور . فأولا ، اخترع حساب التفاضل الذى أطلق عليه نيوتن اسم Fluxions لانه يدخل فى جميع مسائل الزيادة وحركة الاجسام والتموجات ، وضرورى لحل المسائل الطبيعية ، ويتناول كل نوع من الحركة . «يبدو أنه يفتح الابواب الجانبية

لمخزن الكنوز الرياضية ، ويضع عالم الرياضيات تحت اقدام نيوتن وأتباعه» .

اما الاكتشاف العظيم الثانى لنيوتن فهو قانون تركيب الضوء ، الذى بموجبه اخذ يحلل الالوان والنور الابيض . فبرهن على ان ضوء الشمس الابيض يتألف من جميع ألوان قوس قزح . اذا ، فاللون خاصية للضوء . وظهور الضوء الابيض ـ كما أوضح بالتجربة بواسطة منشور ـ ينتج عن اختلاط الوان الطيف . وبالمعارف التى اكتسبها نيوتن من هذا الاكتشاف ، استطاع ان يصنع أول تلسكوب عاكس ذى نتائج باهرة .

أما الفكرة الثالثة فجديرة بالملاحظة العظمى ، وهى قانون الجاذبية العام الذى يقال انه أثار خيال العلماء أكثر مما أثاره أى اكتشاف نظرى آخر فى العصور الحديثة . فتبعا لقصة موثوق بها ، جاءت هذه الفكرة لنيوتن عندما لاحظ سقوط تفاحة ، فساقته الى صياغة هذا القانون . لم يكن هناك جديد على فكرة جذب الارض للاجسام القريبة من سطحها . ولكن ماأسهم به نيوتن فى الذخيرة العلمية هو تخيله العظيم الذى جعل قانون الجاذبية هذا عالميا فى استخداماته : للاجرام السماوية قوة جذب لاتقل عن قوة جذب الارض . وبعد ذلك قدم البرهان الرياضى لنظريته .

الغريب ان نيوتن لم ينشر شيئا عن هذه الاكتشافات الثلاثة البالغة الاهمية : التفاضل والالوان والجاذبية . واذا كان ذا طبيعة مولعة بكتمان أسراره والاحتفاظ بمعلوماته فى طيات صدره ، فانه كان يمقت ملاحظات الجمهور ومجادلاتهم . وعلى ذلك كان يميل الى حجز نتائج تجاربه . وكل مانشره فيما بعد كان تحت ضغط أصدقائه ، ثم ندم بعد ذلك على خضوعه لهم واستجابته لتوسلاتهم ، فقد نجم عن ذلك النشر أن قام زملاؤه العلماء بنقد

مؤلفاته والمجادلة فيها ، وهذا ماكان يشمئز منه نيوتن بسبب طبيعته الحساسة .

بعد الاعتزال الاجبارى والفراغ بسبب سنوات انتشار الطاعون ، عاد نيوتن الى كامبريدج ، ونال درجة أستاذ وعين زميلا فى كلية ترنيتى Trinity . وبعد ذلك بفترة قصيرة تقاعد أستاذه السابق بارو ، فصار نيوتن وهو فى السابعة والعشرين من عمره أستاذا للرياضيات ، وهذا مركز احتفظ به نيوتن لمدة السبع والعشرين سنة التالية . لم يسمع عن نيوتن فى العشر أو العشرين سنة الأولى سوى القليل . والمعروف أنه استمر فى ابحاثه عن الضوء ، ونشر صحيفة عن اكتشافه عن الطبيعة المركبة للضوء الابيض . وبعد هذا مباشرة ، وقع فى المجادلات . فأولا ، كانت نظرياته عن الضوء تعارض النظريات السائدة وقتذاك ، وثانيا لانه ضمن صحيفته حقيقة عن فلسفته للعلوم الطبيعية . فأكد فى هذه الصحيفة وجهة نظره بأن الوظيفة الرئيسية للعلوم الطبيعية هى القيام بالتجارب المصممة بعناية ، وتسجيل الملاحظات على هذه التجارب ثم صياغة القوانين الرياضية المبنية على النتائج . وكما قال نيوتن : «الطريقة المثلى لمعرفة خواص الاشياء ، هى استنتاجها من التجارب» . ورغم اتفاق هذه النظرية تماما مع الابحاث العلمية الحديثة ، فلم تكن مقبولة تماما بحال ما فى عصر نيوتن ، اذ كانوا يفضلون المعتقدات المبنية على الخيال والعقل ومظهر الاشياء ، وهى الموروثة عادة عن قدامى الفلاسفة ، يفضلونها على البراهين وليدة التجارب .

غضب نيوتن لهجوم مشاهير العلماء على صحيفته ، ولاسيما هيوبجنز Huygens وهول Hooke ، فقرر أن يتحاشى مثل هذا الغيظ مستقبلا ، بألا ينشر شيئا بعد ذلك ، قائلا : «لقد اضطهدت من جراء تلك المناقشات التى نجمت عن نشر نظريتى عن الضوء ، حتى اننى لمت حكمتى فى اعلان مثل هذه النعمة

العظيمة كما لو كنت اجرى وراء ظل» كما عبر عن عـدم التذوق الحاد للعلوم نفسها مؤكدا أنه فقد «ولعه» السابق بها . وبعـد مدة توسل اليه وتملق وألح عليه فى «كتابة مؤلفه العظيم» النظريات الرياضية» . والحقيقة هى أنه يبدو أن خلق هـذا الكتاب جاء وليد الصدفة .

فى سـنة ١٦٨٤ قـام بيـكار Picard بحسابات دقيقة لمعرفة طول محيط الكرة الارضية بالضبط ،لاول مرة . فاستخدم نيوتن المعلومات التى توصل اليها ذلك الفلكى الفرنسى مع نظرية الجاذبية ، للبرهنة على أن القوة التى تسير القمر حول الارض ، والكواكب حول الشمس ، هى قوة الجاذبية . تتناسب هـذه القوة تناسبا طرديا مع كتلة الاجسام المتجاورة ، وتناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها . ومن هذا ذهب نيوتن بعد ذلك ليبرهن على أن هذا هو مايجعل أفلاك الكواكب اهليلجية الشـكل . فقوة شد هذه الجاذبية هى التى تحافظ على دوران القمر والكواكب فى أفلاكها موازنة القوة الطاردة المركزية لحركاتها .

وللمرة الثانية أخفق نيوتن فى البرهنة على اكتشافه لظاهرة أعظم أسرار الطبيعة . وتصادف أن شغل علماء آخرون فى البحث من حل لنفس هذهالقضية . اقترح كثير من علماء الفلك انالكواكب ترتبط بالشمس بقوة الجاذبية . كان من بين هؤلاء روبرت هوك أعظم نقاد نيوتن المتعصبين المعاندين . بيد أنه لم يستطع اى واحد من هؤلاء أن يقدم برهانا رياضيا . فى تلك الاثناء كان نيوتن قد حظى بشهرة بالغة كعالم فى الرياضـيات ، وزاره فى كامبريدج العـالم الفـلكى ادمنـدهالى Edmund Halley يطلب مساعدته . وعندما بسط هالى قضـيته ، علم أن نيوتن حلهـا قبـل ذلك بسنتين . وزيادة على هذا ، وضع نيوتن القوانين الأساسية لحركة الأجسام المتحركة تحت قوة الجاذبية . وبطبيعة الحال ، لم يكن نيوتن يعتزم نشر اكتشافاته .

أدرك هالى من فوره أهمية اكتشافات نيوتن ، فاستخدم كل مالديه من قوة الحث لاقناع نيوتن بوجوب نشر اكتشافه والافادة منه . تأثر نيوتن بحماس هالى ، وبشغفه هو نفسه الذى أشعل من جديد ، فبدأ يكتب أروع مؤلفاته «النظريات الرياضية» الذى وصفه لانجر بأنه «خزان حقيقى لفلسفة الرياضيات ، وأعظم المؤلفات الطريفة التى أنتجها العقل البشرى» .

والظاهرة البارزة فى كتاب «النظريات الرياضية» التى لاتقل اهمية عن غيرها ، هى أنه استغرق فى تأليفه ثمانية عشر شهرا ، شغل نيوتن ابانها لدرجة أنه كثيرا ماكان ينسى طعامه ولاينال غير قدر يسير من النوم . لايستطيع اخراج مثل هذا العمل الذهنى الضخم فى مدة وجيزة كهذه الا التركيز المستمر والبالغ الشدة . والحق أن ذلك العمل أنهك نيوتن ذهنيا وبدنيا .

وزيادة على ذلك ، لم ينعم نيوتن براحة البال ابان تأليفه لذلك الكتاب ، وانما أزعجته ايما ازعاج تلك المجادلات الدائمة ولاسيما من جانب هوك الذى ألح فى أن يكون له شرف اكتشاف نظرية التربيع العكسى للجاذبية فى حركة الكواكب . وكان نيوتن عندئذ قد أتم ثلثى كتابه ، فأغضبه ذلك الادعاء غير العادل لدرجة أنه هدد بحذف الجزء الثالث الاعظم اهمية . وهنا تدخل هالى مستخدما نفوذه وظل يلح على نيوتن فى أن يكمل كتابه حسبما خطط له أولا .

لعب ادمندهالى دورا فى تاريخ كتاب النظريات الرياضية يستحق عنه أسمى تقدير ، ليس فقط لانه المسئول عن حث نيوتن على القيام بذلك العمل ، بل ولانه حصل على موافقة الجمعية الملكية على نشره ولم يذكر كل مافعله فى الاشراف النهائى لاخراج ذلك الكتاب من المطبعة . واخيرا عندما نكثت الجمعية الملكية وعدها بتمويل نشر ذلك الكتاب ، قام هالى نفسه بسداد جميع

النفقات من جيبه الخاص رغم كونه متوسط الحال ويعول أسرة .

بعد ان تخطى ذلك الكتاب جميع العقبات ، خرج من المطبعة فى سنة ١٦٨٧ فى حجم صغير بيع بعشرة شلنات أو اثنى عشر شلنا للنسخة الواحدة. وظهر فى الصفحة المخصصة لعنوان الكتاب واسم مؤلفه ، ظهر اسم صموئيل ببيز Samuel Pepys رئيس الجمعية الملكية على انه صاحب الترخيص لطبع ذلك الكتاب رغم أنه من المشكوك فيه ، كما ذكر أحد النقاد : «ما اذا كان يفهم جملة واحدة منه» .

من الصعب عمل أى ملخص لذلك الكتاب بلغة غير فنية ، ان لم يكن مستحيلا . ولكن يمكن عمل بعض التوضيحات . يتناول المؤلف فى جملته ، حركة الاجسام من الناحية الرياضية ، وخصوصا من حيث الديناميكا والجاذبية العامة للمجموعة الشمسية . فيبدأ بشرح حسابات التفاضل الذى اخترعه نيوتن واستخدمه فى جميع العمليات الحسابية بذلك الكتاب . وبعد ذلك تعريف معنى الفضاء والزمن وبيان قوانين الحركة كما صاغها نيوتن مع الاشكال الموضحة لاستعمالها . فتقول النظرية الاساسية ان كل ذرة من المادة تجذبها كل ذرة أخرى من المادة بقوة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها وبين كل ذرة . كذلك بين القانون الذى تخضع له الاجسام المتصادفة بعضها مع بعض . وقد شرح وعبر عن كل شىء بصور هندسية كلاسيكية .

يتناول الجزء الاول من كتاب النظريات الرياضية حركة الاجسام فى الفضاء الطلق ، بينما يتناول الجزء الثانى الحركة فى «وسط مقاوم» كالماء . وقد وضع نيوتن فى اعتباره مسائل حركة السوائل وطرق حلها ، وناقش طرقا لتقدير سرعة الصوت

وحركة الامواج بالشرح الرياضي . وهنا وضع أساس علم الطبيعيات الرياضية الحديث والايدروستاتيكا والايدروديناميكا .

قوض نيوتن ، فى الجزء الثانى ، ذلك النظام الكونى الذى وضعه ديكارت Descartes ، والذى كان شائعا وقتذاك تقويضا تاما . فتبعا لنظرية ديكارت : تتحرك الاجسام السماوية بناء على حركة دوامية . فالفضاء كله ، تبعا لتلك النظرية ملىء بمادة مائعة خفيفة تحدث دوامات فى نقط معينة . فمثلا ، تتألف المجموعة الشمسية من أربع عشرة دوامة أكبرها تضم الشمس . اما الكواكب فتدور كما تدور قطع الاوراق فى دوامة الاعاصير الحلزونية . فسر ديكارت ظاهرة الجاذبية بهذه الدوامات فلما جاء نيوتن ، أخذ يبرهن بالتجارب والعمليات الرياضية ، وبذا اثبت أن «نظرية الدوامات تتعارض تماما مع الحقائق الفلكية . ولذا فهى بعيدة كل البعد عن تفسير حركة الاجرام السماوية وتقلبها رأسا على عقب» .

أما فى الجزء الثالث ، وعنوانه «نظام الكون» فقد بذل نيوتن قصارى مافى ذهنه اذ تناول النتائج الفلكية لقانون الجاذبية ، فكتب يقول عن نفسه :

« وضعت فى الجزءين السابقين نظريات الفلسفة (العلوم) ، تلك النظريات الرياضية وليست الفلسفية .. هذه النظريات هى قوانين وشروط حركات معينة أو قدرات أو قوات .. شرحتها هنا وهناك ... ب ... تبعا لامور ذات طبيعة عامة ... مثل كثافة الاجسام ومقاومتها والفضاء الخالى من جميع الاجسام ، وحركة الضوء والصوت . يتبقى من نفس تلك النظريات أن أشرح هيكل نظام الكون» .

شرح نيوتن السبب فى عدم جعله مؤلفه شعبيا ، فقال :

«الحقيقة انني الفت الجزء الثالث عن هذا الموضوع بطريقة شعبية كي يقرأه الكثيرون، ولكن حدث بعد ذلك انني لما رايت ان اولئك الذين لم يدرسوا تلك النظريات دراسة كافية لايمكنهم ادراك قوة النتائج فى سهولة ، كما انهم لن يتخلوا عن العقـائد والتعصبات التى تعـودواه منذ عدة سنوات ، لذا ، تحاشـيا للمنازعات التى قد تنجم بسبب ذلك ، قررت اختصار مادة هذا الكتاب فى صورة مقترحات (بالطريقة الرياضية) لايقرؤها غـير الذين استوعبوا النظريات التى تضـمنها الجـزءان السـابقان استيعابا جيدا . كما انني لااشير على احد بدراسة كل نظرية فى الجزءين السابقين لانها تستغرق وقتـا طـويلا حتى من ذوى الدراسات الرياضية الطيبة» .

لهذا السبب ، وصف أسلوب كتاب «النظريات الرياضية» بأنه «بالغ الصعوبة ومكتوب بطريقة متناهية التعقيد لايلجأ اليها الا كاهن سام» .

استهل نيوتن كلامه فى هذا الجزء بذكر حقيقـة اساسـية تختلف عن النظريات الماضية تماما ، وهى انه ليس هناك فرق بين الظواهر الارضية والظواهر السماوية ، مؤكدا أن الآثار المتشابهة فى الطبيعة تنتج عن أسباب متشابهة . فمثلا ، التنفس فى الانسان وفى الحيوان ، وسقوط الاحجار فى أوروبا وفى أمريكا ، وضوء نار المطبخ وضـوء الشـمس ، وانعكاس الضـوء على الارض وعلى الكواكب . وهكذا دحض الاعتقـاد القديم القـائل بأن العـوالم الاخرى كاملة والأرض وحدها هى غير الكاملة . ولكن نيوتن اثبت أن الجميع يخضع لنفس القوانين المعقولة ، كما قال ماك موراى Mac Murray : « بسبب النظام والعمـل الرتيب حيث سـادت الفوضى والغموض فى العهد الماضى» .

هذا ، وان مجرد عمل قائمة بالموضوعات التى تناولها الجزء

الثالث لمدهش حقا . فقد أثبت ، بما لايترك مجالا للشك ،حركات الكواكب وحركات توابعها حولها وأوضح طرق قياس كتل الشمس والكواكب ، وناقش وفسر مواضيع كثـافة الارض واسـتقبال الاعتدالين الربيعى والخريفى ونظرية المد والجزر وأفلاك المذنبات وحركة القمر وكل الامور المتعلقة بهذه المواضيع .

اثبت نيوتن ، بواسطة نظريته عن «الاضـطرابات» ، أن الارض والشمس تجذبان القمر ، وهكذا يضطرب ذلك القمر بجذب الشمس رغم أن جذب الارض له أقوى من جـذب الشمس . وكذلك الكواكب عرضـة للاضـطرابات . وليست الشمس هى المركز الثابت للكون ، على عكس المعتقدات السابقة ، بل تجذبها الكواكب كما تجذب هى الكواكب فتتحرك بنفس الطريقة . وفى القرون اللاحقة أدت نظرية الاضـطرابات الى اكتشـاف كوكبى نبتيون وبلوتو .

أوجد نيوتن مقادير كتل الكواكب وكتلة الشمس بمقارنتها بكتلة الارض . قدر كثافة الارض بما يتراوح بين خمس وست مرات كثافة الماء (الكثافة التى يستعملها علماء الطبيعة اليوم هى ٥ر٥) . وعلى هذا الاساس حسب نيوتن كتل الشمس والكواكب وتوابعهـا . وهـذا عمـل وصـفه آدم سـميث **Adam Smith** بأنه «فوق مدى العقل والعمل البشريين» .

تأتى بعد ذلك الحقيقة القائلة بأن الارض ليست كرة منتظمة التكور ، بل مسـطحة عنـد القطبين بسبب الدوران ، فشرحها نيوتن وحسب مقدار التسطح . استنتج نيوتن بناء على تسـطح الارض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء ، أن الجاذبية لابد أن تكون عند القطبين أقل منها عند خط الاستواء — وهذه الظاهرة تفسر «الاستقبال» فى عتدالين والحركة المخروطية لمحور

الارض على غرار الخذروف . وبدراسة شكل الكوكب أمكن تقدير طول الليل والنهار على ذلك الكوكب .

استخدم نيوتن قانون الجاذبية الكونية فى بحثه عن أسباب المد والجزر . فعندما يكون القمر بدرا يقع على مياه الارض أقصى جذب ، فينتج المد . كذلك تؤثر الشمس على المد والجزر . فعندما تكون الشمس والقمر على خط واحد ، يبلغ المد ذروته .

كذلك هناك موضوع يحظى باهتمام الجميع القى نيوتن عليه النور ، الا وهو موضوع المذنبات . كانت نظريته أن المذنبات اذ تسير تحت جاذبية الشمس ، تتخذ مسارات اهليلجية ذوات مدى بالغ البعد يحتاج قطعه العديد من السنين . لذا فان المذنبات التى اعتبرتها الخرافات نذير شؤم ، تبوات مكانها الصحيح كظواهر سماوية جميلة وعديمة الاذى . وقد استطاع ادمندهالى باستخدام نظريات نيوتن عن المذنبات ، أن يتعرف على المذنب الشهير المعروف ، باسم «مذنب هالى» . ويتنبأ عن موعد ظهوره بالضبط كل ٧٥ سنة . وما ان يشاهد المذنب حتى يمكن تحديد مساره مستقبلا بالضبط .

ومن الاكتشافات العظيمة المدهشة التى قام بها نيوتن ، طريقة تقدير بعد نجم ثابت ، مبنية على كمية الضوء التى يمكن الحصول عليها بانعكاس أشعة الشمس من كوكب .

لم يبد كتاب «النظريات الرياضية» أية محاولة لشرح السبب وانما شرح فقط الكيفية الكونية . وبعد ذلك رد نيوتن على التهم بأن طريقته كانت طريقة ميكانيكية بحتة ، دون ذكر أية أسباب ولا نسبة الى الخالق الاعظم ، فأضاف اعترافه وايمانه بالخالق فى الطبعة الثانية لمؤلفه ، فكتب يقول :

« لايمكن ادراك هذا النظام البديع للشمس والكواكب

والمذنبات الا بتوجيه وسيادة كائن بالغ الذكاء والقوة .... فكما انه ليست لدى الاعمى اية فكرة عن الالوان ، كذلك ليس لدينا اية فكرة عن الكيفية التى يسرى بها الله الكلى الحكمة ، جميع الاشياء ويفهمها» .

كان نبوتن يعتقد أن وظيفة العلوم هى بناء المعلومات وتنميتها ، وكلما كثر كمال معارفنا كثر اقترابنا من فهم السبب رغم أن الانسان قد لايكتشف قط قوانين الطبيعة العلمية الصحيحة .

لما كان كتاب «النظريات الرياضية» عملا وليد الذكاء المفرط فان المعجبين بنيوتن المتحمسين له ، يؤكدون انه لم يكتب فى الفراغ . فكما ذكر كوهين Cohen :

« بنيت نظريات نيوتن العظيمة . على اعمال سابقيه لقد انتج الماضى السابق مباشرة ، الهندسة التحليلية من ابتكار ديكارت وفورما Format ، والجبر من ابتكار أوجترد Oughtred وهاريوت Harriot و واليس Wallis وقانون الحركة لكبلر ، وقانون الاجسام الهابطة لجاليليو . وكذلك انتج قانون تكوين السرعات لجاليليو — وهو قانون يقول انه يمكن تحليل حركة ما الى مركبات كل منها مستقلة عن الاخرى (فمثلا تتألف حركة القذيفة من سرعة امامية منتظمة وسرعة الى أسفل ذات عجلة ، مثل حركة جسم مطلق هابط) وهذا قليل من كثير من المكونات الحاضرة التى تنتظر نظريات نيوتن العظمى . ولكن يبقى أمام عبقرية نيوتن أن تضيف اليها اللمسة الاخيرة العظمى ، ليبرهن أخيرا ولآخر مرة كيف يسير نظام الكون تبعا لقانون رياضى» .

كان من الجلى ، كما ذكر جان Jeans ، أن العالم

بحاجة الى رجل بوسعه أن يضيف النظريات ويستنتجها ويطليها، فوجد ذلك الرجل ، بامتياز رائع ، فى شخصية نيوتن» .

اعترف نيوتن نفسه بأن «نظامه للعالم» علم ميكانيكا الكون مبنى على اعمال بدأها كوبرنيكوس واخـــذها عنه تيكو براهى وكبلر وجاليليو . وقال نيوتن : «اذا كنت قد رأيت أبعد مما رأى غيرى من الرجال ، فانما ذلك لوقوفى على أكتاف العمالقة » .

والواقع أن السبب المحتمل للمعارضات والمناقشات التى ملأت حياة نيوتن ، هو الاختمار الذهنى السائد فى عصره . كان الجو زاخرا بالنظريات الجديدة التى فحصها عدد كبير من العلماء الاكفاء . ولايدهشنا أن يكتشف رجلان نفس الاكتشاف فى وقت واحد تقريبا ، وكل منهما مستقل عن الآخر . يبدو أن هـــذا حـدث بالضبط فى اكتشافى نيوتن الرئيسيين اللذين اكتشـفهما لبينز وهوك . فاخترع لبنيز حساب التفاضل ، وعــدل هوك فى نظرية الجاذبية الكونية بعد أن ابتكرهما نيوتن بوقت ما . ولكنهما أعلناهما للعالم قبل نيوتن الذى أهمل فى نشر مؤلفه .

استقبل معاصرو نيوتن كتابه «النظريات الرياضـية» ، فى انجلترا واسكتلاندا بترحاب أكثر من أستقبال الناس له فى القارة الاوروبية ، ولكنه استقبل ببطء فى كل مكان . وكما تنبـأ نيوتن ، احتاج فهمه الى مقدرة رياضية عظيمة ، ومع ذلك فان طريقـة عرضه الخارقة جعلت الناس ، حتى من كانت لديهم فكرة بسيطة عن مؤلفه يقبلون عليه . وشيئا فشيئا قبل العلماء ، فى كل مكان، نظريات نيوتن ، وفى القــرن الثامن عشر ســـلموا بها فى عـــالم العلوم .

يبدو أن نيوتن فقد كل متعة فعالة فى الابحاث العلمية بعد أن كتب «النظريات الرياضية» ، رغم أنه عاش مدة أربعين عاما

بعد نشره ، تسلم خلالها عدة تكريمات مشرفة : فعين مديرا لدار السكة ، ومنحته الملكة آن Anne لقب فارس ، وانتخب رئيسا للجمعية الملكية منذ عام ١٧٠٣ حتى وفاته فى سنة ١٧٢٧، ورأى نشر الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه . وعلى العموم ، قدر اسمى تقدير ونال أعظم اجلال .

عدلت الاكتشافات العلمية فى القرن العشرين فى نظريات نيوتن أو اظهرت عدم ملاءمة بعضها ، وخصوصا فيما يتعلق بعلم الفلك . فمثلا ، أكدت نظرية أينشتين فى النسبية أن الفضاء والزمن ليسا مطلقين كما علم نيوتن . وعلى العموم ، فكما ذكر بعض الثقات الحجة فى العلوم والتكنولوجيا ، ان تركيب ناطحة السحاب ، وأمن جسر سكة حديدية ، وحركة السيارة ، وتحليق الطائرة ، وملاحة السفينة عبر المحيط ، وقياس الزمن وما الى ذلك من الادلة فى حضارتنا المعاصرة ، لاتزال تتوقف أساسا على قوانين نيوتن . وكما كتب السير جيمس جانز : «ليست نظريات نيوتن مناسبة فقط فيما يختص بالتهذيبات البالغة السمو للعلوم الحديثة ، بل وان الفلكى عندما يريد اعداد تقويمه الملاحى أو مناقشة حركات الكواكب ، يستعمل نظريات نيوتن وحدها تقريبا. والمهندس الذى يريد تشييد جسر أو بناء سفينة أو تصميم سيارة ، يعمل تماما ماكان يعمله فى حالة ماأذا كانت نظريات نيوتن لم يبرهن على عدم مناسبتها . ونفس الشىء صحيح مع المهندس الكهربى سواء أكان يصلح تليفونا أو يصمم محطة لتوليد الكهرباء . لاتزال العلوم المستعملة فى حياتنا اليومية ، مبنية على قوانين نيوتن . ومن المستحيل تقدير ماتدين به هذه العلوم لعقل نيوتن الصافى والثاقب ، الذى وضعها على الطريق الصحيح ، وان نظرياته لراسخة ومقنعة لدرجة أنه ما من أحد فهمها واستطاع أن يشك فى صحتها » .

لابد للثناء والتقريظ اللذين نالهما نيوتن على لسان أينشتين ان يمحو أي قدح من الفلاسفة منافسيه «اذ كانت الطبيعة أمامه كتابا مفتوحا استطاع قراءة حروفه دون عناء . لقد ضم فى شخص واحد : العالم القائم بالتجارب ، وصائغ النظريات والميكانيكى والمتفنن فى التعبير» .

قدر نيوتن حياته وهو فى آخر أيامه تقديرا يتسم بالتواضع، فقال : «لست أدرى ماذا أبدو أمام العالم ، ولكنى أبدو أمام نفسى كغلام على شاطىء البحر ، يتسلى من آن الى آخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة أو صدفة أجمل من العادية بينما يقع محيط الحقيقة الخضم كله أمامى دون أن يكتشف» .

١٤ ـ بقاء الاصلح

تشارلز داروين Charles Darwin

اصـــل الاجنـــاس

بتطابق عجيب شهد عام ١٨٠٩ مولد قادة عظـــام بدرجة خارقة للعادة ، ربما كان ذلك أكثر من اية سنة بعينها فى التاريخ كله . قدر لكل عظيـم منهم أن يكون مبرزا فى مجـاله . فهـذان تشارلز داروين «نيوتن علم الاحياء» ، وابراهام لنكولن الرجـل العظيم الذى تبنى موضوع عتق العبيد وحققه ، ولدا فى نفس اليوم وكاد مولدهما أن يكون فى نفس الساعة . ومن بين عظماء الرجال الذين رأوا النور فى تلك الســنة نفسـها ، جلادســتون Gladstone وتينيسـون Jennyson وادجـار الان بـو Edgar Allan Poe ، وأوليفـر وبـدل هـــولز Oliver Wendell Holmes ، واليزابيث باريل براونج Elizabeth Barell Browning وفيلكو ماندلسوهن Felix Mendelssohn .

ما من أحد من هؤلاء الاسماء الشهيرة ، وفى الواقع من بين

جميع الملايين المولودين فى القرن التاسع عشر ، وربما ، باستثناء كارل ماركس ، مامن أحد فعل أكثر من داروين فى تغيير الاتجاهات الرئيسية للفكر ، وخلق نظرة جديدة فى المواضيع البشرية . وان «الداروينية» فكرة ثبتت ورسخت تماما فى عقول الشعب مثل الماركسية والمالثوسية والماكيافيلية .

على الرغم من أن المبادىء الاساسية للنظريات الداروينية ، تحظى اليوم بقبول عام تقريبا فى العالم العلمى ، فقد ثارت المجادلات حولها فى مدى قرن تقريبا . والمعارك الاساسية الحديثة للقرنين التاسع عشر والعشرين التى بلغت ذروتها فى مجالات « موضوع القرد » فى ولاية تنيسى Tennessee من بين الامثلة القليلة لحرية بدأت فى عام ١٨٥٩ ، ولم تبدأ أمارات الهدنة من هذه الهجمات الا حديثا .

لم يبد داروين وهو شاب سوى القليل من الدلائل على أنه سيكون عالما ذا شهرة عالمية ... انحدر من أسرة تضم عددا من العلماء المبرزين والرجال المحترفين ، ولكن ، حتى والده نفسه ، ساوره شك بالغ فيما اذا كان ابنه سيصير شيئا ما . ففى مدرسة «قواعد اللغة» ، ضايقت شارل الصغير دراسة اللغات الميتة والمنهج الكلاسيكى الجاف البالغ الصعوبة . وقد أنبه ناظر تلك المدرسة على تضييع وقته فى التجارب الكيميائية وجمع الحشرات والمعادن . ولكى ينهج نهج أبيه ، أرسل الى جامعة ادنبره وهو فى السادسة عشرة ليدرس الطب . وبعد قضاء سنتين فيها ، قرر أن مهنة الطب ليست له . فنقل الى كامبريدج ليتدرب على الكهنوت للكنيسة الانجليزية .

من وجهة نظر الدراسة الشكلية ، اعتبر داروين أن دراسة السنوات الثلاث فى كامبريدج كانت مضيعة للوقت. بيد أن الحظ ساعده هناك بأن صادق أستاذين ذوى نفوذ بالغ . قضى داروين

وقتا طويلا مع هنسلو Henslow أستاذ علم النبات ، وسدجويك Sedgwick أستاذ الجيولوجيا ، فى رحلات الى الحقول يجمع الخنافس وملاحظات التاريخ الطبيعى .

نال داروين عرضا ، عن طريق سدجويك ، بالابحار كعالم طبيعى على ظهر سفينة البحرية «بيجل Beagle» . فخرج فى بعثة للقيام بمسح واسع النطاق فى نصف الكرة الجنوبى . وفى السنوات التى تلت تلك الرحلة ، اعتبرها داروين «أهم وأعظم حادث فى حياتى» . فقد قررت هذه الرحلة مجال مستقبله كله . وقد ماتت «فكرة مصيره كاهنا ، ميتة طبيعية فوق البيجل» .

رست البيجل ، أثناء السنوات الخمس التالية من ١٨٣١ ـ ١٨٣٦ ، على كل قارة وكل جزيرة عظمى ، تقريبا ، أثناء دورانها حول العالم . وطلب من داروين أن يعمل جيولوجيا وخبيرا فى علم النبات وعلم الحيوان وعالما فى العلوم الطبيعية بصفة عامة ـ وهذا اعداد رائع ممتاز لحياته القادمة فى الابحاث والكتابة . فأينما ذهب ، كان يجمع مجموعات ضخمة من النباتات والحيوانات ، المتحجرة والحية ، من البرية والبحرية . كان يفحص بعين العالم الطبيعى ، جميع النباتات والحيوانات التى تعيش على الارض وفى البحر . فى سهول البامبا بالارجنتين ، ومنحدرات جبال الانديز Andes « الجافة والبحيرات الملحة والصحارى فى شيكى واستراليا ، وغابات البرازيل الكثيفة ، وتيرادلفويجو Tierradel Fuego وتاهيتى ، وجزر الرأس الاخضر المنزوعة الغابات ، والتكونات الجيولوجية لساحل أمريكا الجنوبية وجبالها والبراكين الحية والخامدة بالجزر وأراضى القارة ، والحواجز المرجانية ، والثدييات المتحجرة فى باتاجونيا Patagonia ، والاجناس البشرية البائدة فى بيرو Peru والوطنيين الاصليين فى تيرادلفويجو وباتاجونيا .

من بين جميع المناطق التى زارها داروين ، لم تثر أية واحدة منهـا متعتـه أكثر مما اثارتها جزر جالاباجـوس Galapagos الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل غربى ساحل أمريكا الجنوبية . راى داروين فى هذه الجزر البركانية المنعزلة غير المأهولة التى تكاد تكون قاحلة سلاحف عملاقة موجودة فى كل مكان كحفـريات ليس غير وسحليات ضخمة انقرضت منذ زمن بعيد من اجـزاء العـالم الاخرى ، وسرطانات عملاقة وسباع بحـر هائلة الحجم . وقـد ادهشـه بنوع خاص أن طيور تلك الجزيرة كانت شبيهة بطيور القارة المجاورة ، ولكنها ليست مطابقة لها . وزيادة على ذلك ، كانت هناك اختلافات بين شتى أجنـاس الطيور من جزيرة الى جزيرة .

قوت هذه الظواهر الغريبة فى جزر جالاباجوس بالاضافة الى بعض الحقائق التى سبق أن لاحظها فى أمريكا الجنوبية ، قوت افكار التطور التى بدات تتشكل فى ذهن داروين ، وهاك روايته هو نفسه :

« دهشت دهشة بالغة عندما اكتشفت فى تكوينات البامبا حيوانات حفرية ضخمة مغطاة بدروع كدرع الارماديلو الحالى ؛ وثانيا بالطريقة التى تحل بها الحيوانات الغريبـة التشـابه ، احدها محل الآخر فى الاتجاه جنوبا على القارة ، وثالثا بالصـبغة الامريكية الجنوبية لمعظم انتاجات أرخبيل جالاباجوس ، وخصوصا بالكيفية التى تختلف بها اختلافا طفيفا فى كل جزيرة من مجموعة الجزر هذه . ومامن جزيرة منهـا تبـدو عتيقة جـدا ، بالمعنى الجيولوجى » .

ماعاد داروين يصدق اطلاقا تعاليم «التكوين» القائلة بأن كل جنس خلق كاملا وانحدر خلال العصور دون تغير .

وفور عودته الى انجلترا ، شرع يحتفظ بمذكراته عن التطور ، ويجمع الحقائق عن مختلف الاجناس ، وهذا هو رايه « أصل الاجناس» . فكتب أول تسويدة عن نظريته فى سنة ١٨٤٢ وتقع فى ٣٥ صفحة ، ثم وسعها فى سنة ١٨٤٤ الى صورة اكمل تقع فى ٢٣٠ صفحة . كان اللغز العظيم ، فى البداية ، هو كيف يفسر ظهور الانواع واختفاءها . لماذا تنشأ الاجناس وتتحور بمرور الزمن وتتفرع الى عدة أنواع ، وتختفى فى الغالب من الوجود تماما ؟

عثر داروين على مفتاح هذا اللغز عندما قرأ ، بمحض الصدفة ، موضوع مالثوس عن السكان . أبان مالثوس أن معدل الزيادة فى عدد السكان قد أخرته «عوامل اعاقة ايجابية» كالامراض والحوادث والحروب والمجاعات ، فطرأ على فكر داروين أن هناك عوامل مشابهة تعمل على انخفاض عدد الموجود من الحيوانات والنباتات ، فكتب يقول :

« واذ صرت على أتم استعداد لتقدير قيمة تنازع البقاء السارى فى كل مكان ، من ملاحظاتى المستمرة مدة طويلة لعادات الحيوانات والنباتات ، طرأ على بالى ، فى الحال ، أنه فى مثل هذه الظروف ، تميل الاجناس الصالحة الى الاحتفاظ بجنسها ، بينما تندثر أو تهلك الاجناس غير الصالحة . وتكون نتيجة هذا تكون أجناس جديدة . اذن ، تكونت عندى هنا أخيرا نظرية يمكننى أن أعمل على هديها» .

وهكذا ولد مذهب داروين الشهير «الانتقاء الطبيعى» أو «تنازع البقاء» أو «بقاء الاصلح» وهذا هو حجر الاساس لكتابة «أصل الاجناس» .

ظل داروين مدة عشرين سنة يكتب مذكراته ويضع البراهين

على نظرياته . فقرأ كميات ضخمة من النصـوص ـ مجمـوعات كاملة من المجلات الدورية ، وكتب الرحلات وكتب الرياضيات ، وزراعة الزهور والفاكهة والخضر وتربية الحيـوان والتـاريخ الطبيعى العام ، فكتب يقول : «عندما أتأمل قائمة الكتب التى قرأتها ولخصتها ، وتشمل مجموعات كاملة من الصحف والصفقات أدهشنى نشاطى» . فتحدث الى خبراء تربية الحيوان والنبات ، وأرسـل مجموعات من الاسـئلة الى كل من يمكن أن تكون لديهم معلومات مفيدة . أعدت هياكل عظيمة لعدة أنواع من الطيور الاليفة، وقورنت أعمـار وأوزان عظامها بعظام أجناس الطيور البرية فقام بتربية الحمام الأليف وأجرى تجارب واسعة فى التهجين . كمـا أجرى تجارب على الفواكه والبذور الطافية على مياه البحار ، وفحص عدة أمور أخرى تتعلق بانتقال البذور ، مستخدما فى ذلك جميع معلومات علم النبات وعلم الحيـوان وعلم الحفـريات او الجثث المتحجرة التى اكتسبها من رحلته على ظهر سفينة البحرية «البيجل» . وأضاف الى كمية المعلومات هذه آراءه الشخصية ، اذ كان دائم التفكير فى نظرياته الثورية .

اعتقد داروين أن التدعيم القوى لمذهبه «الانتقاء الطبيعى» جاء من دراسة «الانتقاء الصناعى» . ففى حالة الحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية ـ الخيول والكلاب والقطط والقمح والشـعير وزهور الحدائق ونحوها ـ انتقى الانسان وربى منها أكثرها نفعا لاحتياجاته . وهكذا حـورت الحيـوانات الاليفة والمحـاصيل والزهور خلال هذه العملية حتى انه قلما يمكن التعرف على أنها تنتمى الى أسلافها البرية بصلة . فنشأت أجناس جـديدة عن طريق الانتقاء . فينتقى المربى الحيوايات ذوات الصـفات التى يريدها ولايربى سواها ، جيلا بعد جيل ، وأخيرا ينتج أجناسـا تختلف عما كانت موجودة من قبل . فأنواع الكلاب المتباينة ، مثل

الكلب الطويل الجسم ، والقصير الارجل ، وكلب حراسة الاغنام، والابيض الطويل الآذان وكلاب الصيد بجميع أنواعها ، منحدرة كلها عن الذئب» .

قال داروين ، اذا أمكن احداث التطور بالانتقاء الصناعى ، فهلا تستطيع الطبيعة أن تفعل ذلك بالانتقاء الطبيعى ؟ وفى الطبيعة، يحل «تنازع البقاء» محل المربى . لاحظ داروين ، بين جميع انواع الحياة ، أن عددا كبيرا من الافراد يجب أن يهلك . لايستطيع الحياة من بين المولود منها الا نسبة بسيطة ، تمد بعض الاجناس بالغذاء اجناس أخرى . تدور المعركة بغير انقطاع . وتبيد المنافسة العنيفة الحيوانات والنباتات غير الصالحة فتنقرض ، وتحدث تغييرات فى الاجناس لتلائم الظروف اللازمة لبقائها .

وهكذا أصر داروين على بناء حصن من البراهين لنظرياته يتحدى كل هجوم . ولكنه أهمل نشرها حتى خمسينات القرن التاسع عشر . وأخيرا ، بعد الحاح أصدقائه المخلصين ، اخذ يعد العدة لعمل اثرى يصدر فى عدة مجلدات . غير أنه عندما كان ذلك العمل فى منتصفه تقريبا ، نزلت صاعقة ، اذ تسلم داروين خطابا من ألفريد روسل والاس Alfred Russel Wallace أحد زملائه العلماء الذى كان يقوم بأبحاث واكتشافات فى التاريخ الطبيعى فى أرخبيل الملايو . ذكر والاس أنه هو أيضا يعمل فكره فى أصل الأجناس ، وانه ، كما فعل داروين ، قرأ مالثوس فأوحى اليه بذلك العمل . تضمن الخطاب مقالا عن «ميل أنواع الاجناس الى أن ترحل عن شكلها الاصلى الى غير رجعة» . وكان هذا بالضبط حقيقة من حقائق نظرية داروين ، فقال داروين : «لو اطلع والاس على مذكراتى الخطية التى كتبتها فى سنة ١٨٤٢ ، لما عمل ملخصا خيرا منه (فحتى مصطلحاته هى نفس عناوين أبواب مؤلفى» .

واجهت داروين معضلة . فمن الجلى أن كلا من الرجلين

قد وصل الى نفس النتائج تماما ، رغم أن كلا منهما كان يعمل وحده بمنأى عن الآخر ومستقلا عنه ، ورغم أن داروين قضى سنوات من الدراسة والتفكير فى ذلك الموضوع ، بينما طرات آراء والاس على تفكيره فجأة . وأخيرا استقر الرأى على أن يقدم كل منهما اوراقه فى الاجتماع التالى للجمعية اللينائية Linaean وبناء على ذلك أعلن لاول مرة عن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعى فى أول يوليو سنة ١٨٥٨ . وبعد ذلك بفترة قصيرة صدر مقال كل منهما فى صحيفة الجمعية .

الهب حادث والاس حماس داروين ، فترك المؤلف الضخم الذى كان يعده ، وقرر أن يكتب ما أطلق عليه «الملخص» . وقرب نهاية عام ١٨٥٩ نشر جون موراى John Murray ، فى لندن ذلك الكتاب الذى قدر له أن يصبح حجر الزاوية فى تاريخ العلوم . كانت الطبعة الاولى ١٥٠٠ نسخة بيعت كلها فى اليوم الأول ، فتبعتها طبعات أخرى حتى بلغ عدد النسخ التى بيعت فى حياة داروين (مات فى سنة ١٨٨٥) ٢٤٠٠٠ نسخة فى انجلترا وحدها، وترجم ذلك الكتاب الى جميع اللغات المتحضرة تقريبا كان عنوان النسخة الاصلية «أصل الاجناس بواسطة الانتقاء الطبيعى أو بقاء الاجناس الصالحة فى التنازع من أجل البقاء» . ثم اختصر الزمن هذا العنوان الطويل الى «أصل الاجناس» .

ناقش داروين الاسس الجوهرية لنظريته فى الابواب الاربعة الاولى من كتابه «أصل الاجناس» . وتناولت الابواب الاربعة التالية الاعتراضات الممكنة على هذه النظرية . وبعدها تأتى عدة أبواب تتناول علم طبقات الارض والتوزيع الجغرافى للنباتات والحيوانات ، والحقائق المناسبة لتصنيفها ،وعلم الشكل الخارجى للكائنات وعلم الاجنة . ويلخص الباب الاخير كل ماسبق .

فسر داروين ، فى بداية كتاب «أصل الاجناس» تلك التغييرات

التى حدثت للحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التى نتجت عن « الانتقاء الصناعى » بالتغيرات التى حدثت للحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التى نتجت عن «الانتقاء الصناعى» بالتغيرات التى تحدث فى الطبيعة او «الانتقاء الطبيعى» فأينما توجد الحياة يحدث التغير باستمرار ، وما من فردين متشابهان تماما .

اضاف داروين تنازع البقاء الى التنوع . فاستعمل بعض الامثلة الشهيرة ليشرح كيف تزيد قدرة الكائنات الحية على التكاثر ، الى أى حد طالما لها مقدرة على الحياة . وحتى أبطأ الحيوانات فى التكاثر ، مثل الاقبال ، سرعان ما تملأ الدنيا . فاذا كبر كل فيل الى طول البلوغ وتكاثر طبيعيا ، فانه كما يقول داروين « سيكون هناك بعد مدة من ٧٤٠ الى ٧٥٠ سنة ، سيكون هناك على قيد الحياة حوالى ١٩ مليون فيل منحدرة من زوج الافيال الأول » . ومن هذا المثال وغيره من الامثلة ، استنتج أنه « بما أن عدد الافراد التى تولد تزيد كثيرا على مايمكن أن يعيش ، فلابد ان يكون هناك تنازع على البقاء ، أما بين فرد ما وفرد آخر من نفس جنسه ، أو بين أجناس مختلفة ، أو بين الكائنات الحية وظروف الحياة الطبيعية » . لاشواذ للقاعدة القائلة بأن كل نبات أو سمك أو طائر أو حيوان ، ومنه الانسان ، ينتج بذورا الى مالانهاية أكثر مما يستطيع أن يتلاءم مع العالم المزدحم أو أكثر مما يولد . ومعدل الزيادة يتبع متوالية هندسية أى متضاعفة .

كذلك قدم رسما بيانيا للاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية كل على الآخر . وجد داروين أن التلقيح النباتى بواسطة النحل ضرورى لاخصاب أزهار البانسية وبعض أنواع البرسيم .

«يتوقف عدد النحل فى كل منطقة ، الى حد كبير ، على عدد جرذان الحقل التى تتلف خلاياها وأقراص العسل التى تصنعها ... ويتوقف عدد الجرذان كثيرا كما يعرف كل انسان ، على عدد القطط .. اذن فمن المعقول جدا أن وجود أى حيـــوان مفترس بأعداد كبيرة فى اية منطقة ، يقرر ، عن طريق اعتمــاد كائن على آخر ، أولا عدد الجرذان ، ثم عدد النحل ، وبعد ذلك وجود زهرة معينة فى تلك المنطقة » .

يبدأ كتاب «أصل الاجناس» بأن يوضح كيفية عمل مبــدأ «الانتقاء الطبيعى» فى ايقاف زيادة عدد الســكان . يكون بعض أفراد جنس ما أقوى من غيرها أو أسرع جـريا أو أعظم ذكاء أو أكثر مناعة للامراض أو اقدر على احتمال قسوة الطقس . يبقى هؤلاء أحياء ويتكاثر بينما يهلك الضعفاء . يعيش الارنب الابيض فى المناطق القطبية بينما تستأصل الثعالب والذئاب الارانب البنية اللون والاكبر جسما . وعاشت الزراف الطويلة الاعناق لانهـــا استطاعت ، فى وقت الجفاف ، الحصول على طعامهــا من قمم الاشجار ، بينما ماتت جوعا الزراف القصيرة الاعناق . فأكدت هذه الاختلافات مبدأ «بقاء الاصلح» . وفى خلال عشرات الالوف من السنين ، أدى ذلك الى خلق أجناس جديدة .

يروى دأروين قصة قانون السن والناب والمخلب وهى تعمل فى كل مكان ، فيقول :

«نبصر وجه الطبيعة مشرقا بالبشر ، وكثيرا مانرى وفــرة الطعام ، ولانرى أو ننسى أن الطيور التى تغرد حولنا تتغذى غالبا بالحشرات أو البذور ، وهكذا تهلك الحياة باستمرار ، كما لاننسى كيف تهلك هذه الطيور المغردة ويهلك بيضها وفراخها بواســطة الطيور الجارحة والوحوش الضارية ، ولانتــذكر دائمــا أنه على الرغم من الوفرة العظيمة فى الطعام ، فانه لايكون بمثل هذه الدقة فى جميع الفصول المتعاقبة فى العام» .

أشار داروين الى مظهر هام من مظاهر «الانتقاء الطبيعى»، فقال : «المعتاد أن الذكور الاقوياء الاكثر ملاءمة لأماكنهم فى الطبيعة، هم الذين يتركون ذرية أكثر ... فالوعل العديم القرون ، أو الديك عديم المخالب القوية أضعف فرصة فى ترك ذرية عديدة» . و «غالبا مايكون النضال بين الطيور فى صورة أكثر هدوءاً» . فان ذكور الأجناس المختلفة تسعى الى جذب الاناث بالتغريد العذب أو بالريش الجميل أو بالقيام بحيل غريبة .

وكذلك الطقس عامل قوى فى الانتقاء الطبيعى ، لانه يبدو أن الفصول الشديدة البرودة والجفاف هى أكثر الفصول اعاقة للتكاثر ... يبدو فعل الطقس ، لاول وهلة ، مستقلا تماما عن تنازع البقاء . ولكن طالما يعمل الطقس على اقلال الطعام فانه يجلب فى ركابه أقسى تنازع بين الافراد ، سواء من نفس الجنس أو بين أفراد الاجناس المختلفة التى تتغذى بنفس نوع الطعام» . والمنتظر أن التى تعيش أكثر من غيرها هى الافراد القوية القادرة على مقاومة الحر أو البرد ، والقادرة أكثر من غيرها على الحصول على طعامها .

كتب داروين يقول :

«يتربص الانتقاء الطبيعى ، كل يوم ، بل وكل ساعة فى العالم ، بأقل الاختلافات فينبذ الردىء ويحتفظ بكل ماهو طيب ، يعمل فى هدوء وفى الحال كلما وأينما سنحت له الفرصة عند تحسين كل كائن عضوى تبعا لظروف حياته العضوية أو غير العضوية . لم نبصر شيئا من هذه التغيرات البطيئة وهى تتقدم حتى أوضحت يد الزمن انصرام العصور ، وتكون نظرتنا الى العصور الجيولوجية البالغة القدم ، غير كاملة ، فلانرى غير اختلاف أشكال الحياة الآن عما كانت عليه فى الماضى» .

قرر داروين فى آخر أبواب كتابه انه لا حدود لقوة الانتقاء الطبيعى ، واقترح أن الانسان يمكنه « أن يستنتج من المشابهة ، انه من المحتمل أن تكون جميع الكائنات العضوية التى عاشت على هذه الارض منحدرة من صورة أصلية واحدة دبت فيها الحياة أول مادبت» . واعتقد أن جميع صور الحياة المعقدة بوجودها للقوانين الطبيعية . وجد أن نتائج الانتقاء الطبيعى موحية .

وهكذا نجد ، من حرب الطبيعة ، ومن المجاعات ، ومن الموت ، نجد أعظم موضوع نستطيع التفكير فيه ، وهو انتاج الحيوانات الراقية ، هو مايلى ذلك مباشرة . توجد عظمة فى وجهة النظر هذه عن الحياة ، بشتى قواها التى نفثها الخالق فى بضعة صور أو فى صورة واحدة . وبينما يدور هذا الكوكب تبعا لقانون الجاذبية الثابت ، فمن هذه البداية البسيطة نشأت صور لاتحصى فى غاية الجمال والعجب ، ولاتزال تنشأ .

على هذا النحو كانت نظرية التطور اللانهائى التى قدمها كتاب «أصل الاجناس» . ومع ذلك ، فعلى نقيض الاعتقاد السائد أن داروين لم يخلق نظرية التطور ، فهذه الفكرة أقدم من أريسطو ولوكريتوس . أيد هذا المذهب كثير من العقول البالغة الذكاء أمثال : بوفون Buffon وجوتيه Goethe وايراسموس داروين Erasmus Darwin (جد شارل) ، ولامارك Lamarck وهربرت سبنسر Herbcrr Spencer ... اشتهرت نظرية شارل داروين فى ناحيتين : الأولى قدم البراهين ، التى تقبل الجدل ، للتدليل على حقيقة التطور أكثر مما قدم من سبقوه . والثانية أنه قدم نظريته الشهيرة عن الانتقاء الطبيعى بتفسير معقول لطريقة التطور .

شبه تهافت معاصرى داروين على كتاب «أصل الاجناس»،

بحريق هائل انطلق كالبرق فى جرن» . فاذا كانت هذه النظرية الثورية الجديدة صحيحة ، فلايمكن بعد ذلك قبول قصة التوراة عن الخليقة . فأدركت الكنيسة ، من فورها ، أن مذهب داروين خطر على الدين واقامت عاصفة من المعارضة . وعلى الرغم من أن داروين كان على جانب كبير من الحذر ولم يطبق نظريته على الجنس البشرى ، فقد ذاع اتهامه بأن ذلك المؤلف يقول انالناس منحدرون عن القردة .

قامت محاولات للحط من قدرة دراوين عن طريق السخرية، فوصفه مقال فى صحيفة كوارترلى رفيو Quarterly Review بأنه «شخص واهم» يحاول فى كتابه «أن يدعم نسيج تخمينه العفن تماما وتأملاته القذرة» وأن «طريقة تناوله للطبيعة مخزية للعلوم ، أى خزى » . اما صحيفة سبكتاتور Spectator فلم تعجبها هذه النظرية «لانها تنكر الغايات الاخيرة ، وبذا تدل على فهم غير أخلاقى من جانب المدافعين عنها» . وزيادة على ذلك اتهم داروين بجمع كمية من الحقائق لتدعيم مبدأ زائف ، و «لايمكنك أن تصنع حبلا من سلسلة من الفقاقيع الهوائية» . وتساءلت احدى الصحف عما اذا كان بالامكان تصديق أن جميع أنواع اللفت الصالحة ، تميل الى أن تصير اناسا » . ولما لم تكن فى انجلترا محاكم تفتيش دينية ، فان الاثينايوم Athenaeum أوصت فى صحيفة مناهضة أخرى بارسال داروين «تحت رحمة القاعة المقدسة وطائفة الكهنة وقاعة المحاضرة والمتحف» . فكان تعليق داروين على ذلك : «لن يحرقنى هذا ، على أية حال ، ولكنه سيعد الغابة ويعلم الوحوش السود كيف تمسكنى» .

لم يسمح الاستاذ هيوبل Whewell بوضع نسخة من كتاب «أصل الاجناس» فى مكتبة كلية كامبريدج التى تربى وتعلم فيها داروين .

حظى داروين بتأييد قوى من زملائه العلماء ، كما عارضه البعض مرة . مثل وجهة النظر الرجعية أشخاص مثل أوين Owen فى انجلترا ، وأجاسيز Agassiz فى أمريكا ، فقرر كل منهما أن الافكار الداروينية هرطقة علمية ، وسرعان ماسيطويها النسيان . ووصف العالم الفلكى السير جون هرشيل Herchel ، الداروينية بأنها « قانون قلب الأوضاع » . وقرر سدجويك Sedgwick أستاذ داروين لعلم طبقات الارض بجامعة كامبريدج ، أن هذه النظرية «باطلة وشريرة بدرجة محزنة» . وكتب داروين يقول : «انه ضحك حتى آلمه جنباه من شدة الضحك » على كتابه اذ اعتبره « آلة وحشية مثل قاطرة الاسقف، ويلكنز Wilkins التى كانت ستبحر بنا الى القمر » .

رغم كل هذا ، لم يعدم داروين الابطال الشجعان وكان فى مقدمة هؤلاء شارل لايل Charles Lyell عالم طبقات الارض ، وتوماس هوكسلى Huxley أستاذ علم الاحياء ، وجوزيف هوكر Hooker عالم النبات ، آساجراى Asa Gray عالم النبات الامريكى الشهير . وأكثر من اعتمد عليه داروين من بين كل هؤلاء ، هو هوكسلى الذى أطلق عليه اسم «الوكيل العام» ، والذى أشار اليه أنه «الحارس الوفى (بولدوج) لداروين» . لم يكن داروين رجل جدل ، ولم يظهر قط فى الاجتماعات العامة ليدافع عن نظريته ، وانما الذى اضطلع بمعظم الدفاع هو هوكسلى القدير الغيور .

كان هوكسلى هو الذى لعب أحد الدورين الهامين فى أجتماع الجمعية البريطانية فى اكسفورد سنة ١٨٦٠ . كان برنامج الاجتماع هو النظرية الداروينية . كان المدفع الاكبر فى جانب المعارضة هو الاسقف ويرفورس Wiberforce أسقف

اكسفورد . وفى نهاية خطاب صاخب ظنه حطم نظرية داروين ، استدار الاسقف الى هوكسلى وهو جالس على منصة الخطابة، وسأل متهكما : «أود أن أسأل الاستاذ هوكسلى : هل جاء الانحدار عن القرد ، من ناحية جده أو من ناحية جدته ؟» فصاح هوكسلى يكلم أحد أصدقائه بقوله : «لقد أسلمه الرب بين يدى» ، وصعد ليجيب على السؤال . ويقال انه قال :

« لايحق للمرء أن يخجل من أن جده قرد ، وانما الجد الذى أشعر بالعار منه هو ان كان رجلا مضطرب الذكاء متقلبه ، لايقنع بالنجاح فى مجال عمله ، وانما يقحم نفسه فى امور علمية لايلم بها الماما حقيقيا فيلقى الغموض عليها ببلاغة عديمة الهدف، ويسرح بانتباه سامعيه بعيدا عن جوهر الموضوع بانحراف بلاغى ونداء بارع الى التعصب الدينى » .

هذا هو أحد الاصطدامات العديدة بين الكنيسة والعلم بسبب المذهب الداروينى والتطور الذى استمر اواره فى السنين اللاحقة .

عدلت آراء داروين عن الدين عندما تقدمت به السن . فلما كان شابا ، آمن بفكرة الخليقة الخاصة دون ابداء اى سؤال عبر فى حياته وخطاباته عن اعتقاده بأن الانسان سيكون فى المستقبل البعيد مخلوقا أكثر كمالا عما هو الآن» .

وأضاف داروين يقول :

« أثر فى مصدر آخر للتساؤل عن وجود « الله » يتصل بالعقل وليس بالمشاعر ، على أنه أكثر أهمية . جاء هذا من الصعوبة البالغة ، أو بالحرى من استحالة تصور هذا العالم الشاسع العجيب الذى يشمل الانسان ذا القدرة على النظر الى الماضى والى المستقبل نتيجة الفرصة العمياء أو الحاجة العمياء.

وبينما انا اتأمل هذا ، اشعر بأننى مضطر الى النظر الى كائن اول ذى عقل ذكى الى درجة انه يشبه عقل الانسان . واننى لاستحق أن أوصف بالالحاد . كانت هذه الفكرة قوية فى ذهنى فى حوالى الوقت الذى كتبت فيه «أصل الاجناس» حسبما أستطيع أن أتذكر . ومنذ ذلك الوقت اخذ يضعف تدريجيا مع بعض التغيرات . ولكن عندئذ ينشأ الشك : أمن الممكن أن نثق فى عقل الانسان ، الذى كما اعتقد ، متطور عن عقل كعقل أدنى حيوان ، أمن الممكن أن نثق فيه عندما يستنتج مثل هذه النتائج ؟»

عند ذلك رفع داروين يديه وقال :

« لاادعى اننى القيت اقل ضوء على مثل هذه المسائل فلغز نشأة جميع الكائنات مستحيل الحل بواسطتنا ، واننى كفرد ، يجب أن أقنع بأن أبقى من انصار مذهب عدم كفاية العقل البشرى لفهم الوحى» .

تلا كتاب «اصل الاجناس» سيل من الكتب بقلم داروين السيال ، تناولت مواضيع اكثر تخصصا خططت لتكون ملحقا للتطور بالانتقاء الطبيعى وتكمله وتدعمه ، ذلك التطور الذى قدم بطريقة مفهومة فى كتاب «أصل الاجناس» . فصدر أولا مجلدان صغيران بعنوان «عن شتى الطرق التى تلقح بها الاوركيدات بواسطة الحشرات» ، و «طبائع النباتات المتسلقة» . وبعدهما ظهر مؤلفان ضخمان : «تنوع الحيوانات والنباتات بالاستئناس» ، و «انحدار الانسان والانتقاء بالنسبة للجنس» . وتناولت الكتب التالية التعبير عن العواطف فى الانسان والحيوان ، والنباتات آكلة الحشرات ، وآثار الاخصاب بالتهجين ، وقوة الحركة فى النباتات ، وتكون الفطر النباتى .

تعمد داروين فى كتــاب « آصل الأجناس » أن نخفف من مناقشة موضوع نشأة الانسان ، لانه اعتقد أن اى تأكيد لمرحلة التطور يسبب نبذ نظريته كلها . ومع ذلك فقد قدم كمية ضخمة من الادلة فى «انحدار الانسان» ليشرح أن الجنس البشرى هــو ايضا ناتج عن التطور من صور أدنى .

ومن وجهة نظر الماضى ، كان انطباع داروين لجميع مجالات العلوم العظمى تقريبا ، عميقا ومستمرا فى تعمقه . فقبل علماء الاحياء مذهب التطور العضوى ، وكذلك فعــل علماء طبقــات الارض والكيميائيون وعلماء الفيزياء ، كما قبله علماء الاجنـــاس البشرية والعلماء النفســانيون والمعلمون والفلاســـفة وعلمـــاء الاجتماع ، وحتى علماء التاريخ وعلماء السياسة وفقهاء اللغة . فكتب شارلز الوود Charles Ellwood ، يقول :

« عندما يتأمل المـرء فى الاثر الضـــخم لمؤلف داروين على جميع فروع الفكر البشرى ولاسيما على علوم الاحياء والنفس والاجتماع ، يجد نفسه مضطرا الى استنتاج أن ... يجب اعطاء داروين أسمى مقعد شرفى كاعظم مفكر استثمر أفكاره فى القرن التاسع عشر ، ليس فى انجلترا وحدها وانما فى العالم أجمع . وان الاهمية الاجتماعية لتعاليم داروين قد بدأت فى الدخول الى الافهام» .

ذكر وست West فى كتابته عن «اصــل الاجناس» : « كان الأثر بالغا بحق . فبمجرد تقديم مبدأ جديد حركى وليس ساكنا ، قلب كل فرع للدراسة ، من علم الفلك الى التاريخ ، ومن علم الحفريات الى علم النفس ومن علم الاجنة الى الدين» .

ومن ناحية اخرى ، كانت هناك تطبيقات لنظريات داروين، لاشك فى أنه استاء منها ، مثال ذلك الفاشية التى اســتخدمت فكرة الانتقاء الطبيعى ، أو بقاء الاصلح لتبرر تصفية أجنـــاس

بعينها . وبنفس هذه الطريقة دوفع عن الحروب بين الامم ، بأنها وسيلة لابادة الضعفاء واستمرار بقاء الاقوياء . كذلك حرفت الداروينية بواسطة أنصار الماركسية لتطبيقها على تنازع الطبقات ، كما بررت جماعات الاعمال الوحشية ، بواسطة الداروينية طرق ابادة المجتمعات الصغيرة لنفس الاسباب .

ولما كان داروين دقيق الملاحظة والتجارب بصورة خارقة ، فقد بقى مؤلفه راسخا فى معظم أحواله عندما اتسع نطاق المعارف العلمية . ورغم أن نظرياته قد عدلتها اكتشافات العلوم الحديثة، فانه نجح فى التنبؤ بصورة مدهشة ، بالآراء السائدة الآن فى علم الوراثة والحفريات ومجالات عديدة أخرى .

جاء تقدير آخر لمكانة داروين السامية فى تاريخ العلوم من عالم أحياء عظيم آخر هو جوليان هوكسلى Julian Huxley حفيد زميل داروين وصديقه والمدافع عنه ، فقال جوليان :

« وضع مؤلف داروين ... عالم الحياة فى نطاق القانون الطبيعى . لم يعد من الضرورى أو من الممكن أن نتصور أن كل نوع من الحيوان أو النبات قد خلق خلقا خاصا ، ولا أن طرقه الجميلة البارعة فى الحصول على غذائه أو الفرار من أعدائه ، قد ذكرت فيها قوة خارقة ولا أن هناك غرضا مقصودا وراء هذه العملية الثورية . فاذا كانت فكرة الانتقاء الطبيعى صحيحة ، فان الحيوانات والنباتات والانسان نفسه ، قد صارت الى ماهى عليه الآن بأسباب طبيعية ، عمياء وتلقائية ، كتلك التى تحدث لتشكيل هيئة الجبل ، أو التى تجعل الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس فى أفلاك اهليلجية . ينتج التنازع الاعمى للبقاء وتنتج عملية الوراثة العمياء تلقائيا لانتقاء أكثر الانواع ملاءمة للبقاء ، ولتطور الاجناس نحو التقدم .

مكننا مؤلف داروين من أن نرى مركز الانسان وحضـارتنا الحالية ، فى نور حقيقى . ليس الانسان سلعة فرغ من صنعها، فصار غير قابل للتقدم أكثر من ذلك . ان وراءه تاريخا طويلا ، ليس تاريخا نحو التقهقر والهبوط ، وانما هو نحو الصعود . وأمامه امكان التطور التقدمى أكثر مما هو عليـه . وزيادة على ذلك ، ففى ضوء التطور ، علينا أن نتعلم ان نكون أكثر صبرا . بالقياس الى المليون سنة التى عاشـها الانسـان على الارض ، والالف مليون سنة لتقدم حياته . وبوسعنا أن نتذرع بالصبر عندما يؤكد لنا علماء الفلك أن أمامنا على الاقل ألف مليون سنة أخرى لنتطور فيها تقدميا الى صور سامية جديدة .

١٥ ـ العالم النفسانى للاواعى

سيجموند فرويد Sigmund Frued

تفسير الاحلام

اتفق على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى فى أنه أكثرها غموضا وأعظم لغز بينها ، وأقل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمى . ففى طبيعة الاشياء ، لا مفر من الزوغان وعدم قبول التكهن ، لأن العالم النفسانى يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا . فأية نظرية فى الكيميــاء أو فى علم الفيزياء ، يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة أية نظرية فى علم النفس . ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما .

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها ، فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث . وحتى أينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلمــا فعل فرويد . صاغ فرويد أفكارا ومصطلحات فى محيط المناطق

المجهولة من العقل ، صارت جزءا من حياتنا اليومية . لقد أحس بآثار تعاليمه كل مجال من المعارف - الادب والفن والدين وعلم الاجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ ، وتاريخ حياة الافراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد .

رغم كل ذلك ، هناك بعض الحلاوة والضوء فى هذه التعاليم . وقد أبدى أحد النقاد غير الاوفياء ملاحظته قائلا :

« عندما انتشرت نظريات فرويد ، ظهر أمام الرجل العامى كأعظم مفسد للسرور فى تاريخ الفكر البشرى ، يحول مزاح الانسان ومرحه الى كبت محزن غريب ، ويجد العداوة فى جذور الحب والضغينة فى قلب الرقة ، والزنا بالاقارب فى المحبة البنوية ، والاجرام فى السخاء وكراهية الاب المكبوتة ، كطبيعة بشرية عادية موروثة» .

ومع هذا ، فبسبب فرويد ، تختلف فكرة الناس ، اليوم، عن أنفسهم . يعتقدون أن أفكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوعى ، والاساس الجنسى لاضطراب وظائف الاعصاب ، ووجود الغريزة الجنسية لدى الاطفال وأهميتها ، ووظيفة الاحلام ، وعقدة أوديب ، والكبت والمقاومة وقراءة الافكار ، يعتقدون أن هذه الافكار امور عادية . ثم ان عيوب الانسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية ، تتخذ أهمية جديدة عند النظر اليها من وجهة نظر فرويد . ومن الصعب الآن ادراك مقدار التعصب الذى كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته ، اذ كان ذلك أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين .

عندما ولد فرويد فى فرايبرج Freiberg احدى مدن مورافيا Moravia . لم يكن كتاب « أصل الأجناس » قد ظهر بعد .

كان ذلك فى سـنة ١٨٥٦ . وكان أسلاف فرويد مثل أسـلاف كارل ماركس ، حاخامات ، بيد أن فرويد ، على عكس كارل ماركس ، قال : «بقيت يهوديا» . انتقل فرويد وهو فى الرابعة من عمره ، مع أسرته ، الى فينا حيث قضى كل صباه. وتبعا لأهم كاتب لتاريخ حياته ارنست جونز Ernest Jones يدين لوالده تاجر الصوف ، «بارتيابه الحكيم فى تقلبات الحياة غير المؤكد ، وعادته فى ذكر مبدأ اخلاقى برواية قصة يهودية ، وعدم اعتقاده فى امور الدين» . وعاشت والدة فرويد حتى بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، شخصية جمة النشاط وافرة الحيوية . وكان سيجموند هو مولودها البكر وابنها المحبب . وبعد ذلك كتب يقول : «أن الانسان المتمتع بالحظوة غير المتنازع فيها لدى أمه ، يحس طول حياته بمشاعر القاهر ، وهى الثقة بالنجاح الذى يحث غالبا على النجاح الحقيقى» .

أولع فرويد فى أول حياته بنظريات داروين لانه أحس بأنها «توحى بآمال فى تقدم خارق لمفهومنا عن العالم» . واذ رغب فى أن يكون طبيبا ، التحق بجامعة فينا ليدرس الطب ، ونال البكالوريوس فى سنة ١٨٨١ . واذ عين طبيب امتياز مقيما فى المستشفى العام ، استمر فى دراسة علم الأعصاب وتشريح المخ . وبعد بضع سنوات ، حدث التغير فى حظه الذى انتهى برسوخ شهرته العالمية . صحبه زميل جائل الى باريس ليعمل تحت امرة جان شاركو Jean Charcot ، الذى كان وقتئذ أستاذا فرنسيا واسع الشهرة فى علم الامراض واخصائيا فى الاعصاب فحظى بالاتصال المباشر بأعمال شاركو فى الهستيريا وعلاجه لها بالتنويم الايحائى ، ومما أعجب فرويد برهنة شاركو على «صحة الظواهر الهستيرية ، وكثرة حدوثها للرجال ، واحداث الشلل الهستيرى وانقباض العضلات الهستيرى بالتنويم الايحائى » ، ومشابهتها فى مظهرها عموما بنوبات الهستيريا الحقيقية .

غير انه لما رجع فرويد الى فينا ، لم يستطع اقناع زملائه الاطباء بأى اساس علمى لعلاج الاضطرابات العصبية بطرق التنويم المغناطيسي . والادهى من ذلك انه عوقب على آرائه المتطرفة باستبعاده من معمل تشريح المخ . ومنذ ذلك الوقت صار شخصيه منعزلة وانسحب من الحياة الاكاديمية ، وانقطع عن حضور اجتماعات جمعيات العلماء . وأثناء ممارسته الخاصة للطب ، استمر عدة سنوات يجرى التجارب بالتنويم المغناطيسى، ولكنه هجر تدريجيا اذ لم يخضع لتجاربه غير القليل من الناس، ولان التنويم المغناطيسى نفسه ينتج أحيانا آثارا مفجعة على الشخصية التى ينومها . فاستعاض عن ذلك بتطوير الطرق المعروفة باسم «المشاركة الحرة» التى صارت منذ ذلك الوقت مهنةالتحليل النفسى الاصلى .

لاجدال فى أن فرويد هو مؤسس طب الامراض العقلية الحديث . فقبل عصره كان طب الامراض العقلية يتناول أغراض الجنون ، مثل انشقاق الانف ومرض العقل الجنونى الهبوطى ، الذى يحتاج الى العزل فى مستشفى الامراض العقلية . بدأ فرويد عمله الاكلينيكى بعلاج حالات الكبت والتنازع العصبى . وسرعان مااستنتج أن مثل هذه التنازعات ليست قاصرة على مرضى الاعصاب ، بل تصيب أيضا سليمى العقول . وعلاوة على ذلك ، ليست الاضطرابات العصبية أمراضا بالمعنى الصحيح ، بل حالات نفسية للعقل . وكانت المشكلة الكبرى هى كيفية علاج هذه الاضطرابات العقلية الواسعة الانتشار . وبناء على ملاحظاته وتجاربه وممارسته علاج كثير من مرضى فيينا ، بنى أسس التحليل النفسى فى أواخر ذلك القرن .

كان فرويد من أعظم كتاب العلوم الكثيرى التصانيف فى عصرنا . فلايمكن أن نجد مجموعة الافكار الجديدة والآراء

السيكولوجية التى خرجت من قلمه ، فى اى كتاب فرد او صحيفة واحدة . ومن المحتمل انه كان ينظر الى أول مؤلف له ، وهو المؤلف العظيم «تفسير الاحلام» ، الذى صدر فى سنه ١٩٠٠ كأكثر مؤلف حبيب الى نفسه ، ويضم جميع الملاحظات والآراء الاساسية تقريبا . وفى أحد مؤلفاته الاولى بعنوان «دراسات فى الهستيريا» الذى نشر فى سنة ١٨٩٥ ، ذكر اعتقاده بأن الاضطرابات الجنسية هى «العامل الاساسى واهم أسباب الاضطرابات العصبية والاضطرابات العصبية النفسية» . وهى احد أحجار الزاوية فى نظرية التحليل النفسى . وفى السنوات القليلة التالية ، كتب فرويد آراءه فى المقاومة وانتقال الافكار ومشاكل الجنس فى عهد الطفولة ، والعلاقات بين الذكريات البغيضة والاوهام ، وميكانيكية الدفاع والكبت .

يبين ملخص موجز للنظريات الاساسية ، شيئا من تعقيد التحليل النفسى . فأولا ، ليست كلمة الامراض العقلية وكلمة الامراض العقلية النفسية مترادفتين . يمكن اعتبار الامراض العقلية النفسية فرعا من الامراض العقلية وتطبق عموما على أشد حالات اضطرابات الشخصية صعوبة . ثم يمكن تعريف التحليل النفسى بأنه فن علاجى لمداواة الاضطرابات العصبية والنفسية . وتبعا لتقرير حديث ، يوجد مجرد ثلثمائة اخصائى فى التحليل النفسى من بين اربعة آلاف طبيب نفسانى فى الولايات المتحدة الامريكية .

لم يعجب العلاج الفردى فرويد الا نادرا ، واعتبر حالات سوء التكوين النفسى فى الافراد ، كأعراض الخلل الاقتصادى والاجتماعى والثقافى للعالم المعاصر . كان غرضه مهاجمة المرض جذريا .

يتفق معظم النقاد على ان حق فرويد فى الشهرة الدائرة

يعتمد على اكتشافه وارتياده للعقل غير الواعي . فقارن عقل الانسان بجبل جليد ثمانية أتساعه مغمـــورة تحت السطح فقال أن معظم العقل مختف داخل اللاواعي . وتوجـد تحت السـطح دوافـع ومشاعر واغراض ، لايخفيها المرء عن غيره فحسب ، بل وعن نفسه أيضا . ويقول علم النفس الفرويدى ان العقـــل اللاواعى هــو المسيطر ، بينمـا النشــاط الواعى مختصر الى مركز تابع ، واذ توصلنا الى فهم الاعماق الكبيرة وغير المعروفة للعقل اللاواعى ، عرفنا الطبيعة الداخلية للانسان . فقال فرويد ان معظم تفكيرنا لاواع ، ولايصير واعيا الا صدفة . والعقل اللاواعي هو مصــــدر الاضطرابات العصبية لان الفرد يحاول أن يزيح ذكرياته البغيضة ورغبــاته الباطلة الى تلك المنطقة ، ولكنــه لاينجح الا فى حفظهــا للمتاعب المستقبلة .

قسم فرويد النشاط الذهنى للفرد على انه يحدث على ثلاثة مســـتويات أطلق عليهـــا : Id (١) الايـــد ، والذات ego والذات السامية superego . والايد ذات أهمية أولى . ويقول فرويد ان «منطقة عمل الايد هى الجزء المظلم غير الممكن الوصـــول اليه من شخصيتنا. والقليل الذى عرفناه عنها، عرفناه عن طريق دراسة الاحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية» . والايد هى مركز الغرائز والانفعالات البدائيـــة ، وتمتد الى الوراء ، الى الماضى الحيوانى ، وهى حيوانية وجنسية فى طبيعتها . انها غــير واعية . ويستطرد فرويد فيقول : «تحتـــوى الايد على كل شيء موروث وكل ماهو موجود عند الميــلاد، وكل ماهو ثابت فى تكوين الشخص » . الايد عمياء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتها وملذاتها دون تقـدير للعـــواقب . وبنفس ألفـــاظ ثوماس

---

(١) Id لفظ مختصر من كلمة Idioplasm وهى الوحدة الوراثية أو البلازما الوراثية أو أداة الوراثة فى النواة .

مان Thomas Mann « لا تعـــرف أية قيم ولا خـــيرا ولا شرا ولا أخلاقا » .

الطفل الحديث الولادة نموذ الايد . وبالتدريج تنمو الذات من الايد أثناء نمو الطفل . وبدلا من أن تكون الذات منقادة تماما بمبدأ اللذة ، يحكمها مبدأ الحقيقة . تعي الذات العالم حـولها مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد ، ان الذات هي الوســيط «بين مطالب الايـد الطائشة وتحريم العالم الخارجي» . وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة أن تحاشي العقاب أو حتى صيانة النفس ، قد تعتمد على مثل هذا الكبت . وقد ينتج عن الصراع بين الذات والابد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد .

وأخيرا ، هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية ، وهو الذات الســامية superego ، التي يمـكن التوســع في تعريفهـا بالوعي . وكتب أ.أ. بريل A.A. Brill ، وهـو أعظم أنصار فرويد في أمريكا ، كتب يقول :

« الذات السامية أرقى تطور ذهني يمكن أن يصـل اليـه الانسان ، وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التي يطبعها الوالدان في الطفـل والبـدائل الابوية . ويتوقف الاحساس بالوعي كلية على نمو الذات السامية» .

وتشبه الذات السامية الايد في كونها غير واعية ، وكلتاهما في صراع دائم بينما تعمـل الذات حـكما بينهما . وتكمن المثـل الاخلاقية وقواعد السلوك في الذات السامية .

عندما تكون الايد والذات والذات السامية في انسجام معقول، يكون الفرد طيب المزاج سعيدا . أما اذا صرحت الذات للايد بخرق

القوانين ، احدثت الذات السامية قلقا واحساسا بالاثم وغيرهـا من مظاهر الوعى ..

هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد . أوجده فرويد ، وهو نظريته عن الشهوة الجامحة libidoo ، فيقول ان جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من «النشاط النفسي» اصطلح على تسميته libido ، اى الشهوة الجامحة « جوهر مذهب التحليل النفسي» . ويعتبر جميع مايتعلمه المرء من ثقافة وفن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة . وبينما يشار الى هذه الشهوة بأنها نشاط جنسي ، فالواقع أن كلمة «جنسي» تستعمل فى معنى واسع جدا . فتتضمن فى حالة الاطفال الحديثى الولادة اعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبزازة والتبرز . وفى السنين اللاحقة ، قد تنتقل الشهوة الى شخص آخر عن طريق الزواج ، وتتخذ صورة انحراف جنسى ، أو يعبر عنها بخلق فنى أو ادبى أو موسيقى ـ وهذه عملية تعرف باسم «الاحلال» . والغريزة الجنسية فى رأى فرويد ، هى اعظم مصدر للعمل الخلاق .

يقرر فرويد فى أعظم نظريات التحلبل النفسي جدلا ، أنه تحت تأثير الشهوة الجنسية ، تنمو فى الطفل احساسات جنسية نحو والديه مبتدئا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدى امه ، فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه ، وعندما تتقدم به السن ، ولكن فى سن مبكرة ، تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه ، بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له . أما الطفلة الانثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع فى حب أبيها وتصير الام موضع كراهيتها ومنافسة لها . وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذكر ، يطلق عليها اسم «عقدة أوديب» التى أخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة

«أوديب» الذى قتل اباه وتزوج أمه . وقال فرويد ، ان عقـدة أوديب موروثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم فى ثورات الغيرة . وعندما يصل الشخص الطبيعى الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الاوديبية . أما الافراد الضعاف فقد لاينجحون اطـلاقا فى قطـع الصـلة بالابوين ، وبذا ينقـادون الى سلسـلة من الاضطرابات النفسية .

الواقع أن فرويد قرر يقول : «ان الاضطرابات النفسية ، بدون استثناء ، اضطرابات للوظيفة الجنسية» . وزيادة على هذا، فلايمكن القاء اللوم على الاضـطرابات العصـبية فيمـا يختص بالزيجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين . بيد أنه يمكن أن تعزى كل هذه الى العقد الجنسية للطفولة المبكرة . وبتطبيق نظريه على مجال علم الأجناس البشرية ، استنتج فرويد فى كتـابه « الشـعارات والمنبـوذين Totem a Taboo » أن الطبيعة والاساطير الدينية للانسان البدائى نتيجة لعقد الاب والام. وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الاب . وبعد تحاليل مفصلة لمئات الحالات التى جاءته للعلاج ، رفع الغريزة الجنسية والرغبات الجنسية الى دور بالغ الشأن فى تكوين الشخصية ، كما جعلهما السبب الرئيسى فى الاضطرابات العصبية . وهذا حكم رفضه بعض مشاهير اخصائيى التحليل النفسى ، كمـا سنبين فيما بعد .

ولما أجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة، فانه يطوى نفسه على كثير من الكبت بطريقة غير واعيـة . واذا استخدمنا مصطلح فرويد : ينجح وعى المرء فى منع «قوى اللاوعى المظلمة» التى كتبت ومنعت من الظهور مرة ثانية . ورغم هـذا فان الاشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية ، قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هـذه الرقابة . فيقول

فرويد : «ان من وظيفة العــلاج بالتحــليل النفسى أن يكتشف حالات الكبت ويحل محلها حالات الحكم الصحيح التى قد ينتج عنها اما القبول واما نبذ ماسبق رفضه . وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة أن يحاول المريض منع اكتشاف كبته . ويطلق فرويد على هذه المجهودات «مقاومات» ويهــدف الطبيب الى التغلب عليها .

نعرف الآن تلك الطريقة التى ابتكرها فرويد لتناول حالات الكبت والمقاومات ، تعرف باسم «التسلسل الحر للافكار» ـ سيل من حديث العقل الواعى بواسطة مريض راقد على سرير اخصائى التحليل النفسى فى حجرة خافتة الضوء . يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور فى رأسه بينما يتوقف عن اعطاء اى اتجاه واع لأفكاره» . ويقرر فرويد أن طريقة التسلسـل الحـر للافكار هى الطريقة الفعالة الوحيدة لعلاج اضطراب الاعصاب ، وقد حققت ماكان ينتظر منها ، وهو اظهار المادة المكبوتة الى الصورة الواعية، تلك المادة التى احتجزتها المقاومات» وقــد وصف بريل طريقــة فرويد مع المرضى بقوله : «حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واع ويستسلموا الى التركيز الهادىء ويتتبعوا أحــداثهم الذهنية التلقائية ، ويفضوا اليه بكل شيء . وبهذه الطريقة حصل اخيرا على تلك الافكار المتسلسلة فى حرية ، والتى تقـود الى أصــل الاعراض» . وهذه المادة المنسية التى يستخرجها المريض من العقل غير الواعى بعد مدة ربما تصل الى شهور من علاج التحليل النفسى، تمثل عادة شيئا مؤلما مقيتا ومخيفا وذميما من الماضى ، وهى مواد يمقت المريض أن يتذكرها بوعى .

لابد ، فى مثل هذه العملية ، أن تحدث تلك الذكريات الهائمة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع . اذن ، يتوقف كل شيء على مقدرة الطبيب على تحليل مادته نفسيا ، تلك المادة التى،

كما أشار مختلف النقاد، يمكن تفسيرها بعدد لانهائي من الطرق. وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة اخصائي التحليل النفسي على جانب كبير من الاهمية الاساسية .

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسي اكتشف ماأطلق عليه اسم «عامل ذى أهمية لايحلم بها» ، وهو علاقة عاطفية شديدة بين المريض والطبيب المحلل وهذا يسمى «قراءة الافكار أو انتقال الافكار» .

لايقنع المريض بالنظر الى الطبيب المحلل النفساني فى ضوء الحقيقة كمساعد وناصح.. بل على العكس يرى المريض فى طبيبة النفساني اعادة شخص على شىء من الاهمية فى طفولته أو ماضيه. ويعنى بهذه الاعادة « اعادة التجميع » – ونتيجة لهذا ينقل اليه مشاعر وانفعالات تنطبق بلاشك على هذا النموذج .

«يمكن أن تتفاوت قراءة الافكار بين نهايتين احداهما محبة عاطفية ذات صفة جنسية كاملة ، والاخرى تعبير منفلت الزمام من التحدى والكراهية المريرتين» . وفى هذا الموقف يكون الطبيب النفسانى المحلل «كقاعدة ، فى موضع أحد والدى المريض ، أبيه أو أمه» . ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الافكار «خير أداة للعلاج النفسى» – بيد أن تناولها يظل أصعب وأهم جزء فى فن التجميل». ويقرر فرويد أن المشكلة «تحل باقناع المريض بأنه يستعيد ممارسة علاقات عاطفية نشأت فى طفولته المبكرة» .

ومن انطرق الثمرة الأخرى ، التى ابتكرها فرويد للوصول الى الصراعات والعواطف الداخلية ، تحليل الأحلام ، الذى كان فرويد أول من توصل اليه فقيل عصره اعتبرت الأحلام بدون معنى أو هدف. كان كتابه «تفسير الأحلام»، وال محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة . وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر

ذلك الكتاب بأحدى وثلاثين سـنة ، «بأنه يتضـمن ، حتى بعد حكمى فى هذا اليوم الحاضر، أعظم الاكتشافات التى ساعده الحظ فى ايجادها ، واكثرها قيمة . » وتبعا لفرويد : «يحق لنا ان نؤكد أن الحلم هو الانجاز المستمر لرغبة مكتوبه » يمثل كل حلم دراما فى العالم الداخلى « فا لأحلام دائما نتيجة صراع . وقال فرويد : و «الحلم هو حارس النوم » . ووظيفته مساعدة النوم ، لا ازعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها .

عالم الأحلام ، حسـب رأى فرويد ، واقع تحت سـيطرة العقل غير الواعى بالوحدة الوراثية (الايـد) . والأحلام هامة لاخصـائى التحليل النفسى ، لأنها تقوده الى العقل غير الواعى للمريض . وتكمن ، فى العقل اللاواعى ، جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحيـاة الواعية بواسـطة الذات والذات السامية . والرغبات البهيمية موجودة دائما تحت السطح، وتدفع نفسها الى الظهـور فى الاحـلام ، وحتى فى النوم ، تقف كل من الذات والذات السامية ، فى موقف الحراسة كرقيبتين . لهذا السبب كانت معانى الاحلام غير واضحة دائما ، وانما يكون التعبير عنها فى صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها . وكرموز لايمكن اخذها حرفيا الا ، بالطبع فى الاحلام البسيطة للاطفال . ويحتوى كتاب «تفسير الاحلام» عدة أمثلة حللهـا فرويد تحليلا نفسيا .

ومن الاعمال التعبـيرية للعقل اللاواعى ، اخطـاء التهجى وزلات اللسان ، وحيل شاردى الذهن . ويقول فرويد «بنفس الطريقة ينتفع اخصائى التحليل النفسى من تفسير الاحلام ، كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والاخطاء التى يقوم بها الناس ــ التى يطلق عليها اسم أفعال عارضة» . فى سنة ١٩٠٤ ، فحص فرويد ذلك الموضوع فى كتابه «العلاج النفسى للحياة اليومية» .

يقرر فى ذلك المؤلف ، و «ليست هذه الظواهر وليدة الصدفة .. فلها معنى ويمكن تفسيرها . ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود انفعالات ونوايا مكبوتة» . فنسيان المرء لاسم ما : معناه انه يكره الشخص المسمى بذلك الاسم . وعندما يفوت القطار شخصا بسبب التباس فى جدول المواعيد ، فقد يدل ذلك على انه لايرغب فى ركوبه . والزوج الذى يفقد مفتاح بيته أو ينساه ، قد يكون غير سعيد فى بيته ولايرغب فى العودة اليه . يمكن لدراسة مثل هذه الهفوات أن تقود اخصائى التحليل النفسى الى متاهات العقل اللاواعى .

يمكن الحصول على نفس المنطلق من النكات التى سماها فرويد «خير صمام أمن أنتجه الانسان العصرى ،» اذ من خلالها نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التى يريدنا المجتمع المؤدب أن نخفيها .

وربما كان بسبب احساس محذر سابق ، او تخلص من الاوهام متزايد ، أو منتهى التشاؤم ، ان صار فرويد ، فى أواخر أيام حياته ، مشغولا «بغريزة الموت» . انتهى به الأمر الى اعتبار هذه الفكرة على قدم المساواة فى الاهمية مع « الغريزة الجنسية » فقرر فرويد أن هناك غريزة موت تسوق جميع المواد الحية الى العودة الى الحالة غير العضوية التى جاءت منها . وتبعا لهذا الرأى تتجاذب المرء باستمرار قوتان : قوة الحث على الحياة وهى الغريزة الجنسية ، وقوة مضادة أخرى هى الحث على الهلاك أو الابادة ، وهى غريزة الموت . وبطبيعة الحال ، تتغلب فى النهاية غريزة الموت . وهذه الغريزة هى المسئولة عن الحرب وعن أنواع السادية كالتعصب ضد الاجناس والطبقات والمتعة الشديدة فى المحاكمات الاجرامية ومصارعة الثيران ، والاعدام بدون محاكمة .

وبالاختصار، كل ما سبق ذكره هو النقط الرئيسية فى نظرية

فرويد . وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين أو ثلاثة معسكرات متعارضة ، يؤيد البعض فرويد ، ويعارضه بعض آخر. وحتى تلاميذه ، عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته فى الخمسين سنة الماضية ، وها هو الفريد ادلر : Alfred Adler ، أحد اتباعه المبكرين ، ينشق عن المعسكر الفرويدى لاعتقاده ان فرويد اكد الغرائز الجنسية أكثر من اللازم . وكمذهب بديل ، أخذ أدلر يعلم أن رغبة كل انسان فى اثبات تفوقه هى الينبوع الاساسى فى السلوك البشرى . وقد انشأ فكرة «مركب النقص» الذى يضطر الفرد الى النضال لابراز نفسه فى نشاط ما . ومن مشاهير المنشقين الآخرين : كارل جونج Karl Jung احد مواطنى مدينة زيوريخ ، الذى حاول أيضا ان يقلل من دور الجنس. قسم جونج البشرية الى نوعين نفسانيين : أحدهما مقلوب من الداخل الى الخارج ، والثانى مقلوب من الظاهر الى الباطن ، ولو انه ادرك أن كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد ، أكد جونج عوامل الوراثة فى تكوين الشخصية . وعلى العموم ، فان نقاد فرويد يخالفونه فى بعض النقاط ، مثل اصراره على الاهمية الاولى للاضطرابات النفسية فى عهد الطفولة ، واتهامه الناس بأن تتحكم فيهم الغرائز البدائية الصارمة ، وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسى فى تكوين الشخصية . كذلك يخالفه البعض فى اعتقاده ان التسلسل الحر للافكار طريقة لاتخطىء لارتياد العقل الباطن ، مبرزين ، بنوع خاص ، صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة .

ومع ذلك ، فكما لاحظ أحد علماء النفس :

«لم تقلل التغيرات ولا التطورات التى حدثت فى خلال ستين عاما ، بحال ما ، من مركز فرويد أو نفوذه . لقد فتح مملكة العقل الباطن ، وابان كيف انه يساعد فى جعلنا على مانحن عليه ، وكيف

نصل الى ذلك . وكان لابـد لكثير من آرائه واستنتاجاته من أن يعدلها من يأتى بعده فى ضوء المزيد من التجارب . ويمكنك أن تقول ان خلفه كانوا يكتبون «عهدا جديدا» فى طب الامراض العقلية ، ولكن سيجموند فرويد كتب «العهد القديم» وسيظل عمله أساسا فى ذلك المجال» .

أنا ندين لفرويد بالكثير من نظرتنا الحديثة الى الجنوب . وهناك ميـل متـزايد الى تقـرير أن « مرضى الاضـطرابات العقلية مثلنا ؛ بل وأكثر من كونهم مثلنا» . وقد أكد الكسندر رايد مارتين Alexander Reid Martin ، انه : « سـواء أعلن أو لـم يعلن ، فان جميع مسـتشفيات الامـراض العقليـة والامراض النفسية . تستخدم عنـاصر علم النفس الفـرويدى ونظرياته الاساسية . وماكان يعتبر من قبل عالما غـير معـروف ومخيفا وغامضا وعديم الهدف وبلامعنى ، أصبح عن طريق فرويد عالما نيرا وزاخرا بالمعانى وجذابـا وممتعا ومعترفا به ، ليس فى الطب فحسب ، بل وفى جميع العلوم الاجتماعية .

اوحظ اثر الفكر الفرويدى على الادب والفن بنفس القدر . ففى عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصـور الادبية الاخرى ، ازدهرت آراء فرويد فى السنوات الحديثة . وقد أبدى برنار دى فوتو Bernard de Voto رأيه بقوله : «مامن عـالم طبيعى آخر كان له على الادب مثل ذلك الاثر القوى والواسـع الانتشار» فلم يكن اثره أقل عمقا على التصوير والنحت وعـالم الفن عموما .

من الصعب احصاء ماأسهمت به عبقرية فرويد فى معارفنا من نظريات وآراء متعددة النواحى ، وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعةاكتشافاته المتعددة الاتجاهات . وقد قام

الكاتب الانجليزى روبرت هاملتون Robert Hamilton بمحاولة ، فاستنتج مايأتى :

« وضع فرويد علم النفس فى الخريطة . كان عالما مكتشفا عظيما ، ويعزى الكثير من نجاحه الى طرافته واسلوبه الادبى . ورغم كون طريقته لاتعتمد على شيء ملموس ، فما من طريقة خارج الادب البحت كانت أكثر امتاعا وطرافة وذات أسلوب جذاب . لقد جعل العالم يفكر نفسيا — وهذه ضرورة أساسية لعصرنا ، واجبر الناس على ان يسألوا انفسهم اسئلة حيوية لصالحهم البشرى . فمن قضايا علم النفس الاكاديمى العقيم للقرن التاسع عشر ، أنتج النظريات المضادة فى التحليل النفسى بسلبياتها المظلمة .

تناول احد مشاهير الطب النفسى الأمريكيين، وهو فريدريك ورثام Frederic Wertham ، من وجهة نظر أخرى ، فكتب يقول :

« يجب على المرء أن يوضح انه زيادة على الكثير من الحقائق الاكلينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد ، فانه أحدث ثلاثة تغييرات فى التمهيد لدراسة الشخصية والعلاج العقلى . أولها الكلام عن العمليات السيكولوجية جميعا ، والتفكير فيها بمنطق العلوم الطبيعية . لم يكن هذا ممكنا الا عندما قدم فرويد الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه. وثانيها تقديمه لبعد جديد للعلاج السيكولوجى : الطفولة ، قبل فرويد مارسوا طب الامراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم — الذى لم يكن طفلا قط . وثالثها هو افتتاح الفهم النوعى للغريزة الجنسية . كان الاكتشاف الجديد هنا ، هو انه ليس للاطفال حياة جنسية وانما للغريزة الجنسية طفولة » .

أصدر أ . أو . تانسلى A.O. Tansley حكما مماثلا آخر ، فى تقرير عن موت شخص أعد للجمعية الملكية بلندن :

«تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر أنه كان يفحص مجالا لم يرتده أحد قبله اطلاقا ، وهو منطقه من العقل البشرى لم ينفذ اليها أحد من قبل ، واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير ، أو انها انحرافات فاسدة ، او تجاهلها العلماء لانها تقع تحت أقوى المحرمات البشرية . ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال ــ فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لاواعية بالعقل ، ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح فى سلسلة الاحداث العقلية الواعية .

وأخيرا قررت وينفريد أوفر هولستر Winfred Overholster انه : « هناك سبب قوى للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن ، سيعتبر فرويد فى مصاف كوبرنيكوس ونيوتن ، كأحد الرجال الذين فتحوا أفقا جديدا من آفاق الفكر . فمن المؤكد انه فى عصرنا هذا ، لم يلق أحد ضوءا على أعماق عقل الانسان ، كما فعل فرويد » .

قضى فرويد آخر شهور حياته فى المنفى . فبعد احتلال النازى للنمسا ، اضطر الى مغادرة فينا فى سنة ١٩٣٨ ، فمنحته انجلترا حق اللجوء ، ولكن سرطان الفم تسبب فى موته فى سبتمبر ١٩٣٩ ، بعد ذلك بأكثر قليلا من سنة .

١٦ ـ شبين العصر الذرى

ألبرت أينشتين Albert Einstein

النسبية : نظرياتها الخاصة والعامة

كان البرت أينشتين أحد الاشخاص النادرين فى التاريخ ، اذ نجح فى أن يصير اسطورة نسب بطولية ابان حياته . فكلما بدت آراؤه غامضة على العلمانيين من الشعب ، زادت غرابتها وزادت رؤيته يتكلم من علو أوليمبى بعيد . وكما لاحظ برتراند راسل Bertrand Russel بحق : « يعرف كل شخص أن أينشتين قد فعل شيئا مدهشا ، بينما يعرف القليلون بالضبط ذلك الذى فعله » . ولكى نعلم ، ولو بصفة غير دقيقة ، انه قلما يوجد عشرة أشخاص فى العالم كله يفهمون تماما نظريات أينشتين عن الكون ، التى تتحدى وتخدع الالوف ان لم يكن الملايين الذين يحاولون فهم مايقوله ساحر الرياضيات العظيم ذاك .

يبدأ عدم قابلية فهم نظريات أينشتين من الطبيعة المعقدة والخارقة لمجال عمله . وذكرت . أ . بريدجز T.E. Bridges ، أن عالما انجليزيا غير معروف الاسم وصف الموقف كما يلى :

« يتناول مذهب اينشتين هذا ، النسبة بين الاحداث الطبيعية والرياضية ، اذن فلايمكن شرحها الا بمصطلحات رياضية . ومن المستحيل تقديمها بأية صورة اخرى يمكن ان يفهمها أولئك الذين لايلمون بالجبر الماما متقدما » .

ويعبر جورج و . جراى George W. Gray بوجهة نظر مشابهة فيقول :

« بما أن مؤلف النظرية النسبية ، قدمها بلغة رياضية . واذا أردنا الدقة فى التعبير ، فلايمكن التعبير عنها بطريقة غير تلك، فان هناك زعما معينا فى كل محاولة لترجمتها الى اللغة الدارجة، كما تمكن محاولة ترجمة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن Beethoven على السكسية (Saxophone) .

ومع ذلك ، فربما أمكن اقتراح بعض مظاهر معينة من عالم اينشتين دون الالتجاء الى الرموز الرياضية . وياله من عالم خيالى يقلب رأسا على عقب تلك الافكار التى ظلت معترفا بها لعدة قرون، «وهذا عصيد غريب يطلب من الرجل العامى أن يهضمه» . فمثلا، يطلب منا أن نعترف بأفكار لا يمكن تصديقها ، مثل : الفضاء مقوس ، وأقرب بعد بين نقطتين ليس خطا مستقيما ، والكون محدود ولكن بغير حدود ، والخطوط المتوازية تتلاقى أخيرا ، والاشعة الضوئية تسير فى خطوط منحنية ، والزمن نسبى ولايمكن قياسه بطريقة واحدة فى كل مكان ، وأن قياس الاطوال يختلف باختلاف السرعة، وأن الارض اسطوانية الشكل وليست كروية ، والجسم المتحرك ينكمش حجما ، ولكن كتلته تزيد ، وأن هناك بعدا رابعا هو الزمن، علاوة على الابعاد الثلاثة المألوفة وهى الطول والعرض والارتفاع .

رغم أن أينشتين قد أسهم بنظريات لاتحصى فى الرياضيات، فان شهرته تستند أولا وقبل كل شىء على نظرية النسبية . وهذا عمل جعل بانيش هوفمان Banest Hoffman

يستنتج أن له «صفة أثرية وضعت مؤلفه بحق بين عظماء العلماء في جميع العصور» في الصحبة المختارة لاسحق نيوتن وارشميدس. أطلقت هذه النظرية بمتناقضاتها المذهلة ونجاحها الظاهر ، أطلقت مخيلة الجمهور» .

بدأت ثورة اينشتين في سنة ١٩٠٥ ، فظهرت في صحيفة المانية عنوانها «التقويم السنوى لعلم الطبيعة Annalen der Physik في ثلاثين صفحة تحمل العنوان غير المثير « عن الديناميكا الكهربية للاجسام المتحركة » . وكان أينشتين وقتذاك في السادسة والعشرين من عمره ، يعمل موظفا بسيطا في ادارة تسجيل المخترعات السويسرية . ولد في أسرة يهودية من الطبقة المتوسطة بمدينة أولم Ulm في بافاريا ، سنة ١٨٧٩ . وعندما كان تلميذا ، لم يكن يجيد شيئا من الدروس غير الرياضيات ، ذلك المجال الذى أبدى فيه دليلا مبكرا على النبوغ . ولما ساءت الحالة المالية لاسرته ، اضطر الى أن يعول نفسه بنفسه وهو في الخامسة عشرة ، فهاجر الى سويسرا حيث استطاع الاستمرار في دراسته العلمية بأكاديمية الفنون التكنولوجية في زيوريخ Zurich وتزوج من زميلة له في الأكاديمية وصار مواطنا سويسريا . ولما ضن عليه بما كان يصبو اليه وهو أن يكون أستاذا جامعيا، ولكى يكسب عيشه استقر في عمل يقوم فيه بعمل التقارير الاولية وتسجيل طلبات المخترعين لتسجيل اختراعاتهم . وكان يشغل وقت فراغه من العمل في دراسة مؤلفات الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات . وسرعان مااستعد لاخراج طوفان من الافكار الطريفة في الفيزياء ، وقدر له أن يلقى ردود فعل بعيدة المدى .

قدم اينشتين في صحيفته لسنة ١٩٠٥ ، النظرية الخاصة للنسبية متحديا أفكار الانسان السائدة عن الزمن وعن الفضاء

وعن المادة والطاقة . وضعت أسس هـذه النظرية فى موضعين اساسيين . الاول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية . وهناك مثل مألوف لهذه النظرية فى القطار المتحرك أو السفينة المتحركة . فالشخص الجالس فى قطار ذى نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة ، وبه قليل من الضوضاء ، لاتكون عنده أية فكرة عن السرعة ، ولا عن اتجاه سير القطار ، وقد لا يشعر اطلاقا بأن القطار يتحرك . والشخص الموجود فى سفينة مقفلة النوافذ ، يكون فى نفس الموقف . لانشعر بالحركة الا بمصطلحات نسبية اى بالنسبة لاجسام اخرى . وعلى نطاق أوسع ، فان الحركة الامامية للارض لايمكن الاحساس بها ان لم يكن هناك اجرام سماوية لعمل مقارنة .

أما الفرض الثانى لأينشتين فهو أن سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره . فسرعة الضوء البالغة ١٨٦٠٠٠ ميل/فى الثانية ثابتة دائما فى اى مكان على سطح الارض ولاتتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه . فمثلا ، فى قطار متحرك ، يسير الضوء بنفس السرعة تماما التى يسير بها خارج القطار . ومامن قوة تؤثر عليه فتجعله اسرع أو ابطأ . وزيادة على ذلك ، مامن شىء يسير بسرعة اكبر من سرعة الضوء رغم أن الالكترونات تقترب كثيرا من هذه السرعة . والواقع أن الضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير فى الطبيعة كلها .

قام العالمان الامريكيان ميتشيلسون Michelson ومورلى Morley فى سنة ١٨٨٧ بتجربتهما الشهيرة التى وضعت أساس نظرية اينشتين عن الضوء ، وبنى جهاز بالغ الدقة لقياس سرعة الضوء بدرجة عالية من الدقة . وضعت أنبوبتان طول كل منهما ميل ، متعامدتين . احداهما موضوعة فى اتجاه دوران الارض حول الشمس ، والثانية فى عكس اتجاه حركة

الارض ووضعت مرآة عند نهاية كل أنبوبة . وأطلق شعاع ضوئى فى كلتا الانبوبنين فى وقت واحد . ولما كان الاثير غير المرئى يملأ كل فضاء لاتشغله اجسام صلبة ، فان أحد الشعاعين الضوئيين يشبه سباحا يعوم ضد التيار ، بينما يقارن الشعاع الآخر بسباح آخر يعوم فى اتجاه التيار . ولدهشة وذهول العالمين ارتد الشعاعان معا فى نفس اللحظة . فاعتبرت هذه التجربة فاشلة .

اجابت صحيفة اينشتين فى سنة ١٩٠٥ على السؤال الذى حير مينشيلسون ومورلى وزملاءهما من علماء الطبيعة . لم يعمل حساب وجود الاثير ، والواقع أن الانبوبتين قاستا سرعة الضوء قياسا صحيحا ، والنقطة التى استنتجها أينشتين هى أن الضوء يسير دائما بنفس السرعة ، مهما تكن الظروف التى يقاس فيها . ولاتؤثر حركة الارض بالنسبة الى الشمس ، على سرعة الضوء .

وعلى عكس تعاليم نيوتن ، أكثر أينشتين أنه ليس هناك شىء يسمى «حركة مطلقة» ، وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم فى الفضاء عديمة المعنى . فالحركة هى الحالة الطبيعية لجميع الاشياء . لايوجد فى أى مكان على سطح الارض أو فى الكون شىء ما فى حالة سكون تام أو سكون مطلق . فالحركة مستمرة فى جميع انحاء عالمنا غير الساكن ، من الذرة المتناهية فى الصغر ، الى أضخم مجرة سماوية . فمثلا ، تدور الارض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميل/فى الثانية . وفى عالم يتحرك فيه كل شىء وليس به نقط ثابتة للمقارنة ، لاتوجد أية معايير ثابتة لمقارنة السرعات والطول والحجم والكتلة والزمن الا عندما تقاس بحركاتها النسبية . أما الضوء وحده فهو غير النسبى ، وسرعته ثابتة لاتتغير بغض النظر عن مصدره أو موقع المبصر ، كما أثبتت تجربة ميتشيلسون ومورلى .

ولاشك فى أن اضعف أفكار اينشتين كلها فهما وأكثرها عدم قلب للمعتقدات الموروثة ، هو نسبية الزمن . فيقرر أينشتين أن الاحداث الحاصلة فى أماكن مختلفة وفى لحظة واحدة لمبصر واحد، ليست حادثة فى نفس اللحظة لمبصر آخر يتحرك نسبيا للاول . فمثلا ، اذا حكم بأن حادثين وقعا معا فى وقت واحد لمبصر على الارض وآخر فى قطار أو فى طائرة ، فالحقيقة انهما لم يقعا فى نفس اللحظة . فالزمن نسبى لمركز المبصر وسرعته وليس مطلقا . وبتطبيق هذه النظرية على الكون ، فان حادثا وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلا ، وشاهده أحد سكان الارض ، فان ذلك الانفجار لم يحدث فى نفس الوقت الذى شوهد فيه على الارض ، بل على العكس ، رغم أن سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية فان حدثا وقع على نجم بعيد جدا ، قد يكون حدث قبل وصول خبره الى الارض بسنوات . والنجم الذى يرى اليوم هو بلاشك نفس النجم الذى رؤى منذ زمن بعيد ، مع أنه ربما لم يعد له وجود فى لحظة الرصد .

اذا امكن ان نتصور انسانا يكتسب سرعة أعظم من سرعة الضوء ، فبحسب نظرية النسبية يمكنه أن يسبق ماضيه ويتم مولده فى المستقبل . لكل كوكب نظامه الخاص للزمن ، يختلف عن جداول الزمن الموجودة فى كل مكان . فاليوم على كوكبنا هو مجرد فترة دوران الارض حول محورها . ولما كان كوكب المشترى يستغرق وقتا أطول فى دورانه حول الشمس عما تستغرقه الارض، فان السنة على سطح المشترى أطول من السنة على سطح الارض عندما تزيد السرعة يبطىء الزمن . لقد تعودنا التفكير فى أن كل جسم له ثلاثة أبعاد فى الفضاء وأن الفضاء بعد للزمن ولايمكن ان يوجد أى من الزمن والفضاء بدون الآخر ، ولذا فكل منهما معتمد على الآخر . ولما كانت الحركة والتغير مستمرين فاننا نعيش فى كون ذى أربعة أبعاد ، البعد الرابع فيه هو الزمن .

وهكذا يكون التمهيدان الاساسيان لنظرية اينشتين كما قدمها منذ نصف قرن قبل ذلك ، هما نسبية جميع الحركات ، وفكرة الضوء على أنه الكمية الوحيدة غير المتغيرة فى العالم كله .

لما أخذ اينشتين يطور نظرية نسبية الحركة هدم اعتقادا راسخا تماما . فقبلا ، كان الطول والكتلة معتبرين مطلقين وثابتين تحت كل الظروف الممكن التفكير فيها . فجاء أينشتين يقرر أن كتلة الجسم أو وزنه وطوله يتوقفان على سرعة تحرك الجسم . فمثلا : تخيل قطارا طوله ١٠٠٠ قدم يسير بسرعة تعادل ٤/٥ سرعة الضوء ، فالمبصر الواقف مكانه وهو يلاحظ القطار فيتراءى له طوله ٦٠٠ قدم فحسب ، ولو أنه يظل ١٠٠٠ قدم لراكب فيه. وبالمثل أى جسم مادى يتحرك فى الفضاء ينكمش تبعا لسرعته . فاذا قذفت عصا طولها ياردة ، فى الفضاء بسرعة ١٦١٠٠٠ ميل/ثانية ، ينكمش طولها نصف ياردة . فلدوران الارض ذلك الأثر الغريب فى اقلال محيطها بحوالى ثلاث بوصات .

وكذلك الكتلة متغيرة . فبينما تزيد السرعة ، تغدو كتلة الجسم اكبر . ولقد أوضحت التجارب أن جزيئات المادة اذا حركت بسرعة ٨٦٪ من سرعة الضوء تزن ضعف وزنها وهى فى حالة السكون . لهذه الحقيقة علاقات كبيرة بتطور الطاقة الذرية .

تعرف نظرية أينشتين الاصلية لسنة ١٩٠٥ بالنظرية الخاصة للنسبية لان استنتاجاتها تقتصر على الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ولاتختص بالانواع الأخرى للحركة . وفى عالمنا ، قلما تتحرك النجوم والكواكب والاجرام السماوية الاخرى حركة منتظمة فى خط مستقيم ، ولذا فان اية نظرية لاتتضمن جميع صور الحركة ، لاتقدم وصفا كاملا للكون . وبناء على ذلك كانت

خطوة اينشتين التالية هى صياغة نظريته العامة للنسبية ، وهى عملية استغرقت عشر سنوات من التطبيق العنيف . درس اينشتاين فى النظرية العامة للنسبية ، تلك القوة الغامضة التى تقود حركات النجوم والمذنبات والشهب والمجرات وكافة الاجسام السماوية الاخرى التى تدور حول الكون الشاسع .

تقدم اينشتين فى نظريته العامة للنسبية التى نشرها عام ١٩١٥ ، بفكرة جديدة عن الجاذبية محدثا تغييرات جوهرية فى فكرتى الجاذبية والضوء اللتين حظيتا بالقبول العام منذ عهد السير اسحق نيوتن . اعتبر نيوتن الجاذبية «قوة» . ولكن اينشتين اثبت أن الفضاء حول كوكب ما أو جسم سماوى آخر، مجال جاذبى يشبه المجال المغناطيسى طول المغناطيس . فالاجسام البالغة الضخامة مثل الشمس والنجوم ، يحيط بها مجال جاذبية بالغة القوة . وهكذا فسرت جاذبية الارض للقمر . كذلك فسرت هذه النظرية الحركات الخطأ لعطارد وهو اقرب الكواكب الى الشمس ، تلك الظاهرة التى حيرت علماء الفلك لعدة قرون ولم يتناولها قانون نيوتن للجاذبية بالدراسة الملائمة . ان المجالات الجاذبية عظيمة القوة لدرجة أنها تحنى أشعة الضوء . وفى سنة ١٩١٩ ، أى بعد بضع سنوات من اعلان النظرية العامة لاينشتاين، التقط المصورون صورا ضوئية لكسوف كامل للشمس اثبتت بصفة نهائية صحة نظرية أينشتاين القائلة بأن أشعة الضوء المخترقة لمجال الجاذبية الشمسية ، تسير فى خطوط منحنية وليس فى خطوط مستقيمة .

نتج عن هذا التمهيد حقيقة تقدم بها اينشتاين ، تقول ان الفضاء مقوس . فالكواكب السيارة تتبع أقصر الطرق الممكنة متأثرة بوجود الشمس ، بنفس الطريقة التى يتبعها النهر فى جريانه نحو البحر متخذا سيره فى الارض فى أسهل طريق طبيعى . وفى

طريقة حسابنا الارضية للاشياء ، فان السفينة أو الطائرة التى تعبر المحيط ، تتبع خطا منحنيا ، اى قوسا من دائرة ، ولاتسير فى خط مستقيم . لذا كان من الجلى ان أقرب مسافة بين القطبين خط منحن وليس الخط المستقيم . وتحكم قاعدة مماثلة حركات الكواكب والاشعة الضوئية .

اذا قبلنا نظرية أينشتين عن الفضاء المنحنى كان الاستنتاج المنطقى هو أن الفضاء محدود . فمثلا ، اذا خرج شعاع ضوئى من نجم ما ، فانه يعود أخيرا ، بعد مئات الملايين من السنين ، الى نفس النقطة التى خرج منها ، مثله فى ذلك مثل السائح الذى يدور حول الارض . لايمتد الكون فى الفضاء الى مالانهاية ، ولكن له حدودا ، ولو أنه لايمكن تحديد تلك الحدود .

من بين جميع الاكتشافات العلمية العظيمة التى قام بها أينشتين ، كان لافكاره عن النظرية الذرية أعظم أثر عميق مباشر على عالم اليوم . فبعد قليل من نشر مقاله الاول عن النسبية ، التى نشرت فى صحيفة «التقويم السنوى للفيزياء» ، حملت نفس الصحيفة مقالا قصيرا لأينشتين يطيل فيه نظريته الى أبعد مما كانت عليه . كان عنوان ذلك المقال «هل يتوقف القصور الذاتى لجسم ما على طاقته ؟» أكد أينشتين انه من الممكن استخدام الطاقة الذرية ــ ولو نظريا على الاقل . ويمكن اطلاق هذه الطاقة تبعا لقانون صاغه أينشتين ، وهو أشهر معادلة فى التاريخ كله : ط = كع ٢ اى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء . فاذا أمكن استخدام الطاقة الموجودة فى نصف رطل من أية مادة أطلقت ، حسب تقرير اينشتين ، قوة تعادل قوة انفجار سبعة ملايين طن من المادة المتفجرة T.N.T. . وكما أشار أحد المعلقين : « لولا معادلة أينشتين لتعثر العلماء فى تجاربهم على تفتيت اليورانيوم ، ولكن من المشكوك فيه أنهم أدركوا أهميتها فى وحدات الطاقة أو وحدات من القنابل» .

برهن اينشتين فى معادلته الشهيرة ط = كع٢ على انالطاقة والكتلة . هما نفس الشيء ولايختلفان الا فى الحـالة فقط . والـواقع أن الكتـلة طـاقة مركزة وكتب بارنيت Barnett فى تقدير وليد الذكاء ، كتب يقول : «تجيب هذه المعادلة على كثير من الغاز علم الفيزياء التى ظلت غامضة منذ أمد بعيد . فهى تفسر كيف تستطيع المواد المشعة كالراديوم واليورانيوم ، اطلاق ذرات ذوات سرعة هائلة ، وتستمر فى اطلاقها لملايين السنين . وهـذا يفسر ، بدوره ، كيف ان الشمس وجميع النجوم تستطيع ارسال الضوء والحرارة لبلايين السنين ، لانه اذا فنيت شمسنا بعمليات الاحتراق العادية لماتت الارض متجمدة بردا وظلاما منـذ آماد بعيدة . انها تكشف مقدار الطاقة الكامنة فى نواة الخلية ، وتبين عدد جرامات مادة اليورانيوم اللازم وجودها فى قنبلة لكى يصبح فى مقدورها أن تدمر مدينة » .

ظلت معادلة أينشتين نظريةحتى سنة ١٩٣٩ ، اذ غدا مؤلفها مواطنا فى الولايات المتحدة الامريكية اذ طرده النازيون من أوروبا. واذ علم أينشتين أن الالمان يستوردون اليورانيوم ويقومون بأبحاث لصـنع قنبلة ذرية ، كتب خطـابا بالغ السرية للرئيس روزفلت Roosevelt

« وصلتنى نسخ خطية عن ابحاث حديثة يقوم بها كل من ا . فيرمى E. Fermi ول . سزيلارد L. Szilard تجعلنى اتوقع أن عنصر اليـورانيوم يمـكن ان يتحـول الى مصـدر جديد هام الطاقة فى المسـتقبل القريب العاجل ... كما تؤدى هذه الظاهرة الجديدة الى صنع القنابل ، ومن المفهـوم ... ان .... قنبلة واحدة من هذا النوع ، اذا حملتها سفينة وفجرتها فى ميناء ، أمكنها تدمير ذلك الميناء كله ومعه بعض الاراضى المحيطة بـه » .

كانت النتيجة المباشرة لخطاب اينشتين الى روزفلت ، ان بدأ مشروع صنع قنبلة مالهاتان Manhattan الذرية . وبعد ذلك بحوالى خمس سنوات فجرت أول قنبلة الماجوردو Almagordo بولاية نيو مكسيكو New Mexico . وبعدها بمدة وجيزة حدث التدمير الذريع الذى احدثته قنبلة ذرية اسقطت فوق هيروشيما Hiroshima ، وكانت السبب فى سرعة انهاء الحرب مع اليابان .

رغم أن القنبلة الذرية كانت أبرز التطبيقات العملية لنظريات أينشتين ، فان الذى وطد شهرته ، هو انجاز شهير آخر . فمع نظريته الخاصة عن النسبية لسنة ١٩٠٥ ، كان هناك قانونه الضوئى الكهربى photo electric ، الذى يفسر الأثر الضوئى الكهربى الغامض الذى مهد الطريق لمجىء التليفزيون والسينما الناطقة و «العين الكهربية» المعروفة بالعين السحرية التى لقيت استعمالات شتى فى كثير من المجالات . وبسبب هذه الاكتشاف منح أينشتين جائزة نوبل فى الفيزياء لسنة ١٩٢٢ .

داب اينشتين فى أواخر سنى حياته على العمل بجد وبغير كلل لتأليف النظرية المعروفة بنظرية المجال الموحد ، محاولا البرهنة على انسجام وانتظام الطبيعة . وتبعا لرأيه ، يجب تطبيق القوانين الطبيعية للذرة الدقيقة على الاجسام السماوية الضخمة ، فان نظرية المجال الموحد تدمج كافة الظواهر الطبيعية فى قاعدة واحدة . فالجاذبية والكهرباء والمغناطيسية والطاقة الذرية كلها قوى تشملها نظرية واحدة . وفى سنة ١٩٥٠ ، بعد ابحاث دامت أكثر من جيل ، قدم أينشتين هذه النظرية للعالم ، وعبر عن اعتقاده بأن مفتاح الكون فى هذه النظرية . اذ تجمع فى فكرة واحدة بين لا نهائية الصفر ، وعالم الذرة الدوار ، واتساع مدى الفضاء الملىء بالنجوم . وبسبب الصعوبات الرياضية ، لم تختبر هذه النظرية تماما تبعا

للحقائق الثابتة فى علم الفيزياء . ومع ذلك ، فقد كان لدى أينشتين اعتقاد راسخ بأن نظريته عن المجال الموحـد ستقدم فى وقت ما تفسيرا «للصمة الذرية للطاقة» وتبرهن على وجـود عالم جيـد التنظيم .

شرح أينشتين الفلسفة التى اوحت اليه وقادته خـلال عشرات السنين من المجهود الذهنى العنيف ، ومانتج عن ذلك من نتائج اثابته على كل هذه الجهود . شرح تلك الفلسفة فى محاضرة عن أسس النظرية العامة للنسبية . ألقاها فى جامعة جلاسـجو سنة ١٩٣٣ ، قال فيها :

« تكاد النتائج الاخيرة تبدو بسيطة ، فان أى طالب جامعى ذكى يستطيع فهمها دون عنـاء كبير . ولكن سـنوات البحث ى الظلام عن حقيقة نشعر بها الانسان ولايمكنه التعبير عنها ، والرغبة الشديدة وتبادل الثقة والشك حتى يشق المرء طريقه الى الوضوح فالفهم ، لايعرف كل هذه ، الا من مارسها بنفسه» .

وفى مناسبة أخرى ، قدم أينشتين الدليـل على الناحيـة الروحية العميقة لطبيعته بهذا القول :

« ان أجمل وأعمق عاطفة أو انفعـال يمـكن أنينتابنا هو الاحساس بدافع خفى نحو وجود شىء غامض . انه الذى يبذر بذور جميع العلوم الحقيقية . ومن كان هذا الانفعال غريبا عليه . فمعرفة أن ما لا يمكننا التغلل فى غوامضه ، موجود فعلا ومعبر عن وجوده كأسمى حكمة وكأعظم جمال يتالق لاتستطيع مواهبنا الخاملة على فهمه الا فى صورتها المتناهية البدائية ــ هذه المعرفة وهذا الاحسـاس كامنان فى وسط التدين الحقيقى» .

اعترف عدد لايحصى من العلماء بفضل أينشتين . وتبرهن

بعض نصوص استعراضاته الحديثة عن مستقبله ، على سيطرته الفريدة على دنيا العلوم . فكتب بول اويهزر Paul Oehser يقول :

« السيطرة كلمة ضعيفة لتوصف بها اعمال البرت أينشتين . فالنظريات التى قدمها نظريات ثورية . ولد فيها العصر الذرى ولانعرف الى أية ناحية تقود الجنس البشرى . ولكننا نعلم علم اليقين أن هذا هو أعظم عالم وفيلسوف فى القرن العشرين ، كاد أن يكون قديسا فى نظرنا ، وقد حققت أعماله ثقتنا فى العقل البشرى ، وهى رمز للطموح الابدى للانسان وطلبه الوصول الى النجوم .

وقال العالم بانش هوفمان Banesh Hoffman

« لاتكمن أهمية آراء أينشتين العلمية فى نجاحها العظيم فحسب ، فان أثرها السيكولوجى قوى بنفس الدرجة وفى حقبة ناقدة فى تاريخ العلوم ، برهن أينشتين على أن الافكار التى ظلت مقبولة منذ أمد بعيد ، ليست مقدسة . وكان هذا اكثر من أى شىء آخر هو ما حرر مخيلة الناس أمثال بوهر Bohr ، ودى بروجلى de Broglie وأوحى الى انتصاراتهم الجريئة فى مملكة الجملة . فأينما أدرنا بصرنا ، فان فيزياء القرن العشرين تحمل الطابع الذى لايطمس لعبقرية أينشتين .